

فوزي عبده

عَمرَة

AMRA

ببلومانيا
للنشر والتوزيع

فوزي عبده

عَمرَة

ببلومانيا للنشر والتوزيع

عَمرَة

الاحتفاظ بالذاكرة والوعي بعد الرحيل عن الجسد ليس بالأمر السهل، فالكثير من الأرواح تفقد هويتها بعد أيام... هل عقلك الصغير سيفهم أن هناك حياة بعد الموت؟؟ وأن البعض يمتلك القدرة على الانتقال من حياة إلى أخرى؟؟
لا أنصحك بدخول هذه الدوامة!

فوزي عبده | Fawzi Abdo
روائي مقدسي لديه عدد من الروايات المنشورة وغير المنشورة، صدر له:



ISBN 978-9950-329-61-4
9 789950 329614

ببلومانيا
للنشر والتوزيع

عَمرة

عَمرة

فوزي عبده

ببلومانيا
للنشر والتوزيع

ببلومانيا للنشر والتوزيع

نوع العمل: رواية

اسم العمل: عَمرة

اسم المؤلف: فوزي عبده

تدقيق لغوي: مصعب أبو زيد

تصميم وإخراج: Design Studio

ISBN: 978-9950-329-61-4

الناشر: دار ببلومانيا للنشر والتوزيع

المدير العام: جمال سليمان

هاتف: 26061014 (20+)

محمول: 1208868826(20+) / 1065534541 (20+)

صفحة الدار على (فيسبوك) :

https://www.facebook.com/bibliomania.eg/

الموقع الإلكتروني:www.ebibliomania.com

الطبعة الأولى 1441 هـ -2019 م

تنويه: ما ورد في الرواية يعبر فقط عن وجهة نظر كاتبها.

" الروح ترى مالاتراه العيون لهذا

آراكم"

فوزي عبده

"المال لايشتري السعادة" .

قالها ثريٌ لم يتذوق مرارة الفقر يوماً .

"السعادة لاتُشترى بالمال" .

قالها فقير لم يتذوق حلاوة الثراء يوماً .

كلمات شهية في فم الثري و أذن الفقير،

أما أنا فمحظوظة لأني أعلم أن مذاق الكافيار أشهى من الخبز اليابس .

فِيْ أحد الأيام كنت برفقته، ولفت انتباهي بيت جميل سرق أضواء البيوت التي تجاوره، فطلبت أن يتمهل لأراه عن قرب. أوقف السيارة وسألني:

– هل تريدين أن اشتريه لك؟

فقلت ممازحة:

– سأفكر بالأمر!

عدنا إلى "فيلتنا"، وفي اليوم التالي خرجنا كعادتنا كل مساء لتناول الطعام في المطاعم الفخمة، توقف بجوار البيت الذي لفت انتباهي بالأمس ثم طلب أن أترجل لنلقي نظرة عليّه، فسألته:

– هل أنت جاد وتفكر بشرائه لي؟

– لم أفكر، لقد اشتريته لك.

أي امرأة في مكاني كانت ستعتقد أن زوجها يمازحها، أما أنا فما كنت لأشك للحظة في أنه مجنون بحبي، يمتلك من المال والدهاء الكثير ليشتري أي شيء يسعدني، لا أشك في أنه دفع أضعاف ثمنه ليتمم الصفقة بهذه السرعة، فقط ليفاجئني. لم تكن تلك المرة الأولى ولن تكون الأخيرة. حبيبي كان بارعاً في شراء السعادة لي صبح ومساء. أحببته وأحببت ثراءه، فما كنا ننفقه في يوم واحد كان على عشرة أن يعملوا بجد عاماً كاملاً لادخاره، وماذا تريد أي امرأة أكثر من هذا؟!

أنا خديجة وهذا زوجي سعيد، كنا ثريين نسكن القصور، وبين ليلة وضحاها خسرنا كل شيء، والقصة لا تدور حول ثرائي وفقري، وإنما حول المرأة التي زارتني ذات يوم.

استيقظت باكراً وأرسلت أطفالي إلى المدرسة، ثم عدت للنوم لعليّ أحظى بحلم جميل يأخذني إلى الأيام الغابرة التي كنت أمتلك فيها كل شيء، ولا أعجز عن شراء شيء، وقبل أن تغفو عيني سمعت طرقات على الباب فتجاهلتها، فأنا لا أستقبل ضيوفاً في بيتي الحقير هذا، علاوةً على أن من يسكن حياً شعبياً وباب بيته ملاصق لزقاق ضيق، فعليه أن يعتاد اصطدام المارة ببابه جيئة وذهاباً، ولهو الأطفال خاصةً أن لعبتهم المفضلة هي طرق الأبواب والاختباء، والأسوأ من كل هذا غزو المتسولين وإزعاجهم الذي لا يتوقف ليل نهار. لم أفهم يوماً فلسفة المتسولين، ولماذا يفضلون طرق أبواب الفقراء! أليس من الأجدى أن يهدروا وقتهم بزيارة قصور الأثرياء؟! فأنا لا أذكر في الماضي أن أحدهم اقترب من قصرنا.

لم أشعر بالفضول لأستكشف إن كان المزعج طفلاً يلهو أم متسولاً سيعرض عليّ دعواته مقابل النقود، عدت إلى النوم لكن الطارق لم ييأس، أزعجني إصراره، ولفت انتباهي طريقته المهذبة في قرع الباب، ثلاث طرقات ثم يتوقف، ويعيد الكرة مجدداً بعد نصف دقيقة، فقررت أن أكشف عن هويته، وأقسمت إن كان متسولاً أن أقنعه بطرق باب جارتي، وحينها سيقع في شر أعماله ولن يعود إلى هذا الزقاق مرة أخرى.

لم أتسرع في فتح الباب، فربما كانت إحدى الجارات تقف في الزقاق وتراقب، لذا كان عليّ غسل وجهي وزيارة المرآة، وسؤالها إن كان مظهري يسمح بأن يراني أحد، ولكن في هذا الحي مرآتي مكسورة، ولن تعكس إلا صورة الفقر الذي أعيشه،

فتحت الباب وعلى الطرف الآخر كانت تقف شابة صغيرة في العشرينات من عمرها ترتدي ملابس تقليدية إنكليزية، وتضع على رأسها قبعة غريبة وتحمل بيدها حقيبة سفر. كل شيء فيها يدل على الرقي ويوحي أنها قادمة من مطلع القرن التاسع عشر، أو خرجت من إحدى مسلسلات الأبيض الأسود، خلا وجهها من أي تعابير، حدقت بي بعينيها الصامتتين ولم تبتسم، خُيل إلي أني أقف في مواجهة تمثال، تحركت شفتاها ونطقت بنبرة قائد معسكر تدريب مجندين جدد:

– هل هذا بيت سعيد القاسم؟ وإن كان هذا بيته فهل هو موجود؟ وإن كان غائباً فمتى سيعود؟

جمعها أسئلة ثلاثة في سؤال واحد استفزني، وشدّها على الحروف أكد أنها ليست عربية، وبما أنها تسأل عن زوجي فقد كان عليّ أن أتفحصها أكثر قبل أن أرد عليّها، بشرتها ناعمة وعيناها عسليتان، تصغرني بعشرة أعوام إن لم يكن أكثر، أنا أجمل منها على الرغم من فارق السن، من يقف خلف الباب يزداد طولاً بالمقارنة مع من بالداخل، لهذا كان عليّ أن أقفز إلى الزقاق لأقف إلى جانبها. كانت أقصر مني، ملابسها تخفي قوامها ومع ذلك لاحظت أنها أنحف مني بكثير، بالإمكان أن أخفف من وزني مستقبلاً أما هي فلن يزداد طولها أبداً، طاقتها تبعث على الراحة، قاطعت تفحصي إياها وأعادت سؤالها بصرامة، حتى أشعرتني بأني تلميذة صغيرة أقف في حضرة مديرة، وأن عليّ أن أحني رأسي وأجيبها حتى لا تعاقبني:

– نعم، هذا بيته، وهو برفقة وفد سياحي ولن يعود قبل أيام.

أجبتها بالإنجليزية، فأنا خريجة سياحة وأتقنها جيداً، ودون أن تبتسم نطقت الكلمات ببطء وقالت:

- أنا أتحدث العربية جيداً وأفهمها، هل أنت ابنة سعيد؟

أحببت طريقة نطقها العربية وأحببت أكثر اعتقادها أني ابنة زوجي، وكنت سأكون أكثر سعادة لو كان موجوداً في هذه اللحظة ليعرف أن هناك من يعتقد أني ابنته، على الرغم من أني في الثلاثينات من عمري، فأجبتها:

- اسمي خديجة، وأنا زوجة سعيد ولست ابنته.
- شكرا يا (خجيجة) سأعود لاحقاً.

حنت رأسها وحين استدارت لترحل انشغلت بتفحص قوامها، ولكن سرعان ما شعرت بالتحرر من هيبتها التي طغت عليّ، فأخذت أهذي: هل سأسمح لها بالرحيل بهذه البساطة؟ أنا امرأة شرقية، تدق بابي من هي أنحف مني وأصغر عمراً وتسأل عن زوجي بوقاحة، فكيف أتركها ترحل دون أن أحقق معها؟! لحقت بها لأشدها من شعرها وأصرخ في وجهها وأسألها من تعتقد نفسها لتدق بابي وتسأل عن زوجي وتحولني من خديجة إلى (خجيجة) ثم تبتعد وكأن شيئاً لم يكن:

- "هالو هالو، مس ستوب! انتظري.

التفتت إلي وسألتني:

- ماذا تريدين يا (خجيجة)؟

كظمت غيظي، وبرقة ونعومة قلت:

– اسمي "خ د ي ج ة" خديجة، وليس من اللائق أن أسمح لك بالرحيل قبل أن أدعوك لاحتساء القهوة.

أحنت رأسها بتهذيب علامةً على موافقتها على دعوتي ورافقتني عبر الزقاق باتجاه البيت، وهنا عاد إليّ رشدي، فتذكرت أن بيتي لم يكن يوماً معداً لاستقبال ضيوف أعرف بقدومهم قبل شهر أو حتى عام، فكيف سأستقبل ضيفاً مفاجئاً في هذا الوقت المبكر؟ خطر على بالي أن أوفر على نفسي معاناة ما ستراه من فوضى في الداخل، وأسألها من أين تعرف زوجي وأتركها تذهب في حال سبيلها، لكن سرعة خطواتها فوتت الفرصة، فسبقتها بثلاث خطوات ودلفت عبر الباب، أسرعت إلى ما يسمى صالة الضيوف التي لا يزيد طولها على المترين، كانت في حالة من الفوضى العارمة، ألعاب الأطفال وكتبهم وملابسهم منتشرة هنا وهناك، وبسرعة امرأة نشيطة لا تتوقع ضيفاً أفسحت لها مجالاً لتجلس على الأريكة الوحيدة التي نملكها.

أخذت تتفحص صالة ضيوفنا المتواضعة، فسألتها إن كانت مازالت ترغب باحتساء القهوة، فقد صار لدي شك في أنها لن ترغب بها بعدما رأت من الفوضى ما رأت، ولن ألومها على ذلك، فأنا شخصياً قبل عشر سنوات، ما كنت لأرضى أن آكل أو أشرب في أفخم المطاعم إن لمحت عيني ذرة غبار، استفزني ما فكرتُّ به، ورغبت في أن أصحبها إلى المطبخ، فإن لم ترتعب من صالة الضيوف فسيغشى عليها من هول ما ستراه هناك، تبرمت بهدوء ثم قالت:

- ما هذه الفوضى يا خديجة؟ كيف بإمكان أطفالك العيش في هذه الأجواء غير الصحية؟

يا لوقاحة هذه الغريبة! تعاتبني وكأنه يحق لها ذلك! فسألتها:

- كيف عرفت أن لدي أطفالاً؟
- مثل هذه الفوضى تدل على أطفال.

أدركت غبائي، نعم، كل شيء يشير إلى عفاريت صغار، ذهبت لإعداد كوب من الشاي دون سكر بناءً على طلبها، وعدت مسرعة قبل أن تهرب، فوجدتها منهمكة بترتيب الصالة وجمع ألعابهم وكتبهم، وفاجأتني بطلبها قطعة قماش مبللة، جلبتها دون معرفة السبب، ولم أتوقع أنها ستبدأ بمسح الغبار. وقفت أراقبها كالصنم، هذه المرأة تتعمد إهانتي بطريقة غريبة جداً، وقلت لها:

- اعذريني، باب بيتنا ملاصق للطريق، والغبار لن يكف عن زيارتنا يوماً! كان عليك زيارتي قبل عشر سنوات حينما كنت أسكن القصور وقبل أن نتحول إلى فقراء بين ليلة وضحاها.

جلست على الأريكة باسترخاء، وأمسكت كوب الشاي بأناقة، ثم أخذت تحتسيه كسيدة مجتمع راقية، رغبت في لفت انتباهها إلى أن بيتنا لا يتماشى مع طقوس الإتيكيت، وعليها أن تسرع وتخبرني من أين تعرف زوجي وتذهب قبل أن يلتصق الغبار بثيابها، لكنها قالت برقة ونعومة أفسدتها ركاكة عربيتها:

- بيتك دافئ يا خديجة وتفوح منه رائحة السعادة، وكونك فقيرة لا يبرر لك العيش في هذه الفوضى! هيا تحركي وساعديني لنعيد ترتيبه.

تطلب أن أساعدها في تنظيف بيتي! طريقتها في نطق الحروف ونظراتها الخالية من أي تعبير جعلتني أنساق خلفها وأنسى أني أدخلتها البيت لأحقق معها! شل عقلي وانجررت خلفها، وحين حاولت أن تتجاوز الخط الأحمر لتصل إلى المطبخ، اعترضت طريقها؛ لأمنعها من أن تَرى ما لا يُرى، تجاوزتني ووقعت عيناها على الفظائع، فأخذت توبخني بوقاحة:

– ما هذا يا خديجة!؟

شعرت بالخجل وتمنيت لو كان بإمكاني الاختباء في الثلاجة، يا لوقاحة هذه المرأة، تسأل عن زوجي وتقتحم بيتي وتبدأ بمحاسبتي على فوضاي الخاصة، وبدل أن أشد شعرها وأصفعها وألقي بها خارج البيت، أسرعت لإخفاء ما يمكن إخفاؤه. أخذت أبرر لها، ووصل الأمر بي أن أدعي المرض، فهزت رأسها بطريقة شعرت بأنها ستقول أنت كاذبة يا خديجة، لكنها لم تعلق بل انطلقت كالصاروخ تغسل وتنظف، ساعدتها ولم أعترض، شعرت بأني أقف في حضرة حماتي التي قررت أن تقوم بحملة تفتيش على بيت زوجة ابنها.

انتهت من التنظيف والترتيب وعدنا إلى الصالة فاسترخت على الأريكة مجدداً، وبعفوية أخذت أشرح لها أن بيتنا صغير: غرفة نوم ومطبخ بالكاد يتسع لشخصين، وصالة نستقبل بها الضيوف وينام فيها الأطفال ويلعبون، ومهما فعلت يستحيل تنظيمه، فردت بتهذيب:

– عليكِ بذل جهد أكبر لأجل عائلتك.

يا إلهي، كل شيء في هذه المرأة يدل على الرقي، وكل ما تقوم به يدل على تواضع عجيب، غسلت الصحون ومسحت الأرض ولم تتأفف من جمع القمامة، لا ملامح على وجهها، لم تبتسم، ومع هذا وجدت طريقها إلى قلبي، وجاء دوري لأسألها من تكون ومن أين تعرف زوجي؟ وقبل أن يتسنى لها الإجابة عادت الفوضى من المدرسة، ابنتي الصغيرة وشقيقاها، حاولت أن أسيطر على الإعصار القادم حتى لا ينقلب بيتي النظيف المنظم رأساً على عقب، فقررت حجزهم في غرفة نومي، فاعترضتني القصيرة النحيفة وطلبت أن أعد لهم الطعام، تركتها تعاني من رفقتهم وذهبت إلى مطبخي النظيف، وبعد دقائق تبعني ولدي وطلب كوب ماء للآنسة عمرة، فسألته ومن تكون عمرة؟ فأشار بإصبعه إلى الصالة، وبعفوية ذهبت إليها وسألتها:

- اسمك عمرة؟
- اسمي أمرة، وبإمكانك مناداتي عمرة.

زممت شفتي وعدت للمطبخ، يا للروعة، منذ الصباح ترهقني بتلميع كل شيء ولم أعرف اسمها، والصغار في دقائق عرفوا اسمها! ربما عليّ أن أسألهم من أين تعرف هذه العمرة زوجي؟

أنهيت إعداد الطعام وعدت إلى الصالة، كان ابناي يجلسان على يسراها وابنتي على يمناها، ويستعرضون ما يحملونه في حقائبهم المدرسية، تجمدت في مكاني وأنا أراقبها توبخهم وتشرح لهم كيف يجب أن تكون حقائبهم، وكدت أتفجر من

الغيظ، لأن أبنائي الشياطين مهذبون في حضرتها يصغون إليها بمنتهى الأدب. لم أتمالك نفسي، كان عليّ أن أثبت لنفسي أني سيدة هذا البيت، فصرخت فيهم:

- خذوا الطعام واذهبوا إلى غرفة نومنا ولا تخرجوا من هناك.

وفي سري قلت، لن أصبر أكثر، عليّ أن أعرف الآن من تكون هذه المرأة ومن أين تعرف زوجي، ففاجأتني باعتراضها الشديد وقولها:

- لا يجوز تناول الطعام في غرفة النوم.

الإرهاق والغضب والغيظ والفضول اجتمعا معاً ولم أمنع دموعي من أن تجد طريقها إلى خدي، وما إن لاحظتْها عمرة حتى طلبت من أبنائي أن ينفذوا ما طلبت منهم، فأخذوا طعامهم وذهبوا، فتفجر كبت السنين دفعة واحدة وأخذت أبكي:

- نحن فقراء يا سيدة عمرة، لا يهمنا أين نأكل وأين ننام، أرجوك لا تثيري جنوني أكثر، أخبريني من أين تعرفين زوجي؟

حدقت بي ثم قالت:

- أنت لست فقيرة يا خديجة، أنت ثرية بدفء أسرتك، والسعادة تحيط بك، إن لم تريها فلن تراك! وبيتك الصغير بإمكانه أن يكون جنتك، وعليك أن تبذلي جهداً أكبر في تنظيفه وتنظيمه فقط.

- عن أي بيت تتحدثين يا عمرة؟ بيتنا صغير أسفل شارع لا يصلح أن تعيش فيه الكلاب، وصدقي أني قبل سنوات ما كنت لأرضى لكلبي "الهاسكي" أن يعيش في مثل هذا المكان!

- السعادة لا تسكن القصور يا خديجة.

– ولا تسكن منازل الفقراء يا سيدتي الراقية.

مدت يدها وسحبتني من ذراعي لأجلس بجانبها، لفت ذراعيها حولي وأخذت تهمس في أذني، وتشرح لي أن السعادة تسكن البشر لا البيوت، شعرت بأني طفلة صغيرة تجلس في أحضان والدتها لتشعر بالحنان والأمان، وتركت لنفسي العنان وبكيت كما لم أفعل منذ سنوات، وحين تمالكت نفسي شعرت بالخجل، فهذه التي رميت نفسي في أحضانها تصغرني بعشرة أعوام.

هدوء غريب، حتى أبنائي العفاريت كانوا صامتين... كنت بحاجة إلى أن أخرج ما يختلج في قلبي، فالثراء غادرنا وأخذ معه الأصدقاء كلهم، ومنذ زمن طويل لم أجد من أشكو إليه همومي، رويت لها كيف كنا من الأثرياء وبين ليلة وضحاها خسرنا كل شيء، حتى ثيابنا الفاخرة اضطررنا لبيعها، كانت تربت على كتفي، وإن انزلقت دمعة كانت تمسحها بكفها، لم تسأل ولم تقاطع، وأنا أنتقل من موضوع إلى آخر، وكلما اقترب أحد أبنائي تشير بإصبعها فيعود أدراجه... يا إلهي، كم كنت بحاجة إلى البوح والبكاء، لم أرغب بالتوقف بعد أن شعرت براحة لم أعرفها منذ سنوات، استفزني أن التي أحكي لها قصتي لم تخبرني حتى الآن من تكون وكيف تعرف زوجي!

مددت يدي أسفل الأريكة وأخرجت علبة سجائر وقبل أن أشعل واحدة، جحظت عيناها وأخذت توبخني، كأن ما أقوم به جريمة لا تغتفر، ووجدت نفسي أتوسل إليها أن تسمح لي بسيجارة واحدة فقط، فتبرمت وطلبت أن أدخنها خارج البيت حتى لا أضر صحة أطفالي... انسقت إليها كجروة تأمرها سيدتها، فتحت الباب

وأخرجت رأسي وأخذت أنفث الدخان خارجاً، فأمرتني أن أبتعد أكثر لأن رائحة الدخان عادت إلى البيت وأزعجت أنف حضرتها.

يا للروعة، طردتني من بيتي! وأنا الآن أقف في الزقاق بشعري المنكوش أدخن سيجارة، وإن مر أحدهم ورآني بهذا المنظر فسيعتقد أني مدمنة مخدرات، اكتفيت بنصف سيجارة وعدت إليها، وكلي عزم أن أعرف من تكون، وقبل أن أنبس ببنت شفة اقترحت عليّ مرافقتها لشراء بعض الحاجيات، فلم أعترض.

أوصينا الأطفال الالتزام بالبيت حتى عودتنا، وفي طريق خروجنا طلبت مني حمل أكياس القمامة التي تركناها جوار مدخل البيت. حاولت أن أشرح لها أن عامل النظافة سيأتي صباح الغد ويجمعها، ولكنها أصرت على إبعادها عن مدخل البيت، ولم تكتفِ بذلك بل أخرجت منديلاً من جيبها واقتربت من أكياس القمامة الأخرى وحملتها هي أيضاً فأخبرتها أن ما حملته هو قمامة الجيران ولا علاقة لنا، فكان ردها:

- حين تكون القمامة بجوار بيتك فلا يهم من هم أصحابها.

معها حق وربما عليّ عند عودتنا أن أحضر لها مكنسة لتكنس الزقاق! وقبل أن أسألها عن وجهتنا، وبختني لأن ما أعده لأطفالي من طعام لا يناسب سنهم ويضر صحتهم، وأنها أعدت لي قائمة بما عليّ أن أشتري وأطهو، جاريتها وصحبتها لدكان الخضار الذي اعتدنا استدانة الخضار منه، وليتها اكتفت بإصدار الأوامر لتحدد لي ما عليّ شراؤه، بل أخذت تنتقي الخضار حبة حبة، وبعد جهد جهيد لم نشترِ إلا القليل، أثارت جنون البائع وهي تفاوضه على السعر، فقلت لها إننا

نستدين ما نحتاجه وندفع له كلما تيسر حالنا، ولا يستحق ما اشتريناه أن نفاوض على سعره، فردت بوقاحة وعلى مسمع البائع:

– التجار لصوص وعليك ألا تسمحي لهم بخداعك، وإن لم تفاوضي على كل شيء فستهدرين مالك!

– لا تقلقي يا عمرة، لا مال لدينا لنهدره.

الوقت مر بسرعة، وكانت بارعة في إحراجي في كل مكان نزوره، وحين عدنا إلى البيت، أخذت تهز رأسها وقالت:

– ما هذا يا خديجة؟! لا يجوز أن تسمحي بهذا.

التفت وأخذت أبحث عن السبب وأين أخطأت هذه المرة؟ البيت نظيف، أولادي يشاهدون التلفاز بهدوء، فسألتها عن الذي لا يجوز فردت:

– كيف تسمحين لأطفالك بمشاهدة هذا الاختراع الشيطاني؟

– وأي جريمة في مشاهدتهم التلفاز؟

لم تتعب سيدة البيت الجديدة لسانها، فأغلقت التلفاز واقترحت على شياطيني الصغار أن تقص عليهم قصة، لم يعترضوا والتفوا حولها بكل حب وانتباه، لو فعلت ما فعلت واقتربت من شيطانهم الرجيم قبل العاشرة ليلاً لالتهموني حية، كانوا سعداء بعمرة وحكايتها، وتساءلت هل أحبوا الحكاية أم أسلوبها في القص؟

كان اليوم طويلاً ومرهقاً على غير العادة، ولم آخذ نصيبي من النوم في ساعات النهار فتثاءبت، لاحظت ذلك وسألتني إن كان بالإمكان أن تقضي الليلة هنا، لم

أعارض فما كنت لأسمح لها أن تذهب إلى أي مكان دون أن تخبرني من أين تعرف زوجي.

– اذهبي للنوم يا خديجة، وسأحرص على أن ينام الأطفال باكراً.

ونِعم الأم أنا! ذهبت للنوم وتركت أطفالي برفقة غريبة لا أعرف عنها شيئاً! والأشد غرابة أنني لم أشعر بأي قلق، حتى أني في تلك الليلة استمتعت بالنوم على غير عادتي، وفي الصباح أيقظتني ابنتي الصغيرة بقبلة، دون صراخ أو ضجة تناولوا إفطارهم ووقفوا في انتظار إشارة مني لبدء السباق إلى المدرسة، وبعينين نصف مغمضتين وبحركة كسولة من ذراعي طلبت منهم الانصراف، فهزت عمرة رأسها معترضة، وبعفوية فتحت ذراعي وسألتها:

– ماذا فعلت هذه المرة؟

تجاهلت السؤال وأشارت إلى الصغار، فاقتربوا مني وعانقوني وقبلوني، ثم انطلقوا في طريقهم، وفور ابتعادهم أخذت توبخني لأنه لا يجوز أن أسمح لأبنائي أن يخرجوا من البيت دون عناق، فقلت لها:

– لقد كبروا على العناق.

– لن يكبروا يوماً على العناق.

لا مجال للعودة إلى النوم وعمرة في بيتنا، أعددت فنجان قهوة وأخذت سجائري وخرجت للزقاق حتى لا أزعج أنف حماتي، ثلاثة أيام مرت قلبت فيها حياتي رأساً على عقب، تجولنا معاً، لم أُنهِ نصف علبة سجائر، احتسيت الكثير من الشاي لا القهوة، تحدثنا عن كل شيء، لم أجد وقتا لأسألها من تكون؟ ومن أين تعرف

زوجي؟ ربما في أعماقي أردت أن تبقى بالقرب مني، فمنذ أن عانقتني لم أعد أشعر بالتوتر أو القلق، لهذا لم أصر على السؤال خشية أن تكون إجابته سبباً في إنهاء هذه العلاقة الغريبة.

في اليوم الرابع كانت عمرة مرهقة وأرادت أن تستلقي على الأريكة فعرضت عليها أن تنام في غرفتي حتى لا يزعجها الأولاد حين عودتهم من المدرسة.

كَانَ سعيد في منتصف الخمسينات من عمره، أنفه مستدق، يغزو الشيب شعره، عيناه خضراوان تشعان ذكاء، في شبابه احترف العمل في مجال السياحة وأجاد لغات عدة، طموحه لم يعرف حدوداً أو ممنوعاً، كان بإمكانه أن يصحب وفداً سياحياً بأكمله إلى أي بقعة وإقناعه بأن أحد القديسين قد عاش فيها، ويبيعهم حجارتها مقابل مئات الدولارات، ما إن بلغ الثالثة والأربعين من عمره حتى حاز لقب أمير السياحة، وجمع ثروة ضخمة، وصادف أن تعرف إلى خديجة الخريجة حديثاً من كلية السياحة فوقع في حبها من اللحظة الأولى، ومع أنها هي الأخرى سحرت بشخصيته الجذابة فإنها كانت حذرة من الاقتراب منه، لأنه الرجل الذي لا يعجز عن الحصول على ما يريد، وبعد مرور عام كامل استثمر خلاله سعيد خبراته وأدواته أوقع خديجة بحبه وتزوجها، ومرت عليّهما سنوات من الرخاء والسعادة، جالا ربع العالم وأنجب منها، وفي ظروف غامضة لم يعرفها أحد، حتى خديجة، فقد سعيد ثروته كلها واضطر إلى الانتقال وأسرته للعيش بغرفة ونصف أسفل مبنى قديم بحي شعبي، ولإعالتهم اضطر إلى العمل مجدداً كمرشد سياحي مقابل أجر متواضع، عاد من رحلته الأخيرة وهو يحمل معه أكياساً مليئة بأغراض

طلبتها زوجته، وحقيبة تدلت من على كتفه، يسير وبين الحين والآخر وهو يتحسس جيب بنطاله ليطمئن إلى أن النقود التي يحملها ما زالت في مكانها ولم تختفِ، ويحدث نفسه. فِيْ مجال عملي لا شيء أسوأ من مرافقة وفد سياحي أعرف سلفاً أنه لا يضم سوى البخلاء، وفي ظروفي الحالية لست صاحب القرار لأختار الوفد الذي أرافقه والمدة التي سأقضيها برفقته، كنت آمل أن تنتهي هذه الرحلة بألف دولار ولكن لا بأس بنصف المبلغ الذي حصلت عليه، عمولات من المحال والمطاعم التي أقنعت الوفد بزيارتها، كم أشتاق إلى زوجتي وأطفالي، لا شيء في العالم كله يمكن أن أبادله بساعة واحدة أقضيها معهم، لكن قسوة الحياة هي التي تحتم عليّ أن أكون بعيداً عنهم كلما اقتضت الظروف. عدت إلى البيت فتحت الباب واستقبلتني الحبيبة بالعناق، وتسابق الصغار بالسؤال عما جلبته لهم، قبلتهم جميعاً وحملت حقيبتي لأتركها في غرفة النوم فاستوقفتني خديجة وقالت:

– لا تذهب إلى غرفة النوم، عمرة نائمة.

لم أفهم من تكون عمرة، فافترضت أنها ابنة أحد الجيران وقد طلبت أمها الاعتناء بها لسبب ما، واستبعدت أن تكون قريبة أو صديقة لزوجتي فلا أحد يزورنا، لم أشغل بالي بالأمر، فأخذت ألعب مع الصغار، مما دفع خديجة لتشير بيديها وتهمس:

– اخفضوا أصواتكم، عمرة نائمة!

حركاتها العفوية أثارت ضحكي فقلدت حركاتها وهمست بدوري:

– "هووووش" عمرة نائمة!

ضحكنا بهدوء حتى لا نوقظ عمرة، ثم اقتربت من التلفاز لعله يخفف عنا ضوضاء الطريق. ملامح خديجة وردة فعلها فاجأتني:

– أغلق هذا الشيطان، لا شيء يستفز عمرة أكثر منه.

التلفاز الصديق الصدوق لخديجة تحول إلى شيطان في غيابي، والأهم أنه يستفز عمرة، وهنا ما عاد للصبر موضع وحان الوقت لأعرف من تكون عمرة، فأشعلت سيجارة وقبل أنفث أول مجة اختطفتها خديجة من بين شفتي وألقتها من النافذة قائلة:

– هل جننت؟ ستغضب عمرة إن علمت أننا دخنا داخل البيت.

صمت دقيقة قبل أن أسألها:

– خدوج، حبيبتي من تكون عمرة؟!

كم كانت صدمتي كبيرة حينما فتحت خديجة ذراعيها قائلة:

– أقسم بالله لا أعرف من تكون، صحيح أخبرني أنت من تكون عمرة؟

– خديجة حبيبتي، هل تمازحيني؟

– لقد أقسمت بالله أني لا أعرف من تكون هذه المرأة.

يا إلهي، نبرة صوتها وكل عضلة في وجهها توحي بصدقها، هل يعقل أنها جنت في غيابي؟ ولألطف الأجواء وأخفف التوتر الذي ظهر على محياها ابتسمت وسألتها بهدوء:

– تنام في غرفة نومنا، لا تسمح بالتدخين ولا تعرفين من تكون؟

صمتت وأخذت تفكر، كان واضحاً أنها تبحث عن جواب منطقي، وبعد صمت، ضمت شفتيها وغرقت عيناها في الحيرة ثم قالت:

– لا أعرف، اسأل الأولاد ربما عرفوا من تكون!

نظرت باتجاه الأولاد لعل أحدهم يفك سر هذه الأحجية، وسألتهم ساخراً:

– من تكون عمرة؟

وقبل أن ينبس أحدهم بحرف خرجت خديجة من حيرتها قائلة:

– ولماذا لا تخبرنا أنت من تكون ومن أين تعرفك؟

نجحت في استفزازي وأخرجتني من هدوئي، فوقفت لأذهب وأكتشف سر هذه العمرة التي تسكن بيتنا ولا يعرفها أحد، إلا أن زوجتي منعتني بقوة وطلبت أن ننتظر لتفيق وحدها، فاسترخيت على الأريكة مترقباً ظهور المرأة التي تسكن بيتنا منذ أربعة أيام. لم يطل انتظاري بعد أن أعلن صرير باب غرفة نومنا قدوم المجهول، أطلت شابة تسير بخطوات ثابتة وتعيد ترتيب هندامها، فركضت باتجاهها ابنتي وأمسكت ذراعها فحملتها وحضنتها، الملابس التي ارتدتها زادت على عمرها الكثير، كانت نظراتي حذرة؛ حتى لا أدفع حياتي ثمناً لنظرة خاطئة في وجود خديجة التي تغار من ظلها. وقفت أمامي وأخذت تتفحصني دون أن تبدو على وجهها أي تعابير ثم خاطبتني مباشرة:

– أنت سعيد القاسم؟

– نعم أنا سعيد القاسم.

- إذن اخلع قميصك لأرى مخلب النسر الموشوم على ظهرك وأتأكد من أنك المقصود، فلا مجال للأخطاء هنا.

أربكتني بشدة وأدخلتني في حيرة، نعم، هناك وشم صغير على ظهري لا يشبه أي شيء، الحقيقة أني في صغري كنت أنوي وشم نسر على ظهري ولم أحتمل وخز الإبر وتراجعت عن قراري فحملت على ظهري نقاطاً لا معنى لها وبالكاد تُرى، حتى أنا تناسيت وجودها. ارتعبت من الأسئلة التي أطلت من عيني خديجة، فلم أخلع القميص وقلت لها مؤكداً:

- نعم، على ظهري وشم، أنا هو سعيد.
- اخلع القميص لأرى بعيني وأتأكد.

لم يستفزني طلبها بقدر ما استفزتني ملامح وجهها التي لا توحي بشيء، فقررت ألا أستجيب لطلبها، وهنا تدخلت خديجة قائلة:

- اخلع القميص يا سعيد، ودعها تتأكد.

انصعت لهما وكشفت عن ظهري لترى النقاط فأخذت خديجة تتفحص الوشم وكأنها تراه للمرة الأولى وبدل أن تسألني سألت عمرة:

- هل هذا مخلب نسر يا عمرة؟
- نعم، هذا مخلب نسر، وهذا سعيد الذي أبحث عنه.

شدتني خديجة من ذراعي وسحبتني خلفها إلى المطبخ وأخذت تتمتم:

- هل "الخرابيش" التي على ظهرك مخلب نسر؟ وكيف تعرف ولا أعرف؟ والآن أخبرني من تكون هذه المرأة وما علاقتك بها؟

يا إلهي، خديجة تغار من خيالها، كيف سأقول لها إنني لا أعرف أن هذا الوشم مخلب نسر، فأخذت أقسم لها أن هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها هذه المخلوقة ثم طلبت منها أن تهدأ لنعود ونسألها معاً، عدنا إليها وصرفت الأطفال وسألتها إن كانت رأتني من قبل فردت عليّ ببرود:

– لو كنت رأيتك من قبل لما احتجت إلى أن أرى الوشم وأتأكد من أنك سعيد بلحمه وشحمه.

سألتها من تكون وماذا تريد فردت بنبرة تستفز الحجر:

– جئت أستوفي الدين منك حسب الاتفاق.

– عن أي دين تتحدثين يا سيدتي؟

– دينك لجدي يا سعيد.

– ومن يكون جدك يا سيدتي؟

– أنت تعرف من يكون.

– اعذريني، فأنا فعلاً لا أعرف من يكون.

– جدي الذي أقرضك المال لتشتري هذا البيت وتؤوي أسرتك يا سعيد الثعلب.

لقب الثعلب عاد بي عشر سنوات إلى الوراء، أطلقه عليّ العجوز قبل أن يسرق ثروتي ويجعلني معدماً لا أملك شيئاً، لم يعرف أحد بالقصة حتى خديجة التي نزعتها من القصور لتسكن هذا البيت المتواضع. كم يمر الوقت سريعاً وأنا من

اعتقدت أن العجوز اختفى من حياتي إلى الأبد، كنت قد تناسيت اتفاقنا على أن فتاة ستحضر يوماً ويتوجب عليّ سداد الدين لها، فقلت لها:

- لقد مر الكثير من السنوات ولم يأت من يطالبني بالدين.
- لقد كنت صغيرة، وحينما كبرت أرسلني جدي لأطالبك به، فهل هناك مشكلة؟

ضحكت، وشر البلية ما يضحك:

- نعم، هناك مشكلة كبيرة، فأنا لا أملك المال حالياً لأسدد الدين، هل أخبرك جدك أنه قد أقرضني شيئاً مما سرقه مني يوماً.
- أنت تعرف أن جدي لا يسرق أحداً، لقد تفاوض معك وأنت وافقت على الصفقة، وأخذت مقابلها، ومع هذا لن يمانع في أن يتفاوض معك مرة أخرى، فهل ترغب بذلك يا ثعلب؟
- أرجوك، لا أريد أن أفاوض على شيء ولا أطلب إلا منحي الوقت الكافي لأجد طريقة أسدد بها ديني.
- للأسف أنا لا أملك الوقت لأمنحك إياه، عليك أن تجيبني الآن إن كنت ستلتزم بما اتفقت عليه مع جدي؟
- يا سيدتي، أنا معدم ولا أملك شيئاً في الوقت الحالي.
- لست بحاجة إلى المال.

- اعذريني يا سيدتي، فأنا فعلاً لا أفهم ما ترمين إليه، لقد كان الاتفاق مع جدك أنه ستحضر فتاة لتستوفي الدين باسمه، وعليّ ألا أردها خائبة.
- نعم، هذا صحيح، وأنا تلك الفتاة، وقد جئت إليك لتكون عائلتي وتساعدني حتى أنجز مهمتي، وعندها سأعفيك من دينك لجدي.

خديجة التي انشغلت بمراقبة حديثنا حتى لا يفوتها حرف خرجت عن صمتها وقالت:

- أوفِ دينك يا سعيد واعتنِ بها، ولكن قبل ذلك أخبرني من هي؟ ومن العجوز؟ ومن جدها؟ ومن أنت؟ والأهم كيف تبخرت أموالنا فجأة؟

لم أجد ما أجيب به فردت عليها عمرة:

- أحسنت يا خديجة، عليك أن تعلمي زوجك كيف لا يكون مخادعاً ويفي بديونه.

وعلى الرغم من الأجواء المشحونة بالقلق فلم أتمالك نفسي من الضحك حينما ردت عليها خديجة بعفوية:

- أكملي أنت القصة واتركيني أعلم زوجي بطريقتي.

شعرت بأن الأجواء ستتوتر بسبب ضحكي المفاجئ فأسرعت إلى سؤال عمرة:

- وما هي المهمة التي تريدين أن أساعدك بها يا سيدتي؟
- أريد أن ترافقني وتساعدني على العثور على بيت عائلتي القديم.
- أذكر أن العجوز كان يبحث عن بيت ولم يجد له أثراً فكيف ستجدينه أنت؟
- سأتبع إحساسي وقد حملت معي خريطة لتسهل علينا المهمة ولا ينقصني إلا خبرتك في هذه البلاد، فجدي أخبرني أنك تعرف كل زاوية فيها.

حدثت نفسي، إن كانت عمرة تحمل خريطة فمهمتنا ستكون سهلة، وسأتخلص منها ومن ديني إلى الأبد، فطلبت أن ألقي نظرة عليها، فأخرجتها ومدتها على الأرض، فرأيت دائرة تحيط بجزء من الخريطة، وأشارت إلى أننا سنبحث في هذه المنطقة تحديداً فقلت لها:

- هل تدركين أن هذه الدائرة تحيط بعشرات الجبال وسيتطلب البحث فيها شهوراً؟
- لا، هي بضعة أسابيع فقط إن اتبعت خطتي في البحث.
- اعذريني سيدتي، فأنا لا أملك هذه الأسابيع ولدي التزام بعملي.
- خذ إجازة من عملك إذن!
- ومن سيطعم أسرتي؟
- أنا سأفعل.
- وهل تحملين معك الكثير من النقود؟

- لا، لكننا سنتدبر أمرنا كعائلة.

كانت خديجة هادئة لم يبدر عنها أي ردة فعل، ومن خبرتي كنت أعلم أن هدوءها هو الذي يسبق العاصفة وأن الانفجار قادم لا محالة، ولا أستبعد أن تحمل عمرة وتلقيها خارج البيت، وما كنت لألومها إن فعلت، فدعوت الله ألا تنفعل وتقوم بما لا يُحمد عقباه، وتورطنا مع جدها العجوز، فالعبث معه ليس بالأمر الهين.

تركتنا وذهبت إلى غرفة النوم، فلحقت بها ووجدتها قد غمرت وجهها بالوسادة وأخذت تبكي، ربت على ظهرها وحاولت تهدئتها فرفعت رأسها وقالت:

- أليس من حقي أن أعرف أين اختفت أموالك فجأة بعد كل هذه السنين، ألم تخبرني أنك خسرت كل شيء في صفقة فاشلة ودفعتني لأبيع حتى ملابسي لتسدد ديونك، وحذرتني من أننا إن لم نفعل فسنتعرض للأذى!
- نعم يا حبيبتي، هذا صحيح، ولكن ذلك أصبح من الماضي ولن أستطيع يوماً أن أبوح لك بسر هذه الصفقة لأني إن فعلت فسنتعرض جميعاً للأذى.

استسلمت خديجة الطيبة للأمر الواقع كما فعلت قبل عشر سنوات، ولم أجد طريقة لأشرح لها أن الصفقة التي عقدتها مع العجوز لم تكن خاسرة، ولو كنت أملك أضعاف ما أملك من مال وعاد بي الزمن إلى الوراء فلن أتردد في اتخاذ القرار ذاته مرة أخرى.

سألتني خديجة بعد أن كفت عن البكاء:

– وماذا ستفعل الآن مع عمرة؟

– علينا أن نحتملها حتى أجد طريقة للخلاص منها.

– إنها فتاة طيبة ولا أشعر بأنها تضمر السوء لنا.

– أنت الطيبة يا حبيبتي، فأنت لا تعرفين من يكون جدها.

لا خيار أمامي، عليّ أن أساعد حفيدة العجوز على إنجاز مهمتها والخلاص منها بأسرع وقت قبل أن تفقد خديجة أعصابها وتورطنا بما لا طاقة لنا به، ازدادت المهمة تعقيداً وصعوبة حين قررت عمرة أن تسكن معنا البيت؛ حتى لا تهدر مالها على الفنادق؛ وحين سألتها أين ستنام وبيتنا بالكاد يتسع لنا ردت عليّ:

– نحن عائلة واحدة الآن، وسنتدبر أمرنا.

لا أحد يعرف العجوز مثلي وما كنت لأجرؤ على العبث مع حفيدته أو إغضابها، لم أشعر بالراحة أن ينام أولادي معها لهذا حاولت أن أصحبهم إلى النوم في غرفتنا بذريعة توفير الراحة لها لكنها أصرت على بقائهم، وإصرارهم كان أقوى، فخضعت للأمر الواقع، ومع ذلك لم أذق تلك الليلة طعم النوم، كنت أتسلل كل ساعة لأطمئن إلى أنهم بخير، مع أني أعلم في أعماقي أنها لن تلحق بهم أي أذى، ولكن خداعي الناس سنوات طويلة ترك تأثيره عليّ فلم يكن سهلا عليّ أن أثق بأحد. تركت باب غرفتنا موارباً لأتمكن من سماع أي صوت يصدر من الصالة، غافلني النعاس وصحوت على صوت ابنتي تنادي على أمها، وكان غريباً أنها لم تقتحم الغرفة وترقص فوق رؤوسنا.

استيقظت خديجة وطلبت مني تقبيل الأولاد، مددت يدي إلى جيب بنطالي الملقى بجواري لإعطائهم مصروفهم ففاجأتني ابنتي حين رفضت أخذه بحجة أنها ما عادت تريد أن تشتري من الباعة حتى لا يؤثر ذلك على طولها، مؤكدة أنها ستأكل فقط في البيت، أما ابناي فاختطفا النقود وأخفياها وكأنهما يخشيان أن يراهما أحد. احتسيت القهوة مع عشر سجائر في الزقاق ودعوت الله أن أنتهي من مهمتي بأسرع وقت.

عدت للبيت لأودع خديجة وآخذ الخريطة وأنطلق في رحلة البحث عن البيت القديم، لكن عمرة أصرت على أن ترافقني.

شعرت بالحرج، وحينما لم أرَ الغيرة في عيني خديجة اطمئن قلبي، وبدأت رحلة البحث.

وصفت عمرة البيت وخمنت أن يكون موقعه على قمة جبل من الجبال الظاهرة في الخريطة. كانت المهمة ستكون سهلة، فالكثير من الجبال بالإمكان رؤيتها من بعيد وأغلبها يخلو من البيوت الحديثة وحتى القديمة، ومع ذلك لم تكن عمرة لترضى إلا أن نصل إلى قمة كل جبل لتتأكد من أنه لم يفتها شيء، وعلى الرغم من سيارة الدفع الرباعي التي استعرتها لتسهل علينا مهمة البحث، فإن بعض الجبال يستحيل الوصول إليها بهذه السيارة. لم أفلح في إقناعها أن المهمة شاقة، فأصرت على أن نذهب إليها سيراً على الأقدام، فجاريتها وكنت على يقين بأنها ستتراجع بعد الجبل الأول، خاصة أن مظهرها لا يوحي أنها اعتادت السير في الجبال.

مر الأسبوع الأول وتمكن الإرهاق من جسدي، ومع ذلك لم تظهر عليها أي علامة تدل على أنها قد تتراجع أو تيأس، الصمت كان رفيقنا، لم نتبادل إلا كلمات معدودة لها علاقة بموقع البيت، طالما كنت بارعاً في التواصل مع الجميع حتى البكم منهم وعلى الرغم من ذلك كانت الأبواب موصدة. سألتها إن دار حديث بينها وبين خديجة حول جدها، فنفت. فرجوتها أن تتجنب ذكر هذا الموضوع حتى لا يكون سبباً في قلق خديجة فردت:

- لا يحق لك أن تخفي شيئاً عن زوجتك.
- أعلم ذلك، ولكني لا أريدها أن تشعر بالقلق.
- جدي رجل بغيض، ولكنه لا يؤذي أحداً لتخاف على زوجتك منه.
- لا أخاف عليها منه، فقط لا أريدها أن تعيش في قلق.
- أعدك أن أتجنب الحديث معها عن جدي، وأنت احرص على ألا تسألني عنه، لأني لن أكذب على امرأة أعيش في بيتها.

كنا نعود بعد غروب الشمس يومياً وبالكاد أتمكن من الوقوف على قدمي، أما هي فكانت تغتسل وتبدل ثيابها وتجالس زوجتي والأولاد، لم ولن أفهم يوماً كيف استطاعت هذه الشابة التي لا تبتسم ولا تظهر أي ردة فعل، أن تسكن قلب خديجة.

أَرَى الحيرة في عيني سعيد وهو يتساءل عن سر الحب الذي أكنه لهذه الشابة.

نعم، لقد استوطن حبها قلبي بطريقة لم أعهدها من قبل، كنت أنتظر عودتها كل مساء على أحر من الجمر، أستقبلها باشتياق وأعانقها بحب، وأعيد وأكرر السؤال على نفسي، هل أنا على طبيعتي؟ ما الذي أحبه في عمرة الجادة التي لا تبتسم؟ أحب سعيد حباً يدفعني لأغار عليه من جارتنا التي تشبه الفيل، وأحياناً من أختي وأمي وحتى من ابنتي الصغيرة، فلماذا لا أشعر بأي غيرة تجاه هذه المخلوقة وهي التي تختلي به للأسبوع الثاني على التوالي من الصباح وحتى المساء وأراها كل يوم تزداد جمالاً؟ المنطق أن أبغضها، فهي حفيدة الرجل الذي يرتعب زوجي من ذكره، الشرير الذي سرق ما نملك، لا أعرف من يكون ولم يبح لي سعيد بسره، ولكني أكرهه وأتمنى خنقه بيدي العاريتين عقاباً على ما فعله بنا، وهأنذا خاضعة لسحر حفيدته، وعلى عكس زوجي أتمنى في أعماقي ألا تفارقني يوماً، عجزي عن رؤية أي شيء في عينيها يخيفني، وعناقها يشعرني بحب وأمان لم أختبرهما من قبل، كانت لي ولأولادي عقاباً، حرمتنا التلفاز ومتعة الفوضى، ومع ذلك أحببناها، نحب ما تحبه عمرة ونكره ما تكرهه.

مر الأسبوع الثاني في رحلة بحثها عن بيت عائلتها برفقة سعيد الذي أخشى أن ينفد صبره ويتركها في أحد الجبال ويعود من دونها، وأقسم إن فعلها فلن أسامحه يوماً.

لَعلَّ خديجة قد تسامحني يوماً لو وجدت طريقة للخلاص من عمرة، لكن جدّها ما كان ليسامح.

واجهتنا في الأسبوع الثالث الكثير من المشاكل، وتعرضنا للكثير من المضايقات والتحرش، خاصة من بعض الشبان الذين اعتادوا التنزه في الجبال، كنت مرعوباً من فكرة أن نصادف من لن يكتفي بالتحرش اللفظي، وأجنبية شابة برفقتي في هذا الجبال البعيدة عن الحضارة جذب إلينا الكثير من الفضوليين، ومن حسن حظنا أننا لم نواجه متحرشين شرسين، ولم أضطر لخوض أي شجار، ورفيقتي التمثال تردد على مسامعي أكثر من مرة:

- لا تقلق، أنا معتادة على التعامل مع قطاع الطرق.

انتقلنا في بحثنا إلى الجبال القريبة من القرى، وهذا يعني أننا سنثير الفضول أكثر، ولكن سننعم بالأمن أيضاً، حتى جاء الفرج، ونحن في الطريق لصعود أحد الجبال حين قالت:

- لقد وجدته، انظر يا سعيد إلى ذلك الجبل ما زال كما هو وكأني كنت هنا بالأمس، والجبل الذي بجواره أتذكره جيداً لقد كانت الشمس تتوارى خلفه عند الغروب، ينتابني إحساس قوي بأن بيتنا سيكون على تلك التلة.

أشارت بيدها إلى تلة تقع على أطراف قرية، إن لم تكن وسطها، لم يكن المكان مطابقاً لوصفها السابق بأن البيت على قمة جبل. سألتها فردت بأنه مر زمن

طويل واختلط الأمر عليها، ولكنها الآن تتذكر أفضل من السابق، تمنيت أن يكون حدسها قد أصاب هذه المرة. لم نجد صعوبة في الوصول إلى التلة، فقد كانت هناك طريق ترابية تؤدي إليها لكنها انقطعت قبل أن نبلغ قمتها، كان من المستحيل أن أستدل على أي شيء من ملامح وجهها، ومع ذلك فقد تعلمت كيف أفهمها من نبرة صوتها، فقد شعرت بأنها ابتهجت وانفعلت كثيراً حينما قالت لتقطع الشك باليقين:

– لقد وجدته! لقد وجدته! إنه بيتنا.

نظرت حولي فرأيت من بعيد الكثير من البيوت وكانت في أغلبها حديثة ومع ذلك لا أرى أياً منها حيث تشير، وحين سألتها أشارت إلى التلة وطلبت أن نسير إليها، اقتربنا أكثر فسألتها مجدداً، فأشارت إلى بقعة قاحلة لا شيء فيها سوى الحجارة والكثير من الأشواك فقالت:

– بيتنا هناك.

لم أعد شاباً وربما بات نظري ضعيفاً، وصلنا إلى غايتنا ولم أرَ إلا تلة جرداء ووادياً والكثير من البيوت البعيدة، فسألتها:

– أين البيت يا عمرة؟

– هذا هو البيت يا سعيد.

كان هناك نصف جدار متهاوٍ والكثير من الحجارة، لا بيت ولا حتى قن دجاج، ولكن ربما كانت تشير إلى أحد البيوت البعيدة وأنا أسأت الفهم فقلت:

– سامحيني، فأنا لا أرى جيداً عندما تقترب الشمس من الغروب، فهل يمكن أن تكوني أكثر تحديداً وتخبريني أين هو بيت عائلتك بالضبط؟

تجاهلتني وأخذت تنتقل من زاوية إلى أخرى تلامس الحجارة بحب، وتشرح بحماس عن البيت والحديقة، والمكان المخصص لزراعة الخضار، وبئر الماء، وحظيرة الحيوانات، وزاويتها المفضلة التي اعتادت أن تراقب غروب الشمس منها. عدد الكلمات التي نطقت بها في عشر دقائق يزيد على ما نطقته خلال الأسابيع الثلاثة المنصرمة، لم أرَ شيئاً وما عاد لدي شك في أنها فقدت عقلها، دقائق وسيختفي آخر خيط نور، والتلة التي نقف عليها قريبة من بيوت القرية ومن المستحسن المغادرة سريعاً تجنباً لسوء فهم قد يقع إن مر أحدهم ورآنا، فقلت لها مجارياً أوهامها:

– بيت جميل وطلته رائعة ولكن علينا المغادرة الآن فقد تأخرنا على خديجة.

– قلبي لا يطاوعني أن نبتعد عنه، دعنا نبقى قليلاً.

صمت، فلا يحق لي حرمانها من التمتع قليلاً بجمال بيت لا وجود له إلا في خيالها، ومن الحماقة أن أقنعها بعكس ذلك، إن كانت الطريقة الوحيدة للخلاص منها ومن ديني لجدها العجوز، فقلت لها:

– أهنئك على إيجاد بيت عائلتك! وهكذا تكون مهمتي قد انتهت وما عدت مديناً لكما بشيء.

- شكراً يا سعيد، لولا مساعدتك لما تحقق حلمي أخيراً، ولكني لن أحررك من دينك إلا بعد الانتهاء من ترميم البيت، فكما ترى فقد لحق به الكثير من الضرر وسيحتاج إلى جهد كبير لإعادته إلى ما كان عليه.
- عزيزتي عمرة، حتى لا أسيء فهمك، هلّا شرحتِ لي المقصود بترميم البيت؟
- سأعيد البيت إلى ما كان عليه يوماً.
- وكيف ستفعلين ذلك؟
- لا تقلق، أنا أعرف تفاصيله بدقة وسأجد طريقة لإعادته إلى سابق عهده.
- أرجوك، أخبريني هل هذه واحدة من ألاعيب العجوز التي سأكتشف لاحقاً أنه يسعى من خلالها إلى السخرية مني؟
- أنا لا أشبه جدي ولا أتلاعب بأحد، والطرق التي يستخدمها لم ترق لي أبداً، هذا بيت عائلتي ولا مكان فيه للسخرية.
- إذن، انظري حولك وأخبريني أي منطق قادر على استيعاب ما تنوين فعله؟!
- هل إعادة بيت عائلتي إلى ما كان عليه سابقاً يتجاوز المنطق؟ أعلم أن المهمة ستكون صعبة ولكنها ليست مستحيلة، لا تقلق!
- أنا لست قلقاً، ولا يهمني إن كنت لا أرى أي أثر يدل على بيت، ولكن عليّ أن أخبرك أنك لست كولومبوس، ولم تكتشفي أرضاً لا أصحاب لها

لترفعي علمك وتشرعي ببناء بيتك عليها، هذه الأراضي ملك لأهل المنطقة ولا يحق لنا الجلوس عليها دون موافقتهم.

- أنا لست ساذجة يا سعيد، وأتفهم أن هذه الأرض ما عادت ملكاً لعائلتي، لقد استولوا عليها، ومع هذا فأنا على استعداد أن أدفع لهم مقابل أن يعيدوا ملكيتها لي، فهيا نذهب إليهم ونتفاوض معهم على الشراء.

رافقت الآنسة كولومبوس إلى البيت بعد أن أقنعتها أننا سنفاوض أصحاب الأرض غداً، وفور ولوجها الباب عانقت خديجة وقالت:

- لقد وجدته! لقد وجدته!

رقصت خديجة فرحاً وهنأتها:

- نعم يا خديجة، لقد وجدته، وغداً سأذهب مع سعيد لندفع النقود للغرباء ونستعيد منهم ملكية البيت.

غمزت خديجة بطرف عيني لعلها تفهم وتفرمل حماس عمرة قليلاً إلا أنها باركت لها شراء البيت سلفاً، حاولت أن أشرح لهما تدريجياً أن الأمر ليس بهذه السهولة فنحن لا نعرف أصحاب الأرض وعلينا أن نتريث قليلاً.

اجتمع جنون عمرة بحب خديجة وقررتا أن عليّ غداً أن أجد أصحاب الأرض وأتفق معهم على شرائها. كنت مرهقاً ولا طاقة لي بخوض جدل مع امرأتين حالمتين متحمستين خيل إليهما أنهما سترسلاني للتسوق من أحد المحال التجارية.

في الصباح أصرت عمرة على أن ترافقني للبحث عن أصحاب الأرض فأخبرتها أن رفقتها ستصعّب الأمور، فلو وجدنا من يبيع الأرض، فستراودهم الشكوك في أن في الأرض كنزاً حال معرفتهم أنها أجنبية وسيرفضون البيع؛ لأنهم أحق بالكنز؛ ذاب عنادها فوراً وقالت:

– لا لا لا، أرجوك سيخربون البيت، لا أريد أن يحفروه أو يكسروا حجارته، يكفي هذا البيت ما عاناه من تخريب!

"مكرهاً أخاك لا بطل" حملت قهوتي وخرجت في رحلة البحث والتقصي عن تلك الأرض، استعنت بعلاقاتي القديمة، حتى تبين أن هذه الأرض يطلق عليها اسم خربة الجن وأن أصحابها من القرية المجاورة، والجيد في الأمر أنها أرض بور لا تصلح للزراعة لعدم قربها من أي مصدر ماء، وبعيدة نسبياً عن القرية، لهذا فثمنها بخس ولا تفتح شهية أحد ليفكر بشرائها، أما السيئ فهو أن أهل القرية تفرعوا من عائلة واحدة، ولذلك لا يحبون الاختلاط ولا يبيعون أرضهم لمن ليس منهم، وللخلاص من كابوس عمرة كان عليّ أن أبحث عن حل، ولن يصعب علي إيجاد أحد أبناء القرية ليقوم بمهمة الشراء نيابة عني وبعد ذلك ينقل ملكيتها لها مقابل ربح، ثلاثة أيام من التخطيط ذهبت سدى، بعد أن تبين أنه حتى لو قام أحدهم بشرائها فمن حق أي من أهل القرية أن يستعيدها إن اكتشف أنها بيعت لغريب.

أغلقت الأبواب في وجهي وكان عليّ أن أحسم أمري وأحطم أحلام عمرة وفرحة خديجة، فأخبرتهما أن شراء الأرض من المحال، فردت عمرة:

- لا شيء مستحيل، علينا أن نجد طريقة لشراء البيت والأرض.
- يا عمرة، أهل هذه القرية لا يبيعون الأراضي، بل يتوارثونها بينهم أو يبيعونها لبعضهم، ولا يسمحون للغرباء بشرائها، هل فهمت؟
- لا لم أفهم، أخبرني من المالك الحالي وسأفاوضه.
- هذه الأرض للحاج عزام وقد آلت إلى ابنه حسان بعد تقسيم التركة بين الأخوة.
- إذن لنذهب إلى حسان حتى نشتريها منه في الحال!
- حتى لو وافق حسان على بيعك الأرض فأقاربه لن يوافقوا لأنهم أحق منك بالشراء.
- كل شيء ممكن بالتفاوض، سنذهب إلى حسان ونتفاوض معه وندفع له وينقل إلينا ملكية الأرض في دائرة الأراضي.
- يا عمرة، الأراضي التي تقع في هذه المنطقة ليست مسجلة في أي دائرة، لا توجد أوراق ولا وثائق، هذه الأراضي تنتقل من شخص لآخر من أهل القرية بشهادة الشهود ودفع ثمنها، وكلمة مبروك عليك الأرض.
- إذن هيا لندفع لمن يمتلك البيت والأرض وليقل لي مبروك عليك!

استنجدت بخديجة لتساعدني في إقناع هذه الإنجليزية المعتوهة بأنها لا تستطيع شراء الأرض، وأنه لا يوجد بيت عليها.

اغرورقت عينا خديجة بالدموع وهي تشرح لعمرة عن أهل القرية وعاداتهم، وأنه يستحيل بيع الأرض لغريب عنهم، صمتت لدقائق واعتقدت أن خديجة تمكنت منها ولم يبق إلا أن تحمل حقيبتها وتعود من حيث أتت إلا أنها فاجأتنا حينما سألت:

- كيف لا أكون غريبة حتى يسمحوا لي بشراء بيتي والأرض ويقولوا مبروك عليك الأرض؟

ضحكنا أنا وخديجة في الوقت نفسه وقلت لها ممازحاً:

- عليك أن تتزوجي أحدهم لتكوني منهم.

كنت أتوقع أن تضحكها هذه الفكرة، إلا أنها ردت بجدية:

- أنا موافقة، اذهب وأحضر لي أحدهم لأتزوجه حتى يقول مبروك عليك الأرض!

وبلغة العيون اتفقنا أنا وخديجة أن هذه العمرة عنيدة لن تيأس، وأن علينا بذل جهد أكبر لإقناعها بالعدول عن رأيها، فشرحنا لها بتهذيب عادات أهل البلاد وأنهم لا يحبذون الزواج من أجنبيات، بسبب الديانة والكثير من التعقيدات الأخرى. أصغت باهتمام، وأسئلتها الكثيرة حول الموضوع دلت على أنها متفهمة حتى توهمنا أن الأمر قد انتهى ولكنها قالت:

- لا تقلقوا، دلاني على أحد لأتزوجه وسأتدبر أمري.

استفزني عنادها وردها، فانفلت لساني وقلت الكثير، واختتمت نوبة الغضب بالقول:

– سأرسل في طلب صاحب الأرض حسان لتتزوجيه!!

لم يرق لزوجتي انفلات لساني، فأخذت توبخني وتعتذر عما بدر مني، ومنعت نفسي من أن أقول لخديجة انظري إليها إنها معجونة من صخر لا تراب! لا شيء يؤثر فيها!! ورد عمرة لخص ما لم أقله:

– دلني أين أجد مالك الأرض والبيت وأنا سأتدبر أمري وأتزوجه.

تعاطفت خديجة مع عنادها فسحبتني من ذراعي إلى غرفتنا وبنبرة حازمة قالت:

– لن نتخلى عن عمرة حتى لو اضطررنا لقتل أحدهم.
– هل تريدين مني الذهاب للبحث عن صاحب الأرض وأن أطلب منه أن يتزوجها؟
– نعم، أريد منك ذلك، وما دمت أقنعتني أن أحبك وأتزوجك، فستجد طريقة لها، أنت سعيد الخبيث مخلب النسر، الثعلب، والله أعلم ماذا سأكتشف في المستقبل عنك أيضاً، فهل ستعجز عن هذا؟
– يا حبيبتي، هذه مهمة مستحيلة، لا يوجد رجل عاقل سيفكر بالزواج منها.

- وما بها عمرة؟ إنها شابة جميلة مثقفة، بشرتها صافية، ستحتاج فقط إلى أن تتخلى عن ملابس العجائز وتتجمل قليلاً، وعندها سترى كم هي جميلة!
- يا حبيبتي، إنها تمثال، ملامحها لا توحي بشيء، إنها لا تصلح إلا أن تكون عقيداً في الجيش!
- أعلم أنتم الرجال تحبون الغنج والمياعة! سأعلمها كيف تقهقه وتتغنج كالعاهرات حتى تنال إعجابكم! سأتولى أنا كل هذا، وأنت عليك أن ترسم الخطة المناسبة لتجد الشخص المناسب لتوقعه بحبها فيتزوجها ويحقق حلمها بالعودة لبيتها،

كنت في واحدة والآن أواجه تحالف عمرة وخديجة معاً، وما كنت لأرد لزوجتي طلباً، أشك في أن هناك قوة على الأرض قادرة على رسم ابتسامة واحدة على شفتي عمرة، ولكن إن نجحت خديجة في تليين شخصيتها الفولاذية فربما هناك أمل. طلبت مهلة لا تقل عن أسبوع للبحث عن صاحب الأرض والتأكد من أنه الوريث الوحيد لها، وبعد أن تأكدت أن صاحب الأرض شاب أعزب بسيط يعمل نادلاً في فندق، أخذت أراقبه وأدرس شخصيته من بعيد حتى تمكنت من رسم خطة إن التزمت بها عمرة فنسبة النجاح ستكون عالية، وما جمعته من معلومات عن الشاب حسان سيساعدها على السيطرة عليه بسهولة، خاصة إن أوحت إليه أنها ثرية، ساعة كاملة أمضيتها في شرح خطتي لخديجة خطوة خطوة، وكانت تصغي إليّ باهتمام وإعجاب وحينما انتهيت حدقت بي وسألتني:

– اعترف الآن، هل بهذه الطريقة أوقعتني بحبك؟

ضحكت وقلت لها:

– نظرة واحدة من عينيك كانت كافية لتأسر قلبي، فهل يعيبني إن خططت لأحظى بقلبك يا روحي؟!

حان الأوان لشرح الخطة لعمرة وتدريبها عليها، فبدأت أحدثها عن حسان ومكان عمله، وأن عليها الالتزام بخطتي لعدة أشهر، وقبل أن أواصل قالت:

– وهل الزواج بحاجة إلى خطة؟ خذني إليه وسأتدبر أمري.

شرحت لها أن الناس بحاجة للتعارف حتى يثق بعضهم ببعض في البداية، لهذا أعددت خطة، تدخلت خديجة وقالت:

– سنلتزم بخطة سعيد بحذافيرها وسترافقيني اليوم لنشتري ملابس تليق بعمرك حتى تنجح خطتنا.
– ملابسي نظيفة وتليق بي وليس علي إهدار المال لشراء المزيد إلا إن كان سيتزوج ملابسي.
– عمرة حبيبتي إن أردت الحصول على بيتك فعليك الالتزام بخطة سعيد وإلا لن ينجح الأمر أبداً.

صمتت عمرة وأنا اعتمدت على خديجة في ترويضها، وأخذت أشرح لها الخطة بتفاصيلها المملة، الخطوة الأولى، عليّ أن أريها حسان من بعيد لتعرف من

يكون، الثانية، عليها أن تقيم في الفندق، وفي الصباح عليها أن تحرص على تناول الإفطار وتختار الموائد التي يقوم هو على خدمتها لتتمكن من التقرب منه، اللقاء الأول عليها أن تبتسم وتسأله عن اسمه، وتمتنع عن خوض أي حديث حتى لو أراد ذلك، وأيضاً يجب أن تترك قبل مغادرتها عدة دولارات، فلا يحب النادل إلا الزبائن الكرماء، وتفعل الأمر نفسه عند تناول الغداء، وتكرر الأمر لمدة أسبوعين، وعندما يحاول التقرب منها تعرض عليه أن يرافقها في جولة سياحية، بصفته ابن البلاد، وإن كانت هناك فرصة فعليها أن تلمح إلى أنها ثرية وتحب البلاد، الصبر والروتين سر نجاح الخطة، وفي الوقت المناسب سأجد طريقة لأتعرف عليهما معاً مصادفة، وسيأتي دوري في مصادقته، ساعة وأكثر من شرح تفاصيل خطتي الدقيقة أصغت إليها باهتمام، واكتفت بهز رأسها ولم تعلق.

تركت لخديجة أن تقوم بجانبها من الخطة، بقلب شخصية عمرة لتكون أكثر مرحاً وأناقة، وفي اليوم الثاني أخذتها لترى حسان من بعيد، وحين عدنا إلى البيت مازحتها قائلاً إن من حسن حظها أن حسان شاب وسيم، فردت:

– وهل ستسرع الوسامة بعودتي إلى بيت العائلة؟

اغتظت من ردها وإصرارها على أن تنتقل إلى الفندق فوراً بحجة أنه لا وقت لإهداره، حاولت خديجة أن تقنعها أن عليها ألا تتسرع، وأن تنتظر حتى نعدها للخطوة القادمة قبل الانتقال للفندق حتى لا تفسد الخطة.

عمرة العنيدة اتخذت قرارها بالانتقال إلى الفندق فوراً وعجزنا عن إقناعها بأن تعدل عن قرارها، ولم يبق أمامنا إلا توصيتها بالصبر، وتجنب الاقتراب من حسان حتى نأذن لها بذلك.

خبرتي كبيرة في عالم السياحة، وأعلم جيداً أن موظفي الفندق لن يسرهم استقبال امرأة إنكليزية محافظة متعجرفة، هذا النوع من الزبائن لا يروق للعاملين في الفنادق، فهم يعلمون سلفاً أنهم دائمو التذمر ولن يجنوا من خدمتهم سوى الشكاوى، فكيف سيكون حالهم مع عمرة التي لا تبتسم؟

رافقنا عمرة إلى الفندق مساءً، لمت خديجة على فشلها في ترويض عمرة، فطمأنتني إلى أنها اشترت لعمرة بنطالاً من الجينز وقميصاً مغرياً وتركت لها في حقيبتها علبة من مساحيق التجميل وأنها واثقة أنها ستلتزم بالخطة.

سَعِيد وخديجة قضيا تلك الليلة بالحديث وهما على أمل أن تلتزم عمرة بالخطة، في الصباح أفاقت عمرة ثم خلعت ثيابها واستمتعت برفاهية الاستحمام في الفندق، بعد أن تعذبت لأسابيع في الاستحمام في منزل خديجة، ارتدت ملابسها التقليدية وحرصت على أن تضع على رأسها قبعتها الغريبة واتجهت إلى صالة الطعام، لم يكن قد حان موعد الإفطار لهذا لم يكن فيه إلا عدد قليل من الموظفين، فنادت على أحدهم بعد أن اختارت مائدة وجلست عليها وسألته:

- إن لم أتناول الإفطار فهل يتم خصمه من حساب إقامتي؟

فرد عليها النادل:

- الإفطار شامل للحساب ولا أعرف إن كان الغداء كذلك.
- إذن سأشرب الكثير من الحليب ما دمت مجبرةً على دفع ثمن شيء لا أريده!

وصل طاقم الندل وسرعان ما انتشر بينهم خبر أن هناك زبونة تفاوض على خصم ثمن الإفطار.

جالت عمرة بنظرها أنحاء الصالة ولمحت حسان يخدم موائد أخرى، فنادت على النادل القريب منها وطلبت منه أن يذهب ويستدعيه.

كان حسان في ذلك اليوم مشغول البال لأنه يشعر بخيانة مسؤول السفرة الذي استبدل البرنامج في اللحظة الأخيرة وأقصاه عن خدمة الموائد السِمان، هذا مصطلح متداول بين الندل حول الزبائن الذين يدفعون إكراميات سخية. حتى في

الفنادق هناك القوي صاحب السلطة، وهناك الضعيف الذي عليه أن يطيع ويكتم غيظه مثل حسان.

أشعر بغيظ شديد، وبين لحظة وأخرى أفكر في أن أتوجه إلى المدير وأصرخ في وجهه أمام الزبائن، وأتهمه بأنه لص يسرق الإكراميات، ومن لا يقاسمه ينفيه إلى حيث يجلس الزبائن المزعجون، لم يكن ذلك اليوم لطيفاً، وحين اقترب مني زميلي وأشار إلى الإنكليزية وأخبرني أنها طلبت أن أذهب إليها تجاهلته، فأنا معتاد على هذا النوع من المقالب، كلما تذمر زبون نجد له ضحية ليفرغ فيها غضبه، ومع هذا لم أمنع نفسي من تفحصها من بعيد، إلى أن لمحتني، فأشارت بيدها تدعوني إليها، ملابسها التقليدية المحافظة دلت على أنها في الأربعينات من عمرها، وحين اقتربت منها، تبين أنها لم تتجاوز العشرين، كان عليّ مجاملتها، مع أني أعلم سلفاً أن خدمتها لن تثمر أي إكرامية. لغتي الإنجليزية جيدة ما دام الأمر محصوراً بصالة الطعام، فالتكرار اليومي علمنا الكثير، تركت يدي خلف ظهري وابتسمت:

- ماذا تأمر سيدتي؟

لم تبادلني الابتسامة، وقالت:

- أنا أعرف العربية يا (خسان) لا داعي للتحدث بالإنجليزية، بعد أن تنهي عملك تعال إليّ، إلى الغرفة رقم 23 في الطابق الرابع، أريدك في أمر مهم. شكراً، بإمكانك العودة لعملك.

ارتبكت قليلاً وبدأت أحاول أن أكرر ما طلبته في رأسي، لم يكن هناك حاجة إلى أن أترجم ما طلبت فقد نطقته بعربية مفهومة، لكني أردت أن أتأكد من

أنها فعلاً تدعوني إلى فراشها، دعوة سائحة لنادل لقضاء الوقت معها لم يكن بالأمر الغريب، فقد حدث هذا معي عدة مرات في الماضي، لكن لم يحدث ذلك بهذه الطريقة المباشرة، هنا شعرت بأن خاتمة هذا اليوم ستكون شهية وكان عليّ أن أتفحصها جيداً وأخمن أي جسد تخفيه هذه الثياب المحافظة، وهل يستحق الأمر المخاطرة بالتسلل إلى غرفتها والقانون يمنع الموظفين من زيارة الزبائن في غرفهم، وإن كشف أمري فسأفقد وظيفتي، بالغت قليلاً في تفحص جسدها. عيناها كانتا تخلون من أي شيء يدل على معارضة أو موافقة على هذا التحرش البصري إلى أن جاء اعتراضها بالقول.

– أسأت فهمي يا (خسان)، لهذا لا حاجة إلى أن تأتي إلى غرفتي، سأنتظرك في صالة الفندق لنتحدث قليلاً، بعد انتهاء عملك.

شعرت بالخجل لوقاحة تفحصي جسدها وسذاجتي حين اعتقدت أنها تدعوني لفراشها، لم أجد حرفاً أرد به عليها، فتظاهرت بالابتسام وعدت إلى عملي غارقاً في الحيرة، ماذا تريد هذه السائحة مني؟! غادرت الشابة صالة الطعام بعد دقائق باتجاه صالة الاستقبال وجلست على أحد المقاعد وانشغلت بقراءة كتاب وأخذ الوقت يسير ببطء شديد، وكلما مر وقت كنت أجد سبباً لإلقاء نظره خاطفة باتجاه الزاوية التي جلست فيها لأتأكد من أنها ما زالت موجودة، انتهى يوم العمل وتحررت من الزي الرسمي وتوجهت إلى الصالة، وهذا كان أيضاً ممنوعاً على الموظفين، وحين اقتربت منها تركت الكتاب جانباً وأشارت إلى أن أجلس ففعلت، كنت هذه المرة أكثر تهذيباً في كل شيء، مرت دقائق من الصمت لم نتحدث فيها،

بل كانت تتأملني فقط، وكنت أتساءل في سري ماذا تريد مني غريبة الأطوار هذه؟ فسألتها:

– من أين تعرفيني؟

– لقد رأيتك بالأمس على بوابة الفندق.

– وماذا بإمكاني أن أخدمك يا سيدتي؟

– أريدك أن تتزوجني، هل بالإمكان التفاوض على هذا الأمر؟

كان الأمر واضحاً، هناك مقلب لعين تشارك فيه الندل وساعدهم فيه موظفو الاستقبال، وهذه الأجنبية بطلة المقلب، ابتسمتُ، فعادت وكررت السؤال، وجديتها شككتني بوجود مقلب فارتبكت:

– لا أفهم القصد من وراء الزواج.

– أريد أن تتزوجني حتى لا أكون غريبة.

لا بد أن هذه المرأة تسخر مني، بعد أن عمدت إلى السيطرة على تعابير وجهها لتبدو جدية حتى أصدقها، فلم أمانع أن أجاريها قليلاً فقلت:

– لي الشرف بالزواج من إنسانة راقية مثلك ولكن ألا يجب أن نتعارف أولاً.

– اسمي أمرة وبإمكانك أن تناديني عمرة، وبعد الزواج سيكون لدينا الوقت الكثير لنتعارف.

خياران لا ثالث لهما، إما أن هذه الإنجليزية تسخر مني باحتراف وإما أنها معتوهة وفي الحالتين فإن مواصلة الحديث معها سيكون ممتعاً فقلت لها:

- هل تعلمين أن حياة الزوجات في بلادنا قاسية.
- لا تقلق أنا قاسية أيضاً.
- الزوجة تنجب عشرة أولاد وعليها الاعتناء بهم ليل نهار.
- أولادي وعليّ الاعتناء بهم.
- واجبات الزوجات في بلادنا كثيرة.
- بإمكاني أن أتدبر أمري وأكون مثل زوجاتكم.

أردت أن أتمادى قليلاً في سخريتي منها فاخترعت لها زوجة ما عادت موجودة إلا في الأساطير، وقلت:

- الزوجة عندنا تصحو باكراً تعجن وتخبز، تحلب الأبقار والماعز، ترعى الغنم، تحرث الأرض وتزرعها، تطعم الدجاج وتجمع البيض، علاوة على عشرات المهمات الأخرى وفوق هذا عليها الاعتناء بأولادها الخمسة عشر!
- بإمكاني أن أفعل كل ما تقوم به نساؤكم وأكثر من ذلك.

كانت أبرع مني في لعبة السخرية هذه فلم يهتز لها جفن، شعرت بالهزيمة وتساءلت هل يعقل أن تكون جادة، ولاستفزازها لا أكثر قلت:

- عليك أن تعلني إسلامك قبل الزواج.
- أعلم ذلك، وأشهد أن لا الله إلا الله وأن محمد رسول الله وهكذا أكون مسلمة، أليس كذلك؟
- الإسلام في القلب وليس بنطق الشهادتين فقط.

- وهل لديك طريقة لتكشف عما في قلبي يا (خسان)؟
- لا، ولكن الإسلام أيضاً ممارسة، مثل أنه يمنع على الرجال رؤية شعرك لذا عليك إخفاؤه.
- سأشتري قبعة أوسع وأخفي شعري، ماذا هناك يا (خسان) أيضاً؟

طريقة نطقها للعربية وجديتها أدخلت الشك في قلبي وأضحكتني في الوقت نفسه فقلت لها:

- إن تزوجتك فستكونين خادمة لي.

فردت بنبرة قوية:

- انتقِ ألفاظك يا خسان! أنا لن أكون خادمة لأحد، سأعتني بك وتعتني بي كما يفعل أفراد العائلة الواحدة!

شعرت بأني بالغت في مزاحي فاعتذرت منها وقلت:

- أنت إنسانة رقيقة وناعمة وحياتنا لن تروق لك أبداً.
- كيف لا أكون رقيقة لتتزوجني يا خسان؟
- ألا يجب أن أتعرف على أهلك وأطلبك منهم؟!
- وهل ستتزوج أهلي؟
- لا، يجب أن يكون هناك من يشهد على الزواج.
- تعال معي وسأصحبك إلى بيت عائلتي المسؤولة عني في الوقت الحاضر لنتمم الزواج.

وقفت وأشارت بيدها لأرافقها وسارت باتجاه بوابة الفندق، ومنها إلى الشارع، شدني الفضول لأتبعها، وأكتشف الفصل القادم من هذه المسرحية، ربع ساعة من السير أوصلتنا إلى زقاق حي شعبي، أخذنا نسير فيه، ومع أن الزقاق يتفرع إلى أزقة عدة فإنها كانت تعرف طريقها جيداً، وصلنا إلى بوابة حديدية قديمة ملاصقة للزقاق، قرعت الباب فأطل علينا رجل خمسيني أصابه الذهول حين رآها ورآني أقف بجوارها، لم أحتج إلى أكثر من لحظة حتى أعرف أن هذا الرجل هو سعيد القاسم، فقد صادفته في الفندق الذي أعمل فيه عشرات المرات برفقة وفود سياحية، قصته كانت على كل لسان، وما زال الجميع يتساءل كيف أفلس! وأين اختفت ثروته!؟

رحب بنا ودلفنا إلى بيت أقل ما يقال عنه إنه غير صالح لسكن البشر، عقلي لا يصدق أن سعيد المليونير الذي أطلق عليه في الماضي لقب أمير السياحة وصل إلى هذا الحد من الفقر، ليعيش في مثل هذا البيت. أطلت امرأة ثلاثينية جميلة جداً، وبدت مصدومة هي الأخرى لرؤيتي، وفي لحظات عناقها للإنكليزية تعارفنا أنا وسعيد، وبادرت عمرة وأخذت تعرفنا بطريقتها:

– هذا سعيد المسؤول عني وزوجته خديجة أيضاً مسؤولة عني، وهذا خسان الذي سأتزوجه.

الإرباك كان سيد الموقف، ولم ننطق ثلاثتنا بحرف، والنظرات الخاطفة بين سعيد وزوجته أدخلت الريبة إلى قلبي، ويبدو ألا وقت لدى هذه الأجنبية لتهدره فقالت:

– إنهم عائلتي الحالية، تعرف عليهم، أليس هذا ما طلبته؟

تلعثمت ولم أدرِ ماذا عليّ أن أقول، فالأمور ازدادت تعقيداً وبوجود سعيد وزوجته لا مجال للسخرية، وترقبهما لردي دفعني لأقول:

- لنتحدث عن المهر!

لم اقصد ذلك حرفياً ولكن لم يخطر ببالي أي شيء آخر لأقوله فردت:

- أنا لا أريد منك شيئاً إلا أن تقول مبروك عليكِ البيت القديم.

لم أفهم شيئاً مما قالته وعن أي بيت قديم تتحدث غريبة الأطوار هذه، فسألتها وحين حاول سعيد أن يبادر إلى الحديث سبقته وأخذت تشرح وتصف، حتى علمت أنها تقصد ما نطلق عليه خربة الجن، وهنا أخذت العفاريت تتراقص في رأسي. هذه الإنكليزية ليست معتوهة ولا تسخر مني ما دامت تعرف الخربة، لم أرغب بسؤالها عن كيفية معرفتها بذلك المكان، أو حاجتها لاتباع كل هذه الطرق الملتوية، وكنت أكثر جدية حين قلت لها:

- أرض الخربة لا تساوي شيئاً ولكنها متوارثة أباً عن جد ولا يمكن بيعها خارج العائلة.

كان ردها الصريح كافياً لأعرف أن سعيد متواطئ معها وزاد من حيرتي أني لم أشعر بأنها تخفي أي أسرار:

- أعلم أنك لا تستطيع بيعها، لقد شرح لي سعيد ذلك، لهذا أريد أن أتزوجك حتى لا أكون غريبة، وحتى تقول لي ولأولادي مبروك عليكم البيت القديم والأرض التي حوله.

- وهل لديك أولاد؟

- أولادنا أنا وأنت يا (خسان).
- وهل ستتزوجيني من أجل أرض الخربة فقط؟
- نعم، وهل هناك طريقة أخرى كي لا أكون غريبة وتقول لي مبروك عليك البيت القديم؟

صراحة هذه المرأة وبساطتها تستفز كل ذرة في كياني ويبدو أن سعيد لاحظ ما بلغته من توتر، فطلب مني مرافقته للزقاق لتدخين سيجارة، وفور ابتعادنا عن بوابة بيته قلت له:

- هل هذه المرأة عاقلة أم مجنونة؟ وعن أي بيت تتحدث؟

فرد علي بعد أن حك رأسه:

- يا حسان، أنا قضيت ضعف عمرك بمرافقة السواح الأجانب، وقد جنيت من ورائهم ثروة كبيرة، ثقافتهم تختلف عنا كثيراً. عمرة ليست مجنونة، إنما صريحة جداً، لقد قامت بجولة سياحية في الجبال وبالصدفة رأت تلك الأرض التي أطلقت عليها اسم الخربة وركام البيت القديم، فانجذبت إلى ذلك المكان، وطلبت أن أساعدها في الوصول لأصحابه، وهكذا وصلت إليك ويبدو أنها حين رأتك انجذبت إلى شخصيتك، وكما تعرف، الأجنبيات يجذبهن الرجل الشرقي، ويبدو لي أنها وقعت في غرامك، ولهذا عرضت عليك الزواج، ولا يغرنك صراحتها وبساطتها، فهي خريجة جامعات وأذكى مني ومنك.

لم أشك في أي كلمة قالها سعيد ولا أستغرب هوس الأجانب بكل ما هو قديم فقلت له:

- وهل تعتقد أني فعلاً سأتزوجها؟

حك رأسه مرة أخرى وقال:

- بصراحة يا ابن بلدي، عجزت عن فهم هذه الإنجليزية، تمتلك ثروة كبيرة جداً، ومع هذا تبحث عن حياة البساطة وترغب في أن تتزوج رجلاً شرقياً، تصور أنها قادرة على شراء عشرة فنادق ومع هذا تفضل السكن معنا في هذا البيت!
- لا يظهر عليها ما يوحي بالثراء يا سعيد!!
- كلمة ثرية لا تكفي لتصف وضعها المالي، إنها الوريثة الوحيدة لجد عجوز يمتلك من المال الكثير يا حسان.
- وماذا عليّ أن أفعل الآن؟ بصراحة كنت أعتقد أنها مجرد مزحة، ولم أعلم أنها جادة لهذه الدرجة!
- هذا قرارك يا حسان، لا أحد يعرف أين تكون سعادته، إن تزوجتها قد تملك الملايين، وربما تجد سعادتك مع ابنة عمك أو خالك، المال لا يشتري السعادة، انسَ أمرها، هي طيبة ومتواضعة، مثقفة ثرية، ولكنها في النهاية أجنبية، ونحن لنا عاداتنا وتقاليدنا.

كان سعيد متحدثاً بارعاً زرع الفكرة في رأسي وتركها تنمو بطريقة محايدة فسألته:

- لو كنت مكاني، ماذا ستفعل؟

- بصراحة لو صادفتني فرصة الزواج من عجوز ثرية لما ترددت لحظة واحدة، فكيف إن سنحت لي الفرصة بالزواج من شابة صغيرة هي الوريثة الوحيدة لجد ثري؟! الفرصة يا حسان تزورنا مرة في العمر، إما أن نتركها تفلت من أيدينا وإما أن نغتنمها ونقلب حياتنا، وهنا عليك أن تسأل نفسك، هل ترغب في أن تمضي حياتك في العمل نادلاً في فندق؟ أم ستبحث عن فرصة تكون فيها مالك الفنادق؟
- هل أفهم أنك تنصحني بالزواج منها.
- أنا لا أنصحك بشيء وإنما ألفت انتباهك فقط إلى أن جدها ثري جداً.

ما عرفته عن سعيد أنه أبرع من استثمر الفرص في حياته وما بلغه من ثراء يوماً ما يدل على خبرة كبيرة في الحياة، بصرف النظر عن ظروفه الحالية، كلماته كانت تنساب في أذني كالسحر، لدرجة شعرت فيها أني أخضع لتنويم مغناطيسي، وتكراره كلمة "ثرية" أسال لعابي، فأي أحمق سأكون إن فوتت فرصة الزواج من ثرية تصحبني معها، تخرجني من هذه البلاد الكئيبة، هي ليست خارقة الجمال، ولكنها شابه بإمكاني أن أتزوجها سراً دون معرفة أهلي، وأسافر معها وأتجنس بجنسية بلادها، أنعم بالثراء وربما سأعود يوماً وأفتتح سلسلة فنادق. سألت سعيد:

- هل أنت متأكد من أنها ثرية؟
- جدها ثري جداً، هي الوريثة الوحيدة له.

عدنا إلى حيث كانت عمرة وخديجة، وبأسرع من حلم يقظة كانت الساعة التاسعة مساء وعمرة أصبحت زوجتي على سنة الله ورسوله، وحين غادرنا المأذون

والشهود، أفقت من حلمي وتساءلت ما هي الخطوة القادمة؟ هل عليّ أن أتصل بأهلي وأخبرهم أني لن أعود الليلة إلى البيت بسبب العمل، وأي فندق عليّ اختياره لقضاء يوم العسل الأول فيه، بالطبع لن يكون الفندق الذي أعمل فيه! الصمت الذي حل فجأة زادني ارتباكاً، ماذا يجب أن أفعل؟؟ هل أطلب من عروسي أن ترافقني أم ماذا؟ أخذت أسأل سعيد بعيني وأستنجد به عله يخبرني بما يتحتم عليّ فعله! وهنا كسر الصمت وقال:

- والآن يا عمرة أنت وحسان متزوجان فهل ترغبين في أن أحجز لكما بأحد الفنادق؟
- أنا وحسان غداً سنشتري ما يلزم ونذهب للسكن ببيت عائلتي القديم، اذهب أنت وأحضر حقيبتي من الفندق، وادفع لهم أجرة ليلة واحدة فقط، وفاوضهم على السعر، فأنا لم أتناول طعام الغداء عندهم، وعليهم خصمه من الحساب، وأنت يا حسان تعال صباحاً لنذهب معاً إلى البيت القديم؛ لنرسم خطة كيف يمكن أن نسكن هناك.

شدني سعيد من ذراعي وقال:

- تعال معي.

خرجنا وفي الطريق سألته:

- بماذا تهذي هذه المرأة؟! وما الذي تقصده برسم خطة للسكن في الخربة؟! هل أوهمت نفسها أن هناك بيتاً فعلاً؟!

– يا حسان، يا حبيبي، كن صبوراً، لا بد أن عمرة تختبرك وعليك مجاراتها، عد إلى البيت الآن، وتعال في الصباح لتشرب القهوة مع عروسك.

عاد حسان إلى قريته، وحين وصلت الفندق لدفع الحساب وإحضار حقيبة عمرة لم أجد أي صعوبة في الحصول على خصم خاص لليلة التي قضتها عمرة هناك، فقد تصادف أن مدير الفندق كان موظفاً في واحد من مكاتب السياحة التي كنت أمتلكها في الماضي قبل أن يدخل العجوز حياتي ويسرق ثروتي.

في صباح اليوم التالي حملت فنجان القهوة وخرجت إلى الزقاق لأحتسيه وأملأ جسدي بسموم خمس سجائر، في بيتنا قانون جديد اسمه عمرة، وعلى الجميع أن يمتثل إليه، من الطرف الآخر للزقاق أطل العريس حسان ولاحظت أنه حرص على أن يكون أنيقاً أكثر مما كان عليه بالأمس، أخذت أستعيد الأحداث في مخيلتي وأكاد أشك أنني أحلم، هذا الشاب الصغير تعرف إلى عمرة في الساعة الرابعة، واعتقد أنها تمازحه ثم تزوجها قبل التاسعة، كانت صريحة لم تتلاعب بالكلمات، لم تكذب، قالت له ما تريده وما تسعي إليه، لم ترتدِ ملابس ليست لها، ولم تطلِ وجهها بمساحيق التجميل، اختارت أن تكون هي فقط، وأن ينطق لسانها بما تفكر فيه، "وهل الزواج يحتاج إلى خطة؟" هذا ما قالته سابقاً، والحقيقة أن كل شيء في الحياة يحتاج إلى خطة وكذبة، لم يحالفها الحظ وأنا من حالفتها، اعتقد أنها مجنونة وأشاركه الرأي في ذلك، كانت عنيدة وامتنعت عن استخدام شباكي لاصطياده، وهو كان مطواعاً ونصب الشباك واصطاد نفسه، فهل كان سيتزوجها لو لم أجمّلها وأظهر مفاتنها، لقد علمتني الحياة أن رائحة المال اشد إغواء من

رائحة أجمل النساء، هذا الشاب لا بد أنه أمضى ليلته يتساءل عن حجم ثروة جد المرأة التي تزوجها بالأمس، مع أنه لو يعلم من يكون العجوز الذي تقول إنه جدها، لترك البلاد ورحل، أشعر بالشفقة عليه قليلاً ولكني أشفق على نفسي أكثر، فلا توجد طريقة أخرى لأخرج حفيدة العجوز من حياتنا، وأتساءل هل عليّ أن أشعر بالسوء للتأثير عليّه للزواج منها؟! كل شيء فيها مثالي شابة وجميلة نوعاً ما، صادقة صريحة، لا شيء فيها يدل على سوء، وإن كانت لا تبتسم فهذا لا ينتقص من كونها امرأة، ولا بد أنه سيجد طريقة للتعامل مع هذا التمثال، وربما لاحقاً سيتبين أن ما حدث كان من حسن حظه، حالياً عليّ أن أقلق من القادم، فزواجه منها لم يكن إلا الخطوة الأولى في طريق الخلاص من عمرة، وإن اكتشف أنها تتوهم أن بيت عائلتها على أرضه، وتنوي أن تسكنه فلا أستبعد أن يطلقها فوراً، وفي هذه الحالة أنا الخاسر الوحيد، وسأعلق معها إلى ما لا نهاية، فأنا لا أجرؤ على العبث مع جدها اللعين مرة أخرى.

اقترب حسان وقاطع أفكاري، مد يده ليصافحني ورائحة العطر تفوح منه، دعوته للداخل، استقبلته خديجة بابتسامه عريضة، ورحبت به عمرة بصمت، غمزتني خديجة وتبعتها إلى المطبخ لإفساح المجال للعرسان الجدد للتعارف، ثم أخذت تعد القهوة وهي تهمس في أذني:

– هل أخبرت حسان أن عمرة تنوي قضاء شهر العسل في البيت القديم؟

لو أخبرته لهرب، لهذا سأتركه يكتشف الأمر بنفسه، وحينها سأفكر بحلول لهذه المشكلة.

- ما رأيك أن نرافقهما اليوم للبيت القديم، فهذه فرصة لأساعد عمرة في ترتيب بيتها؟
- يا خديجة كم مرة أخبرتك أن البيت موجود في أوهام عمرة فقط، هل عليّ أن أصرخ لتصدقيني، أتعلمين، معك حق علينا أن نرافقهما حتى تتأكدي من أن هذه المرأة مجنونة!!
- لا يا حبيبي أنت الموهوم لقد وصفته لي بدقة.
- أنا آسف يا خديجة، عمرة أصدق مني، هناك بيت واسع جميل تحيط به الحدائق ولا أمانع إن رغبت بالانتقال أنت أيضاً للعيش فيه.

أعلم أني لن أتمكن من إقناع خديجة بأي شيء، خاصة بعد دخول عمرة حياتنا لهذا التزمت الصمت، وبعد أن احتسينا القهوة واكتفت عمرة بشرب الماء، استقلينا سيارة حسان (البيجو)، وانطلقنا باتجاه قريته، وبعد أن ترجلنا من السيارة سرنا نحو خمسمائة متر، وحين وصلنا إلى أرض الخربة أخذ حسان يلتفت حوله وكأنه يخشى أن يراه أحد، أما عمرة فحركاتها السريعة وتنقلها من زاوية لأخرى دل على انفعال وحماس كبيرين، وزوجتي خديجة أخذت تقفز فوق الحجارة وتبحث عن البيت الذي وصفته عمرة، خفت عليها أن تتعثر أو تلقي نفسها بالوادي حينما تكتشف حقيقة صديقتها المجنونة فأمسكت بذراعها.

أَمْسَكَ سعيد بذراعي حتى لا أتعثر بالحجارة التي اعترضت طريقنا، شعرت بأنه يبطئ حركتي، كنت في شوق للقاء بيت أحلام عمرة الذي تحدثت عنه كثيراً، حثثت الخطى وكانت عمرة تسبقني، حين وقفت على ما يشبه التلة لم أرَ أمامي إلا جداراً متهاوياً يبدو أنه يتحدى عوامل الطبيعة والزمن ليحافظ على تماسكه، ولا يحتاج إلا لدفعة بسيطة لينهار هو الآخر وتتفرق حجارته وتنضم لمئات الحجارة التي انتشرت من حوله، نظرت إلى يمناي فرأيت عشرات البيوت التي لا تبعد عنا سوى مئات الأمتار، وعلى مدى البصر رأيت الكثير من البيوت انتقلت إلى الجهة المقابلة من التلة فشاهدت بيوتاً أكثر، واصلت سيري إلى الأمام متجاوزة الكثير من الحجارة التي اعترضت طريقي، وحين ألقيت نظرة لم أرَ إلا وادياً سحيقاً، من خلاله أدركت أننا نقف على تلة مرتفعة، فمن حيث قدمنا كانت الطرق سهلة قبل أن تتفرع، ولا شيء يدل على ارتفاع التلة إلا هذا الوادي، وربما انتشار بيوت القرية على أطراف التلة هو ما أخفى معالمها، وهنا تساءلت هل أخطأنا الطريق التي توصلنا إلى البيت القديم؟ فأنا لا أرى أي بيت. نعم، هناك الكثير من الحجارة تدل على أنه كان هنا بيت يوماً ما. يا إلهي، لا أريد أن أستبق الأحداث، عليّ الانتظار قليلاً، ومن المؤكد أن أحدهم سيخبرني أننا في المكان الخاطئ، ولكن الطريقة التي انشغلت بها عمرة واهتمامها بعد الحجارة وكتابة الملاحظات على مفكرة تحملها زاد من شكوكي، وأكد ما قاله سعيد سابقاً وهو أن البيت القديم موجود في أوهامها فقط، ضممت يدي إلى صدري واقتربت من سعيد وهمست:

– سعيد حبيبي، أخبرني أننا وصلنا إلى العنوان الخطأ.

رد عليّ بشماتة:

- لا يا حبيبتي، أنت في العنوان الصحيح، وهذا بيت عمرة، ألا ترين كم هو جميل؟
- أرجوك حبيبي، لا تمازحني.
- ما رأيك أن تسألي عمرة وهي ستخبرك.

تركت سعيد واقتربت من حسان وشعرت بأنه يرغب في الاختفاء بين الحجارة حتى لا يراه أحد من أبناء قريته، كنت آمل أنه حين أسأله أن يجيب بأننا توقفنا هنا وبعد قليل سنذهب إلى البيت القديم، وسألته:

- أين نحن يا حسان؟

أشاح بصره ورد عليّ بجدية:

- نحن في خربة الجن يا أخت خديجة.
- بسم الله! بسم الله! وماذا تقصد بخربة الجن؟
- كومة الحجارة هذه اسمها خربة الجن يا أخت خديجة.
- وهل الجن يسكن هنا فعلاً يا حسان؟
- أنا لم أرهم ولكن الجميع يؤكد ذلك، لهذا لا يحبذ الاقتراب من هذا المكان، وليتك تقنعي عمرة أن تعجل لنغادر المكان بسرعة يا أخت خديجة.
- ولماذا يا حسان هل سيصيبنا أذى من الجن إن لم نغادر؟
- لا أعرف ولكن وجودنا هنا سيثير فضول أهل القرية.

مسكين حسان، لم يعرف بعد أن عمرة قد عقدت العزم على أن تقضي شهر العسل في خربة الجن التي يتحدث عنها، اقتربت من عمرة وما عاد لدي شك في أنها تعاني من خلل ما في عقلها فسألتها:

- هل هذا بيت عائلتك الذي كنت تبحثين عنه يا عمرة؟
- نعم يا خديجة، وأخيراً تحقق حلمي وسأسكنه وأنجب أولادي فيه.
- يا عمرة، انظري حولك جيداً وأخبريني أين البيت الذي تتحدثين عنه، فأنا لا أرى إلا حجارة متناثرة ربما تكون ركام بيت لا أكثر.
- القلب يرى ما لا تراه العيون لهذا أنا أراه.
- حبيبتي عمرة، قلبي يراك أنت فقط ويعجز عن رؤية أي بيت بالجوار فأين ستسكنين بالضبط؟

أمسكت يدي وشدت عليها بقوة كما اعتدت أن أفعل مع ابني حتى لا يتوه مني وسط الزحام، وأخذت تتمشى وأنا أسير بجانبها وهي تقول:

- أنا أرى جيداً ما ترونه أنتم، أكوام حجارة وركام منزل، لا شيء أكثر من هذا، ولكني أرفض أن أترك هذه الصورة تلتصق بذاكرتي، لهذا أرى ما كان عليه البيت في الماضي، وما سيكون عليه في المستقبل، وإن لم أفعل ذلك فلن أنجح يوماً في بنائه، وحتى نحقق حلمنا علينا أن نجاريه إلى أبعد حد ونؤمن بقدرتنا على تحقيقه، والخطوة الأولى هي الأصعب دوماً، هذا ما علمني إياه جدي، والآن جاريني أنت في حلمي وتعالي لأريك البيت الذي سأربي أبنائي فيه، تجاهلي الخراب والحجارة واتبعيني في حلمي لتري ما أراه.

وبصوتها رسمت في خيالي البيت وجعلتني أراه وتنزهنا معاً في حدائقه الواسعة، وراقبت معها الشمس وهي تتوارى خلف الجبل الأقرب إلى البيت وقلت لها:

- ما أجمل بيتك يا عمرة!

ولكني أفقت على واقع مغاير فسألتها:

- وهل ستسكنين الحلم أنت وزوجك؟
- لا سنسكن خيمة وسنشرع على الفور ببناء البيت وحين يكتمل سننتقل إليه.

خيمة في هذا الخلاء فكرة مجنونة، ولكن الفكرة راقت لي كثيراً واطمئن قلبي إلى أن عمرة لم تكن مخلولة، وأن علينا جميعاً أن نعطيها الفرصة لتشرح لنا وجهة نظرها قبل أن نصدر الأحكام حول قدرتها العقلية، لا يهم إن نجحت في تحقيق حلمها، ومجرد أنها تملك الجرأة لتحاول فهذا يدل على إرادة ندرت في عالمنا، وأنا بحاجة لمجنونة مثلها لتخرجني من رتابة الحياة والشعور بالعجز الذي دفعني للاختباء في ذلك البيت الحقير، لا أزور أحد ولا أسمح لأي كان بزيارتي خوفاً من شماتة الناس بي، لو امتلكت جزءاً من جنونها لما أهدرت حياتي ملتصقة بالتلفاز غارقة بأحلام عاجزة عن القيام بخطوة واحدة، لا وألف لا، لن أتخلى عن عمرة سواء أكانت عاقلة أم مجنونة! حتى لو اضطررت أن أبني البيت معها، وحان الوقت لأمارس نفوذي وسلطتي على زوجي لمساعدتها على تحقيق حلمها.

لم أعجز يوماً عن تطويعه ليفعل ما أريد فكيف بعد أن اكتشفت أنه يخفي عني الكثير من الأسرار، والله وحده يعلم ماذا يخفي عني أيضاً، تركت عمرة غارقة في أحلامها وذهبت إليه، وحذرته بحزم من أن يسخر أو يضحك مما سأقوله وإلا سأحول حياته إلى جحيم، شرحت له عن نية عمرة نصب خيمة والشروع في بناء البيت لم ينفع معه التهديد والوعيد، فضحك وسخر.

سَخِرتُ من خديجة وهي تشرح خطة عمرة للسكن في الخربة، لم أشك يوماً في أن الجنون معدٍ، وقابل للانتقال من شخص إلى آخر مثله مثل بقية الأمراض، خاصة إن كان الشخص مهيأ لاستقبال المرض، وهأنذا أرى زوجتي قد اعتنقت جنون عمرة وألقت عليّ مهمة إغراق حسان معهما. زوجتي طيبة وحبي لها نقطة ضعفي الوحيدة، وسأفعل أي شيء لإسعادها، وأعلم جيداً أنها لن تقلب حياتي إلى جحيم، وما لا تعلمه هو أن العجوز سيفعل ذلك إن لم أف بوعدي وأساعد حفيدته، حسان كان يجلس على واحدة من حجارة خربة الجن، كان قلقاً ربما من اعتقاده أن الجن يسكن هذا المكان أو أن يراه أحد أبناء قريته برفقة غرباء وأجنبية، أشفقت عليه من الأيام القادمة، اقتربت منه وجلست بجواره وأخذت أحكي له قصة حياتي علّها تشحنه بالقوة لمواجهة القادم، ورويت له:

- حينما كنت في الثالثة عشرة من عمري كنت أقضي عشر ساعات يومياً في الركض خلف السواح من مكان لآخر لبيعهم الصور التذكارية، لأجني في اليوم الواحد القليل من النقود، وحين بلغت الخامسة عشر من عمري قمت بعملية حسابية بسيطة كشفت لي أن ما يجنيه صاحب الحافلة التي تقل السواح في اليوم الواحد يعادل عملي عاماً كاملاً في الحر والبرد، وأن ما يجنيه صاحب الفندق الذي اعتدت الوقوف أمامه كل صباح للبدء بمطاردة السواح، سأحتاج أضعاف عمري لأجنيه إن بقيت في عملي، وهنا اتخذت قرارات شجاعة، وطاردت حلماً مجنوناً، وقبل أن أبلغ الخامسة والثلاثين كان بإمكاني أن أمتلك ذلك الفندق، ما أقصده يا حسان أنت اليوم لم تتجاوز الثالثة والعشرين من عمرك فهل تمتلك الشجاعة لتحلم؟ والآن أغمض عينيك وأخبرني هل ترى نفسك

بعد عشرين عاماً تعمل نادلاً وتقود سيارة متهالكة مضى على إنتاجها ضعف عمرك؟ أم ترى نفسك في مكان آخر؟

أطاعني حسان وأغمض عينيه ورد بتهذيب:

– اعذرني يا سعيد فحالك اليوم ليس أفضل من حالي.

– نعم معك حق، أنا خسرت كل شيء وأنت انظر إلى الجانب المشرق من قصتي، فقد حققت ما عجز عنه الكثيرون، فتعلم مني الشجاعة باقتناص الفرص واتخاذ القرارات واحرص على ألا يصيبك ما أصابني.

أَحب قصتي، وكانت الفرصة مواتية، فأخذت أحدثه عن نية عمرة السكن في خيمة بأرض الخربة، فأصابه الذهول فسألني عن سبب حاجتها لهذا الجنون، فأجبته:

– هذه الأجنبية يبدو لي أنها تعيش داخل رواية، تريد أن تختبر الحياة في البراري تتخيل نفسها تجلس بجانب نار تراقب القمر برفقة حبيبها، السواح خيالهم واسع والخيام والنار أكثر ما يشدهم والكثيرون منهم يفضلون اختبار قسوة ليلة في العراء على رفاهية فندق يتباهى بأكبر عدد من النجوم، فهل ستحرم زوجتك الثرية من تحقيق حلم بسيط؟

– إن توقف الأمر على السكن في خيمة ليوم أو ثلاثة أيام فلا بأس.

جوابه فتح لي الباب لأزف له نيتها بناء البيت، فقلت له إنها ربما ستخضعه لاختبار، للتأكد من إخلاصه وقدرته على التحمل لتتأكد من أن بإمكانها الوثوق فيه ليتولى شؤون ثروتها العظيمة.

– وكيف سيكون الاختبار يا سعيد؟

– قد تخبرك يا حسان أن هذه الحجارة كانت لبيت قديم، وعليك أن تساعدها في بنائه.

– هذا جنون وليس اختباراً يا سعيد!

- إن حدث ذلك فعليك أن تكون شجاعاً وتجاريها، ولا تفوت فرصة الثراء القادم يا حسان، وربما هي بحاجة إلى الإحساس بأنها قادرة على الاعتماد على نفسها وبناء بيت، لتعود إلى بلادها وتفخر بهذه المغامرة، وكما تعلم الأثرياء يحبون خوض تجارب قاسية للتباهي يا صديقي، فهل ستحرم زوجتك الثرية من خوض مغامرة صغيرة لتتباهى بها أمام صديقاتها.
- لا يا سعيد، هذا جنون! قد أجاريها بالسكن في خيمة ليوم أو أسبوع ولكن أن أعبث بحجارة خربة الجن لنبني بيتاً فهذا ما لا أقبل به!
- يا حسان، فكر بعقلك لا عواطفك وتمعن في هذه الأجنبية الناعمة، هل تعتقد أنها قادرة على العيش في البراري، صدقني إنها بعد أسبوع أو عشرة أيام ستكتشف بنفسها أن الواقع يختلف عن الروايات التي تقرؤها، وتعود إلى رشدها وتتخلى عن أحلام الاعتماد على النفس وعندها تكون أنت الرابح الوحيد.

المسكين تجاوب معي إلى أبعد الحدود، وكنت أجد لكل سؤال يخطر على باله الجواب الذي يغذي أحلامه بأنه سيكون من الأثرياء، روح الشجاعة والتحدي التي ملأتها في نفسه، دفعته ليقف كالأسد ويعلن أنه قادر على مواجهة عائلته وكل أهل قريته فتركته ليتخذ قراره بعد أن اتخذت القرار عنه.

قَرَّرَ سعيد، وكنت أعتقد أني صاحب القرار، كنت كعجينة يحملها بين راحتيه ويتلاعب بها بكلماته ليشكلها على مزاجه، وكلما شعرت بأني سأواجه مشكلة بحجم صخرة كان يبرع في تفتيتها، والآن أجد نفسي في مواجهة خوفي وأهلي وأهل قريتي، لا شيء لأبتكره، سأعيد على مسامعهم ما لقنني إياه سعيد، تزوجت أجنبية على سنة الله ورسوله وهذا لا يعيبني بشيء وسأخبرهم أني قررت السكن في خيمة لأعلم زوجتي عن الإسلام وكيف عاش أسلافنا حياة التقشف وإن صدق سعيد فستمر الأيام بسرعة وخاتمة هذه المغامرة ستصب في صالحي، راقبت عمرة وحين انتهت من تدوين ملاحظاتها نادت عليّ بأعلى صوتها فاقتربت منها وانضم إلينا سعيد وخديجة فأخذت تتحدث بثقة غريبة:

- سنبني خيمة في تلك الرقعة وخيمة صغيرة بجوارها وبعد ذلك سنبدأ جمع الحجارة في مكان واحد وتنظيفها، وتصنيفها وسنحاول أن نجد طريقة لنقل الحجارة التي انزلقت إلى الوادي، أما الحجارة التي ستنقصنا، فسنبحث في الجبال عن صخور من النوعية نفسها لنقص منها الحجارة التي تنقصنا، وأنا متفائلة بأنه لن ينقصنا الكثير.

لم يكن أمامي إلا مجاراتها بحديثها الساذج، فتظاهرت أني مهتم وسألتها عن الكهرباء وكيف سنوفر الماء، وأين سنستحم، ونطهو طعامنا، ولكل سؤال كانت تمتلك الإجابة، وجواب مصدر الماء كان الأغرب، لقد أشارت إلى مجموعة من الحجارة وادعت أن أسفلها بئر ماء كبيرة تكفي قرية بأكملها، حاولت أن أقنعها

بأنه لا وجود لبئر ماء، ولو كان لاكتشفها أجدادي، إلا أنها أصرت على ذلك، وطلبت منا مساعدتها في دفع الأحجار حتى نكشف عن موقع البئر، غمزني سعيد وأخذنا نزيح الحجارة ولم يظهر بئر عمرة، وسرني ذلك لعل هذا يساعدها حتى تفيق من أوهامها إلا أنها أصرت أنها على يقين من وجودها، ولكن هناك طبقة من التراب تراكمت مع الزمن وأخفتها، وهنا تدخلت خديجة واقترحت إحضار خزان كبير، ولن تكون هناك مشكلة بملئه بالماء كلما فرغ، راقت لها الفكرة، وبعد جهد أقنعها سعيد بالعودة وأنه سيشرف بنفسه على تجهيز الخيمة وكل ما نحتاجه للسكن في الخربة، وفي الطريق دعانا لتناول الطعام في أحد المطاعم فاعترضت عمرة على الفكرة بحجة أن موعد عودة الأولاد من المدرسة قد اقترب، وأنه لا حاجة لإهدار الأموال على المطاعم، وكان ما أرادت، تناولنا الطعام في بيت خديجة، وأعدت عمرة قائمة طويلة بما علينا شراؤه، وأوصتني أن أفاوض على الأسعار.

ألقيت نظرة على القائمة وكانت مكتوبة باللغة الإنجليزية، فرميتها على سعيد ليترجمها لي، وتبين أن طلباتها متواضعة جداً، ولن تكلفني الكثير من النقود، يومان برفقة سعيد كانت كافية لإعداد كل شيء بما في ذلك نفسيتي لأواجه تحدي الأيام القادمة، عليّ ألا أفشل باختبار نجاحي الأول، فالثراء لا يكون دون ثمن، وكان الاتفاق أنه في الغد سأرحل برفقة زوجتي إلى خيمتنا التي نصبناها في خربة الجن وقررت أن أستبق الأحداث وأمهد الأمر لأهلي، وحين وصلت لم يكن هناك حاجة للدعوة لاجتماع عائلي فقد اجتمعوا مسبقاً بعد أن وصلتهم الأخبار بأني

قمت بتأجير أرض الخربة لرجل غريب، اعتقدوا أنه يبحث عن كنوز، ولعل الساعات التي قضيتها برفقة عمرة علمتني أن أكون أكثر وضوحاً ومباشرة، أخبرتهم أن أرض الخربة هي من ضمن حصتي، وأني لم أؤجر الأرض لأي كان، لقد تزوجت أجنبية وسنسكن هنا عدة أيام لأني حريص أن أعلمها الإسلام وأختبر إيمانها لعلها تكون تذكرتي للجنة، عائلتي متدينة جداً، وأخطأ سعيد حينما اعتقد أنهم سيناصرونني أو يتجنبون معارضتي إن استخدمت الدين كواجهة لزواجي وسكني في الخربة، امتعض الجميع وأخي الكبير كان الأكثر تشدداً وهددني بأني إن فعلتها فسيتبرأ مني، أما أختي التي حاولت طوال الجلسة تلطيف الأجواء فانفجرت فجأة وقالت:

– ألم تجد إلا خربة الجن لتعلمها فيها الإسلام؟

وفي ختام الحديث استنتجت، أننا نخشى لسان الناس أكثر من خشية الله، واستنتج الجميع أني واقع في غرام أجنبية فعرضوا عليّ أن أبقي زواجي منها سراً وأبتعد عن القرية مليون ميل. لم تسر الأمور كما يجب مع عائلتي ولكن مواجهتهم كانت الخطوة الأصعب في هذا الاختبار.

في ظهيرة اليوم الثاني توجهت لاصطحاب عمرة إلى عش الزوجية، فانفرد بي سعيد وأوصاني أن أتوقف عن مناداة عمرة باسمها وأن أعود لساني على مناداتها حبيبتي، روحي، عمري، قلبي... وألقى عليّ محاضرة في فن الغزل، ولو لم أقطع عليه الطريق لذهب إلى أبعد من ذلك في تعليمي.

اصطحبت عمرة وحقيبتها الجلدية، وما أعدته هي لخربة العسل، وحينما وصلنا انشغلت بترتيب الخيمة أما أنا، فتوضأت وصليت العصر ودعوت الله أن يمر يوم العسل الأول على خير، بعيداً عن غضب الجن وعائلتي، استجمعت شجاعتي ودلفت إلى داخل الخيمة فاستقبلتني بنظراتها التي تخلو من أي تعبير وسألتني إن كنت جاهزاً لنبدأ، لم يخطر على بالي سوى بداية واحدة وهي أن أخلع ثيابها المحافظة، وفي لمح البصر وجدت نفسي أحمل دلو ماء وفرشاة وأساعدها في خلع الغبار عن الحجارة، هذه البداية التي أرادت أن نبدأ بها يومنا الأول كزوجين! جمع الحجارة وتصنيفها بناء على الحجم، والحرص على تنظيف كل حجر مما علق به من غبار وطين، مرت الليلة بسلام لم يقتحم خلوتنا لا بشر ولا جان، لإفساد أجواء الرومانسية على ضوء القمر برفقة الحجارة، نفضت عمرة عنها الغبار واغتسلت واستلقت على الفراش في الخيمة، وكذلك فعلت، لم أجرؤ على لمسها ولم تشجعني أن أفعل، أشغلت نفسي بالدعاء لله أن يبعد عني أي شر يسكن هذا المكان، وحاجة جسدي المرهق من دحرجة الحجارة وتنظيفها للراحة والنوم كانت أقوى من التفكير بالجن والزواحف.

نمنا تلك الليلة بجوار بعضنا كالغرباء وفي صباح اليوم الثاني صحوت على رائحة دخان نار، فوجدتها منهمكة بإعداد طعام الإفطار:

- صباح الخير.
- صباح الخير.

هذا كل ما دار بيننا من حديث، فقد عدنا للعمل، أدحرج الحجارة وأجمعها وهي تقوم بتنظيفها، كانت عروسي ترتدي كفوفاً حرصاً على نعومة كفيها، وتعجز عن تحريك حتى الحجارة صغيرة الحجم، وهذا بشرني بأنها سترهق سريعاً، وتكتفي بما أنجزناه، إلا أن ذلك كان حلماً لم يتحقق، ثلاثة أيام قاسية مرت عليّ بسرعة نملة تتسلق جبلاً، قضيتها في أعمال شاقة والرد على أسئلة بعض الفضوليين الوقحة الذين تجرؤوا على الاقتراب من حدود أرض الخربة، حينما كنا صغاراً كنا نتحدى بعضنا البعض بمن يجرؤ على أن يمضي ساعة في الخربة، وكبرنا وما زال التحدي قائماً، ثلاثة أيام بلياليها اختبرت شجاعتي بالعيش والنوم في الخربة، ولم أجد الشجاعة لأقترب من جسد زوجتي، كنت أعزي نفسي بأننا سنرحل قريباً وعندها سأخلع عنها خجلها وأثبت رجولتي، أثق في سعيد ويراودني الشك قليلاً في أن هذه الناعمة ستنهار قريباً.

اصْطَحبْتُ خديجة وذهبنا في زيارة خاطفة للاطمئنان إلى العرسان، انفردت بالعريس حسان وسألته عن الأخبار فرد عليّ ساخراً:

- كما ترى، قبل شروق الشمس توقظني من النوم لأبدأ نقل الحجارة وتنظيفها وبعد أن أصلي العشاء تطلب أن أنام لأريح جسدي، ووقت الراحة الوحيد الذي أحصل عليه حينما أذهب إلى القرية لأشتري لها بعض الحاجيات، وأهل قريتي الكرام ما زالوا ينتقلون من قصة إلى أخرى وقد أجمعوا على أن عمرة ساحرة أجنبية أحضرتها لإخراج كنز عظيم، ويشكون في أنها قادرة على هزيمة الجن، والنتيجة أني سأفقد عقلي كما حدث مع أحد أقاربي قبل سنوات حينما تجرأ وبحث عن كنوز الخربة.

ضحكت وسألته ممازحاً إن كان ظهر له جن، فرد:

- أنام كالقتيل من شدة الإرهاق ولا أدري ما يدور حولي، وكوني لم أرهم حتى الآن فهذا لا ينفي حقيقة وجودهم في الخربة.
- اطمئن يا حسان، ومن خلال تجربتي الطويلة اكتشفت أن الأذى مصدره البشر فقط ولم أسمع أن الجن آذى أحداً يوماً.
- أنا مؤمن يا سعيد، ولا أخشى إلا الله، ولكن هذا لا يعني أن أرمي نفسي إلى التهلكة، سأصبر حتى نهاية هذا الأسبوع بناءً على وعدك بأن الأمر لن يطول، وبعدها إما أن تجد لي حلاً وإما سأتولى الأمر بنفسي.

سألته عما يقصده بجملته الأخيرة، فرد بأنه تزوجها في ساعات ولن يجد مشكلة في طلاقها بدقائق، ارتعبت من فكرة أن ينهار حسان وأعود وأعلق مع عمرة مرة أخرى، وما كنت لأسمح بحدوث هذا، وكان عليّ أن أنفض عن عقله غبار هذه الفكرة التي سأدفع ثمنها، فأخذته في جولة حول العالم وأغرقت خياله برفاهية الثراء، فسال لعابه وقرر أن يصبر أكثر.

أَصَابَنِي هوس الثراء، والساعة التي أمضاها سعيد يحكي لي فيها عما ينتظرني مستقبلاً كانت كافية لتشحنني بالقوة لأتغلب على خوفي من الخربة وأحتمل الأعمال الشاقة في انتظار أن تنهار عمرة وأنجح في الاختبار، غادرتنا خديجة وزوجها، وعدنا للعمل، وبعد غروب الشمس اقتربت مني عمرة، كانت مغبرة من أخمص قدميها حتى رأسها، حدقت بي لا شيء أراه في عينيها لأستدل منه على سر نظراتها المتواصلة اتجاهي، وتساءلت إن كنت أسأت التعامل مع أحد حجارتها المقدسة، ولكنها فاجأتني حين قالت:

– اليوم أنا مهيأة لاستقبال بذورك يا حسان فهل أنت موافق على زرعها؟

لم أفهم ما ترمي إليه حتى بسطت الأمور، وفهمت أنها تدعوني لأتواصل معها جسدياً، ارتبكت ولم أعرف إن كان عليّ أن أبتهج أم أرتعب من عروسي المغبرة الخالية من أي تعابير لدرجة أني اعتقدت أنها خجولة تدعوني إليها في مهمة حرث وزراعة، اغتسلت وسبقتني إلى الخيمة ووقفت حائراً عاجزاً عما عليّ أن أفعله، اغتسلت بدوري لأنفض عني الغبار والخوف من هذه المواجهة المرعبة، وترددت كثيراً قبل الولوج إلى الخيمة. شعرت بالعار من الرعب الذي حل بي وصرخت بأعماقي إنها في النهاية امرأة وأنا الرجل، اقتحمت الخيمة كأسد ينقض على فريسته، واستلقيت بجانبها كأرنب، واحترت من أين أبدأ!

كانت لي تجارب سابقة ولكن مثل هذه الرومانسية تصيب أعتى الفحول بالعجز، تمالكت نفسي وطردت خوفي، وكانت دقيقة شعرت فيها بالفخر الشرقي، نعم هي عذراء، عشرة أيام أخرى مرت اعتدت فيها الأعمال الشاقة وزرت جسدها عدة

دقائق وانتهت مهمة جمع الحجارة وتنظيمها واعتقدت أن هذه هي النهاية ولكنها فاجأتني بأن علينا أن نجلب الحجارة التي انزلقت إلى الوادي لتعويض الحجارة المفقودة والبحث في الجبال عما يشبهها وجلبه، ما طلبته عمرة كان أشبه بالمستحيل فقدت صوابي وصرخت فيها:

– أنت مجنونة فعلاً!

تركتها وذهبت بحثاً عن سعيد ليجد لي حلاً، حاول أن يمارس عليّ سحره ولم يفلح، قلت له إني احتملت دحرجة الحجارة وتنظيفها على الرغم من أنها كانت مهمة شاقة ومع هذا صبرت ولكن أن نقوم بنقل عشرات الحجارة من الوادي إلى الأعلى فهذا الجنون بعينه، جاراني سعيد وأيد كلامي ورافقني لعله يقنع عمرة بأن تعدل عن رأيها، وحين وصلنا لم نجدها، فبحثنا عنها ورأيناها أسفل التلة تجاهد لحمل حجر صغير لا يستحق الذكر بالمقارنة مع بقية الحجارة التي ترقد بجواره في انتظار معجزة لرفعها إلى أعلى التلة، وصلنا إليها فاستقبلتنا بصمت وأخبرتنا أنها لن تتوقف حتى تعيد كل حجر إلى موطنه، انزاحت الغشاوة عن عيني وأدركت أن عمرة جادة في ما قالته سابقاً عن نيتها بناء البيت ومجاهدتها في نقل الحجر تؤكد أنها لن تتراجع عن قرارها، أشك في أنها تختبرني وربما كانت تختبر نفسها، وجد سعيد حلولاً كثيرة لنقل الحجارة للأعلى منها استخدام آلية ولكن عمرة رفضت الفكرة خوفاً من أن تخدش الحجارة، وقالت إن أيدي البشر والدواب ستكون أحن عليها، برع سعيد في إيجاد حلول لنقل الحجارة دون أن تصاب بخدش باستخدام آلية، وما كان ذلك ليتم إلا بعد أن أشرفت عمرة بنفسها على نقل كل حجر،

استمرت مسرحية نقل الحجارة التي راقبها أهل القرية حتى منتصف الليل. طلقتها في سري ولم يبقَ إلا الإعلان عن ذلك، وسعيد الذي لم يفارقنا إلا بعد أن انتهت المهمة نجح في التسلل إلى عقلي مرة ثانية:

– هل ستحرم زوجتك الثرية من حلم بناء بيت؟ إنها فقط تختبر قدرتها على إنجاز أمر بعيداً عن الثروة والرفاهية، لن تنسى أبداً أنك الزوج الذي ساعدها على إثبات ذاتها، لا تضحي بحلمك والأيام التي أهدرتها، لا تترك فرصة العمر تهرب منك...

كان سعيد محقاً، واتخذت قراري في أن أجاري زوجتي الثرية في لعبة إثبات الذات الصبيانية، ووصلت إلى قناعة بأن حياتي لن تتغير إلا بعد الانتهاء من بناء عمرة للبيت القديم، وخير لي أن أستمتع بحلمها الغريب وأساعدها على إنجازه بأسرع وقت، بدل التذمر وتعقيد الأمور، خربة الجن بعيدة قليلاً عن القرية، والخوف من الجن منع الاقتراب منها، واكتفى البعض بالمراقبة من بعيد، ولكن نقل الحجارة من الوادي ما كان ليتم إلا عبر المرور بطرق من وسط القرية وهذا فتح المجال للكثيرين للاقتراب من الأجنبية التي سكنت الخربة وتفحصها، كانت محتشمة ومع هذا كل ما لفت انتباههم قبعتها الكبيرة وعيناها الغريبتان اللتان أكدت لهم أنها ساحرة شيطانية، واشتعلت النار في بيت عائلتي واستدعوني على عجل لاجتماع بقيادة شقيقي الأكبر الذي نصّب نفسه زعيماً للقبيلة بعد موت والدي، خيروني بين أن أختار الأجنبية الكافرة أو أختار عائلتي، غضبهم الشديد طغى على حكمتهم، وأسلوبهم كان مستفزاً. اخترت عمرة ومعها ثروة جدها بلا تفكير، وللإسراع في

إنجاز بناء البيت اقترحت عليها اختيار مقاول لينفذ المهمة لكن ردها شابه جنونها.

- يكفي ما أصاب هذا البيت من خراب، لن أسمح لغرباء جهلة بالعبث فيه مرة أخرى سأبنيه بنفسي.
- أفهم من قصدك أننا سنحضر عمالاً وستشرفين بنفسك عليهم.
- لا، لن نحضر غريباً سأبني البيت أنا وأنت.

صمت وتساءلت هل تتوقع مني هذه المعتوهة أن أرفع حجارة بهذا الحجم وأنا بالكاد تمكنت من دحرجتها وتنظيفها؟ هل سأحفر أساس هذا البيت بنفسي؟! حاولت أن أشرح لها أن هذه المهمة تحتاج إلى الكثير من الأيدي العاملة إلا أنها شرحت لي بثقة منقطعة النظير كيف ستقوم بالمهمة موضحة أن أساسات هذا البيت لم تتضرر وأنها ستقوم بالبناء على مراحل وستطلب من أحد مساعدتي في رفع الحجارة.

مجاراتها هي الخيار الوحيد الذي أملكه ولا حاجة لإهدار الوقت، انطلقت لجلب ما نحتاجه للبناء وعدت محملاً بسيارة وبرفقتي عامل من الوزن الثقيل، أنزلنا ما حملناه حيث تمكنت السيارة من الوصول وعادت أدراجها وحملت معي ما خف وزنه وتركت للعامل أن يبدأ نقل أكياس الإسمنت ليضعها بالقرب من موقع البناء المفترض، وصلتها وكانت منهمكة بكشط التراب للكشف عن أساسات البيت، وحينما رأت العامل يتبعني من بعيد سألتني من هذا الرجل وما الذي يحمله على

كتفه؟ فأخبرتها أني جلبت الإسمنت واستأجرت عاملاً يمتلك بعض الخبرة في البناء ليساعد في نقل الحجارة، فقالت:

– نحن عائلة وعليك أن تستشيرني قبل الإقدام على أي خطوة لنتخذ القرارات معاً، والآن أرجوك أن تبعد هذه المواد السامة عن بيتنا وأن تنهي اتفاقك مع الغريب وأن تبعده عن أرضنا.

سألتها ساخراً:

– هل هناك مواصفات محددة للعامل الذي أبحث عنه؟

– اترك هذه المهمة الآن، ولاحقاً سنذهب معاً لنأتي بمن يساعدنا.

هي كانت خياري وعليّ مجاراتها، دفعت للعامل أجرته وأبعدت الإسمنت وارتديت ملابس العمل، ونفذت ما طلبته "المعلم عمرة". انتهى يومنا بإزالة التراب الذي تراكم عبر السنين واندهشت حينما رأيت أن أرضية البيت مرصوفة بالكامل بنوع من الحجارة المسطحة بحرفية عالية، وفرحت حينما تبين أن أساسات البيت متينة، مما سيوفر علينا الكثير من الوقت والجهد.

خَرَجنَا باكراً للبحث عن العامل الذي سيساعدنا، جلست بجانبي واعتقدت أنـها ستطلب مني أن نذهب إلى حيث نجد العمال، لتختار أحدهم لمساعدتنا، وتفاجأت حينما رأيت أنها تحمل خريطة وتطلب أن أقود السيارة بناء على تعليماتها. سألتها إلى أين وجهتنا، فردت إنـها ستذهب لتأتي بمن يساعدنا، لم أعلق، وقيادة السيارة ساعات كانت فرصة لأخذ راحة من الأعمال الشاقة، لا يبدو أنـها تعرف شيئاً في بلادنا، والخرائط غبية، وتصعب الأمور في أغلب الأحيان، وبعد إهدار وقت بالانتقال من مكان إلى آخر وصلنا موقعاً سياحياً فأشارت بإصبعها باتجاه رجل يمسك بخطام جمل اعتلاه سائح وحوله بضعة سواح يلتقطون الصور. انتظرنا حتى ابتعدوا واقتربنا منه، كان في الخامسة والعشرين من عمره صاحب بنية جسدية قوية، فتحدثت معه مباشرة:

- تحياتي يا سيدي، أنا أمرة وبإمكانك مناداتي عمرة وقد طلب مني جدي أن آتي إليك في حال احتجت لأي مساعدة.

لم ينظر باتجاهنا ورد عليّها:

- لقد أخبرني العجوز قبل سنوات أنك قد تأتين إلي وحكى لي أنك جميلة واقترح عليّ أن أعرض عليك الزواج لنكوّن أسرة معاً.
- هذا صحيح يا سيدي، لقد اقترح عليّ ذلك أيضاً وأعتذر منك، فأنا الآن متزوجة من حسان وسنكوّن معاً أسرة ونعيش في بيتنا القديم.
- وهل وجدت البيت يا أمرة؟
- نعم يا سيدي، لقد وجدته.

- هل أنت متأكدة من أنه البيت الذي بحث عنه العجوز وفشل في إيجاده.
- نعم يا سيدي، وأنا ما كنت لأتوه عن بيت ترعرعت فيه، ولكن للأسف لقد انهدم الجزء العلوي من البيت، ولهذا فشل جدي في إيجاده.
- لا أشك في ذلك، لقد علم العجوز أنك الوحيدة القادرة على إيجاده والآن بماذا يمكنني مساعدتك؟
- أحتاجك لتساعدني وزوجي في إعادة بناء الجزء العلوي، فالحجارة ثقيلة ولن نتمكن من رفعها دون مساعدة.

انتهى الحديث بين الاثنين واتفقا أنه سيحضر كل يوم في الصباح الباكر إلى العنوان الذي زودته إياه وسيغادر في ساعات الظهيرة ليعود إلى عمله، ودعناه وعدنا أدراجنا وشعرت بأن عشرات الأسئلة قد زادت من وزني، هذا الرجل كان يتحدث معنا ولم يشغل باله بالنظر باتجاهنا في البداية اعتقدت أنه ينقصه التهذيب، وسرعان ما اكتشفت أنه ضرير لا يرى، هل هذا العاجز هو من سيساعدنا؟!

عدت إلى ممارسة الأعمال الشاقة لم أعلق ولم أسأل، لم ينقصني الفضول ولكن أحياناً كثرة الأسئلة تدفع الشخص للصمت، ولقاء اليوم قلب كل شيء رأساً على عقب. سخرت منها في سري سابقاً حينما سألتها ما الذي يحببك في هذا البيت فأجابت دون تردد، إنها عاشت فيه سابقاً وإن جدها أوكل إليها مهمة البحث عنه، كانت أكثر وضوحاً من الشمس، أعلم أنها ستجيب عن أسئلتي بمنتهى البساطة، ولكن يراودني شعور بأن أسئلتي قد تكون ساذجة وأن أجوبتها لن يكون لها معنى

وأنها ستزرع الرعب في نفسي، وأن الصمت والمراقبة كانا خياري في هذه المرحلة، حضر الضرير واستقبلته عمرة وسألته بتهذيب:

- هل تخبرني يا سيدي بالاسم الذي عليّ أن أخاطبك به؟
- يسرني مخاطبتي بالأعمى.
- أعتذر منك يا سيدي، فأنا لا أحبذ استخدام الألقاب التي يطلقها جدي على الآخرين.
- لا عليك يا أمرة، أحب ما لقبني به العجوز.

لم يخبرها باسمه واكتفت بأن تخاطبه يا سيدي، لا ضيافة ولا مجاملات وإلى العمل مباشرة، رسمت له الطريق، تحسسها وعد خطواته وأخذت أدله على الحجارة التي طلبت أن ننقلها أولاً، كان أقوى مني جسدياً، واقتصر دوري على خلط الجير والرمل، ونقله إلى المعلم عمرة، لتقوم بفرشه تحت كل حجر وعلى جوانبه، وأحيانا أقوم بمساعدته بحمل الحجارة التي يصعب عليه نقلها، وعلى الرغم من الغموض الذي زارنا منذ لقائنا بهذا الضرير فإني لم أسألها إلا عن رفضها استخدام الإسمنت وخاصة أنه سيكون أكثر صلابة، وسيسهل عليها البناء فردت بأن الحجارة بحاجة للتنفس وهذه المواد السامة تخنقها وتقصر عمرها، ومثل هذا البيت علينا إعادة بنائه ليعود كما كان في الماضي. انتهى اليوم الأول وكان المعلم عمرة كريماً علينا باستراحات لتناول الطعام واحتساء الشاي، وفي اليوم الثاني أنجزنا الصف الأول فوق أساس البيت، وذهلت حينما تبين أن حجم البيت أكبر مما رسمته في خيالي. ضحك الضرير دون سبب وقال لي:

- ما زلت أملك أذنين ولساناً، فلماذا لا تتحدث معي يا حسان؟
- لم أرغب في إزعاجك يا أستاذي.
- لست أستاذاً ولا سيداً، أنا الأعمى، بإمكانك أن تخاطبني بهذا الاسم، تعال يا أعمى! انتبه يا أعمى! انظر أمامك يا أعمى!

أسلوبه الساخر راق لي كثيراً وقربه من قلبي، لم يتوقف عن المزاح، وفي اليوم الثالث فاجأني الضرير حينما حذرني من تحريك أحد الحجارة لأن تحته أفعى، ثم قام هو بنفسه بتحريكه، وبالفعل ظهرت أفعى تتلوى، فاقشعر بدني، وحملت حجرا لأدق به رأسها فوقفت عمرة بيني وبينها وتركتها تبتعد عنا بسلام. تناسيت أمرها وأخذت أحدق بصديقنا كيف رأى الأفعى إن كان ضريراً فعلاً، قررت أن أكتشف خداعه، وحين حان موعد تناول الغداء وجلسنا تعمدت أن أناوله رغيف خبز دون أن أنبهه كالعادة ليمد يده ويلتقطه، فأخذه مني وشكرني وقال:

- بإمكاني أن أشم رائحة الخبز الطازج وهذا لن يساعدك لتعرف إن كنت أعمى أم أتظاهر، لقد علمني جد زوجتك أن هناك أسئلة علينا أن نجتهد لنحصل على إجابتها، وبعضها لا يحتاج منا إلا أن نسأل لنحصل على الإجابة، سأريحك من عذاب التفكير حول إن كنت ضريراً أم أتظاهر، نعم يا صديقي، عيني تضررت في صغري وما عدت أرى فيها ما تراه أنت ولكن بإمكاني أن أرى ما لا يُرى بالعين، وحالياً أرى رأساً مزدحمة بمئات الأسئلة، لست أكبر سناً منك بكثير، ومع هذا سأنصحك

بأن تسأل زوجتك عما يدور بخلدك، فمن هي مثلها لن تكذب على زوجها.

كانت عمرة تجلس معنا وتتناول الطعام وتصغي إلى ما يقوله الضرير وكعادتها لا تعابير في وجهها تدل على شيء وعلقت:

- هل تريد أن تسأل عن شيء يا حسان؟
- نعم هناك الكثير من الأسئلة وسأصبر عليها حالياً.
- بإمكانك أن تسألني عن أي شيء وفي أي وقت، أنت عائلتي ولن أخفي عنك شيئاً؟

ضحك الأعمى وعلق:

- أنصحك أن تسأل وتحصل على الإجابات باكراً وتخرج من حيرتك فالأسئلة ستزداد ولن تنقص يا صديقي.
- لست في عجلة من أمري وسأسأل في الوقت المناسب.
- إذن عليّ أن أسألك، هل أمرة امرأة جميلة؟

لم أعرف كيف أرد على وقاحة سؤاله في حضور عمرة، فسألته عن سر سؤاله، فقال:

- أريد أن أعرف هل هي جميلة لأتحسر على ما ضاع مني، أم قبيحة لأكون مسروراً لنجاتي من خداع العجوز وأشكرك على إفساد خططه بزواجك منها.

ردت عليّه عمرة:

- ليس من اللباقة أن تصف سيدة بالقبيحة بحضورها، ولا تسير الأمور دوماً كما يخطط لها جدي، وليس علينا أن نسير وفق رغباته فهو أيضاً يخطئ يا سيدي.

سؤاله كان سخيفاً ومستفزاً، فقلت له:

- من هو قادر على رؤية أفعى تحت الحجر ليس بحاجة إلى السؤال.
- أنا أرى الهالات، لكني أحتاج أحياناً إلى أن أعرف التفاصيل، ليس عليك أن تغار من أعمى، صفها لي كي يطمئن قلبي إلى أن العجوز لم يسخر مني.

شعرت بالغيرة والغضب، فلا يحق له الحديث عن زوجتي بهذه الطريقة حتى لو كان أعمى، كان ردي سيكون قاسياً، لكن اعتذاره سبقني فتراجعت وعدنا للعمل.

مر أسبوع برفقة الأعمى الذي لا يتوقف عن المزاح والسخرية، كنت أراقب كل حركة تدور حولي ولم يحدث ما يثير الريبة، وحين كنت أذهب لمتاجر القرية تردد على مسامعي أن أهل القرية يقولون إن الأجنبية تعبد الشيطان، لم تجد الإشاعات الجديدة مكاناً لها في عقلي، فلا شيء تقوم به عمرة يشير إلى هذا، وفي إحدى المرات صادفني أحد الأقارب وكان صريحاً معي إلى أبعد الحدود، تحدثنا عن الضرير الذي صادفه الكثيرون في طريقه للخربة كل صباح، وسألني:

- ما الحاجة ليتظاهر الرجل بأنه ضرير وكل من صادفه يؤكد أنه يرى، وإن كان ضريراً فعلاً فأي عمل يقدر عليه ويعجز المبصرون عن أدائه، وما الذي يدفع امرأة لبناء مثل هذا البيت بنفسها...؟

كان قريبي ماهراً في طرح عشرات الأسئلة نيابة عن أهل القرية وكنت فاشلاً في الرد عليها. عدت إلى الخربة وتساءلت هل يعقل أن عمرة من عبدة الشيطان وأن البيت الذي تبنيه سيكون معبداً له، أفكار مجنونة استحوذت على تفكيري ولم يكن هناك من أشاركه إياها، وخاصة أن سعيد في رحلة عمل لن يعود منها قبل شهر فقررت أن أنتظر عودته لعلي أجد الإجابة عنده. منعت نفسي من الإقدام على أي خطوة متهورة تكون سبباً في خسارتي كل شيء وخاصة إن تبين أن عمرة بريئة من هذا الجنون. راقبت وصبرت 30 يوماً من العمل الشاق وصار للبيت جدران بارتفاع متر ونصف المتر وأصبح العمل أكثر صعوبة وبطئاً، ففي اليوم الواحد كنا بالكاد نتمكن من إضافة عشرة أحجار، عندها قررت عمرة أن تحولني من مساعد بناء إلى مزارع، فأخذت أذهب وأحضر لها الأشتال وأساعدها على زراعتها في الأماكن التي خلت من الحجارة حتى جاء اليوم الذي كاد يفقدني اتزاني.

عدت في ذلك اليوم فلم أجد أي أثر لعمرة والضرير، انتظرت عودتهما أكثر من ساعة وفجأة رأيتهما يخرجان من البيت مغبرين أكثر من العادة فأخذت أتساءل كيف ظهرا من العدم، ارتفاع جدران البيت لم تتجاوز المتر ونصف المتر، وإن كانت بعض جوانبها قادرة على حجب عمرة متوسطة الطول فيستحيل أن تحجب الضرير فارع الطول حتى لو كان جالساً، وكنت قد بحثت عنهما قبل ظهورهما المفاجئ، فسألتها:

- أين كنتما؟
- كنا بالبيت؟

لو لم أسأل وتجب لوجدت عشرات الأجوبة الأكثر إقناعاً، فكل الاحتمالات واردة إلا جوابها. سألت نفسي وإن افترضت أنهما كانا جالسين وحجبتهما الجدران ولم أراهما فماذا كانا يفعلان؟! شعرت بغيرة اختلاء الضرير بزوجتي وأخذني خيالي للكثير من الصور وفضلت أن أتبنى أفكاراً أكثر جنوناً مثل عبادة الشيطان لأنها أقل قسوة من خيانتها لي مع الأعمى، هذا البيت مسحور وزوجتي والضرير من عبدة الشيطان فلا تفسير آخر لكل الغرابة التي تدور في هذا البيت، التصقت الفكرة بعقلي وما عدت قادراً على خلعها أو استبدالها حتى أخذت تترسخ وتتفرع، وما عادت ثروة جدها التي أوهمني بها سعيد تشغل بالي، وتركز هدفي حول كشف حقيقتهم والنجاة من نار جهنم، توضأت وصليت واستعنت بالله أن يمدني بالقوة وإن صحت ظنوني فسأهدم هذا البيت فوق رأسهما، جاريتهما لأيام أخرى، ومع هذا لم أمنع نفسي من الحديث، ووجدت في استراحة الغداء فرصة وسألت الضرير:

– هل تؤمن بوجود الله؟

رد عليّ بنبرة حزينة:

– لا أعلم يا صديقي، هذا السؤال ما زال يؤرقني، وأنا ما زلت متأرجحاً بين الإيمان والإلحاد.

– هل تؤمن بالشيطان إذن؟؟

ضحك بأعلى صوته وقال:

- سؤالك هذا أعادني إلى بداية معرفتي بصديقي العجوز قبل سنوات، سألته السؤال نفسه، فأجاب "إن آمنت بوجود الشيطان فهذا سيقربني إلى الله، فأي أحمق يترك الملك ويتبع عبده؟!"

علقت عمرة:

- ألا تؤمن أنت يا حسان؟ لماذا تسأل؟
- أستغفر الله، إيماني بالله راسخ لم يتزحزح يوماً، وأنت يا عمرة، هل تؤمنين به؟
- نعم، أنا أؤمن أن هذا الكون لن يكون دون خالق، وكل منا يعبده بطريقته وأنا أحب طريقتك في عبادته يا حسان.

أسرعت بالانتقال إلى موضوع آخر وسألتها إن كان علينا أن نحضر خزان ماء إضافياً، فري الأشتال سيستهلك الكثير من الماء، فقالت إنها تفضل أن نركز حالياً على بناء الجدار الغربي بالكامل لنفسح المجال لإزالة الأتربة والكشف عن البئر، وعندها لن نعود بحاجة للماء.

لم أشعر بالراحة لتهربي من مواصلة الحديث بهذه الطريقة، كان عليّ أن أحفر عميقاً في أسئلتي. الأعمى اعترف بإلحاده وجواب عمرة زادني حيرة، فربما قصدت الشيطان بخالق الكون، لا أظن ذلك وهي من نبهتني أكثر من مرة إلى موعد الصلاة، كانت بارعة بمعرفة الوقت عبر حركة الشمس، مثلما برعت بالكثير من الأمور، رائحة الشيطان لا تفوح منها، ومع هذا في مكان ما من نفسي أردت أن أتمسك بهذه الفكرة، ربما كنت أبحث عن طريق للهرب منها دون أن أتألم على

خسارة الثروة المنتظرة وما أهدرته من وقت، ركزنا جهودنا وانتهينا من بناء الجدار الغربي كما خططت وساعدتها بإغلاق الفتحات بين الحجارة بالطين، وأعلنت أنه لن يعيقنا الآن شيء عن الكشف عن موقع البئر، تعاونا أنا والأعمى وأزلنا طبقة من التراب يزيد ارتفاعها على نصف متر فظهر عنق البئر، واصلنا التنظيف حوله ساعات وانبهرت حينما تبين أننا نقف فوق صخرة عملاقة متماسكة لم يحدث فيها شرخ، وعمق البئر واتساعها أثار بداخلي الكثير من التساؤلات، هل هي من صنيع الجن أم البشر؟! كان يستحيل على أي بشر أن يخمن بوجودها، وعمرة قادتنا إليها ولم تشك للحظة بوجودها، هل أحتاج إلى أكثر من هذا الدليل على أنها تتواصل مع الجن أو الشياطين؟! نفضت الغبار عني، توضأت وصليت، وابتعدت عن أرض الخربة، وقررت ألا أعود إليها حتى أتخذ قراري، ذهبت إلى بيت سعيد لأفرغ غضبي فيه فلم أجده وفي طريقي صادفته، كان التوتر بادياً على ملامحي فطلب أن أرافقه إلى إحدى المقاهي القريبة، حاول أن يمتص غضبي ويعيد عليّ قصصه حول انتهاز الفرص وبدأ حديثه قائلاً:

- حينما كنت صغيراً يا حسان...

قاطعته على الفور وقلت:

- حينما كنت صغيراً يا سعيد لم تضطر للزواج من أجنبية لا تبتسم، لم تعادِ أهلك وتسكن في خيمة في خربة الجن!! وتعمل ليل نهار في تنظيف الحجارة ونقلها من مكان إلى آخر!! وأمجادك في الماضي ما عادت تثير فضولي! وعدتني أن عمرة تختبرني في جمع الحجارة، وأنها لن تحتمل

الحياة القاسية، وصبرت، أقنعتني بأن عليّ مساعدتها حتى تنتهي من بناء البيت لتأخذني معها لبلادها وتفخر بهذا الإنجاز، وأن الأمر سهل فهي تملك الكثير من المال وستوفر الكثير من الأيدي العاملة ولن يستغرق بناؤه أكثر من شهر...

قاطعني:

- لم أكذب عليك، وليس ذنبي إن اخترتما مقاولاً فاشلاً لبناء البيت، في هذه الأيام يتم بناء مبان ضخمة في شهر وأقل.
- المقاول الذي يبني البيت بارع ويعرف أين يجب أن يكون كل حجر، والحجارة بالنسبة إليه مقدسة، ولا يبالي لو استغرق وضع الحجر في موضعه ساعة أو أكثر.
- أرجوك، لا تلمح إلى أن عمرة تقوم ببناء البيت بنفسها.
- وأنا أرجوك ألا تتحاذق، فأنت تعرف أكثر من غيرك أنها ستقوم ببناء البيت بنفسها ولن تسمح لأحد بخدش حجارتها.
- أقسم أنه لم يخطر ببالي أن هذه المرأة الناعمة الرقيقة قادرة على القيام بما هو أكثر من تنظيف الحجارة، وكنت على يقين بأن مقاولاً سيبني البيت تحت إشرافها.
- كان عليك أن تراها وهي تستيقظ كل صباح وتشعل النار وتعد الطعام وترتدي الكفوف وتشرع في البناء، لتعرف حينها كم هي ناعمة ورقيقة يا سعيد! إنها أصلب وأقسى منا نحن الاثنين!

ربت على كتفي وقال:

- اصبر قليلاً وأنا أعدك بإيجاد طريقة لإقناعها بتوظيف الأيدي العاملة اللازمة لإتمام هذه المهمة والآن أخبرني أين وصلتما في بناء البيت؟؟
- إن بقينا على هذه الوتيرة فسنحتاج إلى عام وربما إلى عدة أعوام، وأنا لم آت للحديث معك حول البيت. عليك أن تصارحني بقصة هذه المرأة، من تكون؟ وما حكايتها مع هذا البيت؟ وأرجوك ألا تحاول أن تعيد على مسامعي أي كلمة لها علاقة بالاعتماد على الذات أو اختباري، لأن ما أشهده كل يوم يناقض ما حشوت رأسي به، هذه المرأة لا تبني بيتاً لترحل عنه يوماً!

فرك عينيه ليتحاشى النظر في عيني، وانتظرت أن يحك رأسه ليخرج منه كذبة جديدة لكنه لم يفعل، ثم قال:

- لا شيء لأزيده على ما أخبرتك به سابقاً، وأعترف بأني متفاجئ كثيراً، ومع هذا تعال لنفكر معاً بالمنطق، ما الذي ستخسره من إعادة بناء بيت سيرفع من قيمة الأرض التي تملكها أنت، انظر إلى الأمور بإيجابية وستكتشف أنك الرابح الوحيد في نهاية الأمر.
- وما فائدة ما سأربحه في دنياي إن خسرت آخرتي؟! فكل ما يدور حولي يزيد يقيني بأن زوجتي من عبدة الشيطان ولا أستبعد عنك ذلك أيضاً.
- عمرة من عبدة الشيطان؟! أقسم أن الشيطان نفسه يخاف منها! ما الذي أوصلك إلى هذا الاستنتاج الغبي يا حسان؟

- خربة الجن التي لم نسمع يوماً بأنه كان عليها بيت بهذا الحجم وبئر الماء التي لم يعرف أحد بوجودها غير عمرة، والرجل الذي يرى ولا يرى، واختفاؤها وظهورها المفاجئ، وتحدثها ليلاً مع شخص لا أراه وإن بدأت بتعداد الغرائب فلن أنتهي حتى الغد!
- يا حسان، فكر بعقلك قليلاً، لقد رأيت الحجارة التي دلت على وجود بيت وهذا ليس بالأمر العجيب، ففي بلادنا آلاف البيوت المهدمة، وكل بيت قديم كان بالإمكان توقع وجود بئر ماء بجواره، وصدقني، عمرة ليست أكثر من أجنبية رأت الحجارة وأغرمت بها، وانجرفت وراء فكرة إعادة البيت إلى ما كان عليه، وأنت ترعرعت منذ صغرك على قصص خربة الجن وهذا ترك تأثيره فيك.
- لا يا سعيد، عمرة والبيت وراءهما قصة كبيرة.
- سأجاريك يا حسان فيما تقول، لنفترض أنها فعلاً تعرف البيت، وأن لها أهدافاً أخرى، فكر معي، أليس هناك احتمال أنها تبحث عن كنز عظيم أكبر من هراء الشياطين، ولو كنت مكانك لساعدتها على إيجاده وأخذت نصيبي، فكر بعقلك لا بعواطفك والنتيجة النهائية ستصب في مصلحتك أنت فقط.

سعيد فقد سحره، وما عادت قصصه المعسولة تلاقي عندي الرغبة في تذوقها، انزاحت الغشاوة عن عيني وأخذت أراه على حقيقته، خبيث، ماكر، مخادع، كافر وكاذب... ما عدت قادراً على تصديق أي شيء يقوله، لا وجود لثروة ورفاهية،

ولن تكون يوماً، أنا أعيش حياة البداوة مع زوجة أشبه بتمثال حجري تخلو من أي تعبير، وحتماً تخطط لتجرني خلفها للإشراك بالله، وعليّ أن أختار سريعاً بين شراء أوهام ستقودني لمعصية الله، أو أن أشتري آخرتي، وكان القرار أن أطلقها وأطردها من خربة الجن وإن استدعى الأمر سأهدم ما تم بناؤه، وما دام الله بجانبي فلن أخشى الجن والشياطين، قررت أن أطوي هذه الصفحة السوداء وما كان لقوى العالم أن تثنيني عن تنفيذ ما عزمت عليه.

لم أتنبأ أن اليوم الذي حزمت فيه أمري على الخلاص منها، كان هناك من خطط وتطوع للقيام بالمهمة نيابة عني، وصلت إلى الخربة فلم أجدها كما تركتها ظهر اليوم، الخيمة مخلوعة والأشتال مقلوعة، وأغراضنا مبعثرة لا أثر لعمرة والأعمى.

الآثار تدل على أن هناك مجموعة لا يقل عددها عن خمسة أفراد قامت بهذا التخريب، لم أكن بحاجة إلى أن أخمن أن هذا الخراب من فعل شقيقي وأقاربي، فقد وصل إلى مسامعي أكثر من مرة أنهم سيقومون بذلك عاجلاً أم آجلاً، لو صبروا يوماً واحداً لما تكبدوا هذا العناء، توقيتهم كان سيئاً فقد استفز رجولتي، هذه أرضي والخيمة بيتي، وعمرة حتى لو كانت الشيطان بحد ذاته فهي على ذمتي، والأعمى ضيفي، والأشتال زرعتها ورويتها من عرق جبيني، لقد انتهكوا كل المحرمات وخدشوا كرامتي لتنزف غضباً، صرخت وشتمت وانطلقت ثائراً سعياً للانتقام، وقبل أن أبتعد سمعت صوت عمرة ينادي عليّ، عدت إليها ورأيت آثار دماء على وجهها، شعرت بوخز سكين غرزه أحدهم في قلبي، فسألتها عما حدث فقالت:

– لقد جاء الغرباء وضربوا الضرير وطردوه وخربوا الخيمة واقتلعوا الأشتال وحاولوا هدم الحجارة، وحين حاولت أن أمنعهم قامت امرأة غريبة برفقتهم بضربي فهربت منهم واختبأت.

تلك اللحظة لم أرَ إلا زوجة تمثل عرضي وشرفي تم الاعتداء عليها في غيابي، فاشتد غضبي وأخذت أهدد وأتوعد وأشتم مستخدماً كل الألفاظ السوقية، إلى أن استوقفتني عمرة الخالية من أي تعبير وهي تقول:

– حسن ألفاظك يا حسان، ليس من اللائق استخدام هذه الألفاظ.

هدوؤها استفزني، فأخذت أشير إلى الخراب الذي أحدثوه وسألتها إن كانت ألفاظي هي ما يشغل بالها، اقتربت مني وأمسكت بكفي وشدت عليه فشعرت بطاقة غريبة تنتقل منها وتسري في جسدي كتيار كهرباء، طلبت مني الجلوس وأخذت تهدئني وتطمئنني على البيت، وكأن هذا ما يشغل بالي:

– اهدأ، بإمكاننا تعويض كل ما خربوه ومن حسن حظنا أنهم لم يتمكنوا من هدم الكثير من الحجارة.

لم تترك كفي وكلما شعرت بالتوتر كانت تشد عليه وترخيه فيتلاشى التوتر وسألتها:

– كيف هربت منهم وأين كنت فقد بحثت ولم أجد لك أثرا؟!

– هذا بيتي وأعرف كل الزوايا فيه، وقد اعتدنا على اعتداءات الغرباء والاختباء منهم والخروج بعد رحيلهم.

لم يكن فيما قالته منطق فلا مكان للاختباء، طلبت منها أن تريني أين اختبأت فواصلت الضغط على كفي وجرتني خلفها إلى جوار أحد الجدران التي لم يتمكن أقاربي الأبطال من هدمه وبلسان طفلة أخذت ترشدني ما الذي يجب عليّ أن أفعله إن هجم الغرباء فجأة:

– قف على هذه البلاطة واحرص أن تنظر بكل الاتجاهات لتتأكد ألا أحد يراك وبعد ذلك ضع قدمك اليمنى على البلاطة الثانية واترك اليسرى مكانها، قرفص واضغط بكفك على الحجر الآخر وسينفتح الباب.

جاريتها واضعاً قدمي اليمنى حيث طلبت وقبل أن أقرفص قالت:

– لا، هذه طريقة خاطئة، عليك أن تتأكد أولاً من ألا أحد يراقبك!

جاريتها والتفت وفعلت ما طلبت، وفجأة انزاحت بلاطة بقدرة قادر، وظهر سلم حديدي، فأخذت تحثني على الإسراع بالاختباء قبل أن يكتشف أحد المكان، جاريتها ونزلنا باستخدام السلم إلى الأسفل فانغلقت البلاطة من تلقاء نفسها وغرقنا بالعتمة لثوانٍ قبل أن تضيء مصباحاً يدوياً يعمل على البطاريات، أخذت تهمس بأذني بحرص حتى يسمعها أحد:

– اثبت مكانك ولا تصدر أي ضجة وحاول أن تصغي للأصوات في الأعلى لتتأكد من أن الغرباء لم يكتشفوا المدخل.

جاريتها بلعبة مطاردة الغرباء الوهمية وكل ما كنت أخشاه هو سكان هذا المكان، ولأساعد نفسي على طرد الخوف سألتها:

– وإن اكتشفوا المدخل ماذا ستفعلين؟

- سيقومون بتحطيم البلاطة ليصلوا إلينا وهذا سيأخذ منهم ساعة أو أكثر وعلينا أن نتنفس بهدوء حتى لا ندخل في حالة من الإرباك، وبعدها نقترب من الجدار وننظر إليه نتذكر الخطوات التي يجب أن نقوم بها لفتح البوابة الثانية نقوم بالعد من رقم واحد إلى عشرة ونعيد العد من عشرة إلى واحد نتنفس بهدوء، ولا نترك الأصوات القادمة من الأعلى تربكنا، نقترب ونضغط على الحجر المفلطح، نعود عدة خطوات إلى الخلف، نعد الحجارة المفلطحة من اليمين إلى اليسار ونضغط على الحجر الثالث والخامس والثامن، وحين ينفتح الباب لا ندخله قبل أن نتأكد من أننا لم نترك أي أثر يدل علينا، وإن فعلنا هذا بالطريقة الصحيحة، يستحيل على الغرباء إن وجدوا المخبأ الأول أن يشكوا في أنه يوصل إلى مكان آخر.

أنا بنفسي أشك في أن هذا الجدار القديم يخفي خلفه أي شيء، وكل ما أردته هو الخروج بسرعة ولكن الفضول دفعني لأرى إن كان هناك باب خفي فعلاً، طلبت منها أن تفتح الباب، فلا غرباء يطاردونا، وبالإمكان اختصار كل هذه التعليمات التي لا جدوى منها، فأخذت تشرح لي أن تكرار الطرق الصحيحة هو ما يرسخها بذاكرتنا والإهمال في وقت الرخاء قد يتسبب بمقتلنا وقت الشدة والباب الثاني لا يمنحنا إلا فرصة واحدة لفتحه، فإن أخطأنا سنعلق بهذه الغرفة، وحينها سيصل الغرباء إلينا ويقتلونا.

أخبرتها ألا أحد سيقتل أحداً، ولن يكون هناك حاجة للاختباء، ولكنها أصرت على أن ألتزم التعليمات بدقة متناهية، محذرة من أن الارتباك والخوف قد يدفعنا إلى أن ننسى ونترك آثاراً خلفنا... فعلت ما طلبت والطريقة التي تحركت بها الحجارة والسرداب الذي ظهر خلف الجدار أربكني وأعاد إلى ذهني كل القصص التي سمعتها عن خربة الجن في صغري، دلفت عبر الباب فطلبت أن أسرع بالدخول، لحقت بها وانغلق الباب بطريقة عجيبة، ارتعبت وتجمدت مكاني ولم أجرؤ على أن أكتشف إلى أين قد يوصلنا هذا السرداب، فطلبت منها أن نخرج فوراً لأني أشعر بالاختناق، طمأنتني إلى أن هناك منافذ كثيرة للهواء، قاطعتها وأصررت على الخروج، فردت إن هذا مستحيل قبل مرور نصف ساعة لأننا لم ندخل إلى هنا من قبو المنزل، وسألتها وهل لهذا المنزل قبو سري أيضاً، فردت:

- القبو ليس سرياً، إنه مكان لتخزين المؤن ولكن فيه بوابة سرية تسمح بدخولنا إلى أجزاء أسفل البيت والخروج في أي وقت دون الحاجة للانتظار، وحينما سننتهي من بناء النصف الشرقي للبيت، سنعمل على فتحه وتنظيفه لنستخدمه لتخزين ما نحتاج إليه.
- وهل هناك أماكن سرية غير الغرفة والسرداب الذي أراه؟
- بيتنا أكبر مما يظهر عليه من الأعلى، وإن رغبت فسأصحبك بجولة لمشاهدة الأجزاء التي يسمح لنا بالوصول إليها.
- سنفعل ذلك لاحقاً وحالياً أحتاج فقط لاستنشاق الهواء.
- انتظر قليلاً وسنتمكن من فتح الباب والخروج.

لم أفهم من يقرر خروجنا ولماذا علينا انتظار كل هذا، فسألتها:

- كيف تعرفين كل هذا عن البيت؟
- لقد أخبرتك سابقاً، هذا بيت عائلتي وأنا عشت فيه.

معها حق لقد كررت ذلك على مسامعي كثيراً واعتقدت أنها مجرد كلمات اعتاد الجميع على استخدامها لدى زيارة مكان أو التقاء شخص والإحساس بأنه مألوف، رددت في سري ما تيسر من آيات في انتظار أن يسمح لنا بالخروج، وبعد مضي وقت قالت إنه حان الوقت للخروج ولكن قبل هذا علينا أن نحبس أنفاسنا ونصغي جيداً إن كان هناك أي صوت مشبوه يصدر من الأعلى.

- يا عمرة، لا أحد يطاردنا فكفي عن هذه اللعبة أرجوك، ودليني كيف نخرج بسرعة.
- أنا أعلم ذلك يا حسان، ولكن عليك الاعتياد على ذلك، تكرار الأمر والتدريب يرسخه في ذاكرتك والخطر قد يفاجئنا على حين غرة.

جاريتها في التزامها الحذر، وضغطت على عدة حجارة فانفتح الباب الأول وخرجنا من السرداب إلى الغرفة الأولى، فحركت مقبض حديد، وعلى أثره انزاحت البلاطة وانفتح المدخل، تبدد خوفي بعد أن وصلت السطح بسلام، كل شيء يحيط بهذا المكان اكتسى بالغموض، لكني لا أشعر بأن عمرة تسعى لتخفي أي شيء، وأتساءل من تكون، وكيف تعرف كل هذا! أكاد أجزم أنها عاشت في هذا البيت فعلاً وتعرف عنه ما لم يعرفه أو يكتشفه أحد عبر مئات السنين.

لو كانت ساحرة أو جنية لدافعت عن نفسها ولم تهرب لتختبئ! لو كانت من عبدة الشيطان لامتلكت قوة ما تمكنها من حماية نفسها وما كشفت لي أسرار هذا البيت، تذكرت ما قاله الضرير، الأسئلة ستزيد ولن تقل، اسألها وستحصل على أجوبتك، وأي سؤال سيأتي لي بجواب منطقي، وكيف أضمن أن هذا ليس من فعل الشياطين وإن تعمقت فيه فلن يقودني إلى الإشراك بالله، كان عليّ أن أواجه القلق والخوف والحيرة، ومن لم يكن الله في عونه فلا ناصر له!

توضأت وصليت ودعوت الله أن يثبت قلبي على الإيمان وأن يرشدني لفعل الصواب، وحين انتهيت، رأيت عمرة تجمع الأغراض المتناثرة هنا وهناك، أشفقت عليها وقررت أن أحسم الأمور على طريقة أجدادي وأن أترك كتاب الله يرشدني إلى حقيقة هذه المرأة، فإن كانت من عبدة الشيطان كما أشاع عنها أهل قريتي وأقاربي فالقرآن سيكشفها على حقيقتها، أو يبرئها من هذه التهمة، وأخذت أبحث عن كتاب الله فلم أجده فاعتقدت أن أقاربي الأبطال بعد أن عاثوا في أرضي فساداً قد أخذوه معهم. لاحظتْ أني منشغل بالبحث فسألتني عما يشغلني فأخبرتها أني أبحث عن القرآن، فارتعبتُ حين قالت:

- لقد أبعدته من هنا.
- ولماذا أبعدته؟ هل يزعجك بشيء يا عمرة؟

وكعادتها بلا أي تعبير قالت:

- هل تريد أن أحضره لك؟
- نعم، أحضريه، فلا أريد أن يكون بعيداً عني.

ذهبت وعادت تحمل القرآن الكريم ملفوفاً بقطعة قماش داخل كيس من النايلون وكأنها تخشى أن تلمسه مباشرة فسألتها:

– لماذا تخشين القرآن لتخفينه بهذه الطريقة؟!

– أنت علمتني أن هذا كتابك المقدس ولا يجوز تركه في أي مكان غير طاهر؛ لهذا حرصت على لفه ووضعه في مكان نظيف.

يا إلهي، كيف يمكن لي أن أفهم طريقة تفكير هذه المرأة! فما فعلته يزيدني حيرة ولا أذكر أني يوماً حرصت على كتاب الله كحرصها هذا! ومع هذا كان عليّ أن أحسم الأمر لكي يطمئن قلبي، طلبت أن تخرج القرآن وتحمله بين يديها، لم تفعل، ألقته ملفوفاً بين يدي وابتعدت!! استحال عليّ قراءة لغة جسدها لأجد تفسيراً لهذا سوى رفضها وخوفها من ذلك فخاب أملي كثيراً، لم تمض دقائق حتى عادت وجلست بجانبي وأخذت القرآن من بين يدي وقالت:

– منذ زمن أردت أن أطلب منك أن تحكي لي ما كتب فيه، ولكني ترددت خشية أن يكون ذلك غير مسموح ويزعجك طلبي.

لم أجبها، لأن عقلي كان مشغولاً في فهم الأسباب التي دفعتها لرفض حمله حين طلبت وموافقتها بعد ذلك فسألتها عن السبب:

– أنت أخبرتني في السابق أنه لا يجوز حمل كتابك المقدس وأيدينا متسخة فذهبت لأغسلها وعدت.

قفزت من عيني دمعة وقلت لها:

- لا أحتاج شيئاً في هذا الوقت أكثر من أن أسمع لسانك ينطق بآيات الله ليطمئن قلبي أكثر، اقرئي منه يا عمرة، أرجوك.
- أنا لا أجيد قراءة العربية يا حسان وأتمنى أن أتعلمها لأنها ستكون لغة أبنائي.

أخذت أقرأ ما تيسر من آياته الكريمة وطلبت منها أن ترددها خلفي ففعلت واغرورقت عيني بالدموع:

- صدق الله العظيم.

أغلقت كتاب الله وقلت لها ولنفسي أقسم بكتاب الله، أنك أطهر وأصدق منا جميعاً وتجرأت للمرة الأولى وحضنتها فسقطت قبعتها الكبيرة عن رأسها فرأيت الجرح والدماء، فثار جنوني وفقدت وعيي، وكالمجنون أخذت أبحث بين أغراضنا المتناثرة حتى وجدت سكيناً فحملتها. لحقت بي وأمسكت بذراعي:

- ماذا ستفعل يا حسان؟
- سأجعلهم يدفعون ثمن ما فعلوه بك يا عمرة.
- لا يا حسان، الغرباء يأتون ويذهبون، وإن قتلت أحدهم فسيعودون للانتقام منا، وعليك أن تتعلم كيف تتجاهلهم.
- الغرباء الذين تتحدثين عنهم هم عائلتي، وأي رجل سأكون إن لم أحم زوجتي.
- أنت عائلتي يا حسان، والبيت سيحمينا.

تشبثت بذراعي وحين حاولت دفعها عانقتني بقوة ولم تتركني، حتى قطعت لها وعداً أن أنسى ما حدث وألا أذهب إليهم بدافع الانتقام، ذلك العناق قلب كل شيء في حياتي فقد اجتاحتني مشاعر غريبة اتجاهها وأخذت أنظر إليها بطريقة مختلفة، لا علاقة لها بثروة جدها، لا أشك في أنها امرأة صالحة على الرغم من أفكارها الغريبة، فقد وصلت إلى نتيجة مفادها أن أسفل البيت "جن صُلاح"، وربما هم من أخبروها بما تعرفه عن البيت، لهذا لا يتعرضون لنا بأذية، ولا يتدخلون بشؤوننا، وعلينا أن نفعل المثل لنعيش معاً بسلام.

عمرة ما كانت لتهدر وقتها، وبسرعة أعدنا تنظيم حياتنا وتعويض ما خسرناه من الهجوم، وعاد الضرير في اليوم الثاني ليساعدنا وكأن شيء لم يحدث، مرت الأيام وبيت عمرة بدأت ملامحه تظهر والأشتال تكبر، احتفلنا بالغرفة الأولى التي أتممنا بناءها وانتقلنا للسكن فيها، وجاء التغير الثاني في حياتي حينما جاءتني عمرة بخبر عظيم، لم تبتسم، لم تلمع عيناها، لم تتحرك عضلات وجهها، وبكل بساطة قالت:

– لقد نمت بذروك يا حسان، وأسرتنا ستكبر.

يا إلهي، إنها تخبرني أنها حامل، دق قلبي وارتجفت، والعالم لم يتسع لفرحتي، سيكون لي ابن وسألتها:

– ألا يفرحك هذا الخبر؟ ابتسمي أرجوكِ.

– أنا فرحة وسعيدة وأحلامي تتحقق، سيكون لي أسرة ونعيش في بيتنا.

ويعفوية أمسكت بخديها وأخذت أمازحها:

- أرجوك دعي عضلات وجهك تعبر عن فرحتك، اتركيني أرى ابتسامتك لمرة واحدة فقط، أعيدي المشهد قولي لي "أنا حامل يا حبيبي" هيا أرجوكِ.
- أنا حامل يا حبيبي.

ولم تتحرك أي عضلة بوجهها ولكني رأيت السعادة في عينيها أو ربما ما رأيته هو انعكاس لفرحتي في عينيها، اكتفيت بعد أيام بفرحة خديجة حينما زرناها وزفت لها عمرة الخبر، أما سعيد فقد شعرت بأنه سيقفز عن الأرض هو الآخر من شدة الفرحة وكأنه هو من سيرزق بطفل.

"أين خديجة يا سعيد؟ أريد أن أخبرها أني حامل!" كاد يغشى عليّ من الفرحة وشعرت وكأني والد هذا الطفل، كانت زيارتها لنا برفقة حسان مفاجأة بعد انقطاع دام شهوراً، كنت قد هيأت نفسي لأخبار كارثية ستأتيني في أي لحظة وخاصة بعد لقائي الأخير مع حسان والأفكار الغريبة التي حدثني بها، لم أجرؤ أن أفكر بما سيخطر ببال هذا الشاب، وهل سيطلقها أم يطردها لتعود إلي مرة ثانية، لأفي بوعدي وأساعدها على إيجاد طريقة لبناء البيت لتحررني من ديني للعجوز، عمرة حامل وحَملها أزاح حِملاً ثقيلاً عن كاهلي، بدأت أشعر بالتحرر وتبدد خوفي وعانقت حسان مهنئاً.

منذ دخل هذا الشاب بيتي خلف عمرة قبل ثمانية أشهر لم أره بهذه الفرحة، وتساءلت إن روضته عمرة وأخرجت من رأسه الأوهام التي زرعتها فيه بأنها حفيدة جد ثري، وهراء الشيطان والسحر الذي تداوله أهل قريته حولها؟! أم أنه وجد كنزاً فعلاً تحت ركام ذلك البيت وغير حياته؟! وأستبعد فكرة أن يكون العجوز قد زاره، لأن ذلك لو حدث فما كان ليبتسم، طلبت منه مرافقتي لشراء الحلويات بناء على طلب خديجة، فهي لن تسمح لمثل هذا المناسبة أن تمر دون احتفال، في طريقنا سألته في أي مرحلة وصلا في بناء البيت، وكان رده مفاجئاً وجافاً، لم يقل بيت عمرة بل قال سننتهي من بناء بيتنا في يوم من الأيام، وكل أسئلتي كان يرد عليها باختصار شديد، لم أصدق أن هذا الشاب الذي كنت أتلاعب به كما أريد وأغرقته بالأحلام يتجاهلني، وكأنه يريد أن يقول لي هذا أمر لا يعنيك، شعرت بأنه حتى لا يرغب بمرافقتي.

لَمْ أرغب بمرافقة سعيد، كان عليّ ذلك، بعد أن شعرت بأن خديجة بحاجة للاختلاء بعمرة بعيداً عنا، نعم لقد اكتشفت أن هذا الرجل كان يتلاعب بي منذ لقائنا الأول، لا شيء يؤلم أكثر من إحساس المرء بأنه كان ساذجاً ويصدق كل ما يقال له، ومع هذا كنت متصالحاً مع ذاتي، فزوجتي لم تكذب عليّ حتى لمرة واحدة، ولم تفكر للحظة واحدة بأنها مضطرة لإخفاء أي شيء عني، كانت أكثر نقاء من الثلج، ووضوحاً من الشمس، وخطأي أني لم أسمع نصيحة الأعمى حينما قال إن مَن مثل عمرة لا تخفي أسراراً عن زوجها، فاسألها واحصل على أجوبتك، وحين سألت لم تفكر مرتين بالإجابة عن أي سؤال مهما كان، ومنها عرفت أن سعيد الثعلب نشأ على الخداع والكذب، وكل ما قدمه من مساعدة كان مقابل سداده ديناً قديماً، لم أعد أهتم بالتفاصيل فكل شيء أصبح من الماضي ويكفيني حاضري، عمرة والبيت وابننا القادم.

تناولنا الحلويات وأجبرنا عمرة على تناول قطعة صغيرة، خطوة واحدة تفصلنا عن المغادرة ولو فعلنا لانتهى كل شيء على خير، ولكن سؤالاً خاطفاً من خديجة الطيبة لعمرة الصريحة قلب كل شيء رأساً على عقب:

– من يساعدك في بناء البيت يا عمرة؟

– يساعدني الرجل الضرير، شقيق زوجك الأصغر.

– سعيد وحيد لا أشقاء له يا عمرة!

تنظر عمرة باتجاه سعيد وتسأله:

- ألم تخبر زوجتك أن لك شقيقاً أصغر منك وهو ضرير؟ وهل هذا سر لتخفيه عنها؟

خديجة وأنا في حالة من الصدمة، فهي لم تعرف أن لزوجها شقيقاً، وأنا لم أعرف أن الضرير أخ هذا المخادع وسعيد أصابه الخرس فلم يعلق، تقترب خديجة من عمرة تمسك بذراعها وتقول:

- اجلسي يا عمرة، فأنت أدرى مني بزوجي وعائلته، فأخبريني عنهم والأهم هل هو متزوج أم يحب امرأة أخرى غيري؟
- لا، هو يحبك ولم يتزوج من قبلك ولا من بعدك.
- وهل والداه أستاذا جامعة ماتا وهو صغير؟؟ أخبريني الحقيقة.
- لم يحكِ لي جدي عن والدته لأنها ماتت وهو صغير، أما والده فقد كان يفوق أساتذة الجامعات بعلمه، واختار أن يعمل إسكافياً، ومات وهو يصلح أحذية الناس.

أخذت خديجة تهز رأسها وترمي سعيد بنظرات غامضة قائلة:

- رحمة الله على والدك، وهل مهنته تعيبك لتبقيها سراً عني؟! أليس من حق أبنائي أن يعلموا أن لهم عماً؟ أم أن كونه ضريراً يشعرك بالعار؟!!
- لا يا خديجة، لم أعرف أن لي شقيقاً إلا قبل سنوات فقط، وحاولت التواصل معه ولم ينجح الأمر.

تتجاهل خديجة ما قاله وتسأل عمرة:

- أخبريني هل وراء بيتنا قصة، لأن إصرار سعيد على أن نسكن فيه دوماً أثار ريبتي وإن كانت هناك أمور أخرى ما زلت أجهلها عن زوجي فأخبريني بها أرجوك.
- لا قصص وراء هذا البيت، لكن جدي حينما أقرضه النقود اشترط عليه أن يستعيد بيت والده ويسكن فيه.
- يا للروعة! أنا أسكن البيت الذي ترعرع فيه زوجي! لكني لا أفهم لما كان عليه شراؤه إن كان بيت والده؟ أرجوك احكِ لي يا عمرة.
- لقد اضطر والده إلى بيعه والانتقال إلى مدينة أخرى بعد أن سرق سعيد كل مدخراته وهرب، لهذا كان عليه أن يدفع ثمنه ليستعيده.
- زيديني يا عمرة زيديني مما لا أعرفه، واحك لي عن جدك وعلاقته بزوجي قليلاً.
- أعتذر منك فقد وعدت سعيد بتجنب الحديث عن جدي لكيلا يصيبك القلق.
- وهل هناك ما سيقلقني من جدك بعد كل القصص التي سمعتها اليوم؟
- لا يوجد شيء مقلق، ولكني سأتجنب الحديث حوله معك لأني وعدت سعيد بذلك.
- أتفهم أن عليك أن تحافظي على وعدك، فما رأيك أن تحكي لحسان عنه وهو بدوره يخبرني وهكذا تحافظين على وعدك؟
- إن سألني حسان عنه فسأخبره، فأنا لا أخفي شيئاً عن زوجي.

ابتهجت وأنا أراقب عمرة تشعل النار بثقاب صدقها وصراحتها في سعيد، دون أن يهتز لها رمش، وكُتب على جبينها بالأحرف العريضة "اسألوني فأجيب"، أشفقت على خديجة فهي امرأة طيبة متسامحة، وألحت عليّ أن أعرف قصة جد عمرة وأعود لإخبارها. تركناهما بسلام وقبل عودتنا إلى البيت طلبت مني أن آخذها في جولة لتتعرف على المتاجر التي تبيع الكتب، انتقت مجموعة من قصص الأطفال وكانت تطلب مني أن أشرح لها باختصار ما كتب في كل واحد منها فإن لم يعجبها تعيده إلى مكانه. أمضينا ساعة ونصف في شراء مجموعة من الكتب وربع ساعة مفاوضات مع البائع حول الثمن، وبعد أن عرفت أنها تحضرها سلفاً لأبنائها بالمستقبل سألتها:

- ألا تجدين الوقت مبكراً؟ وهناك الكثير من السنوات قبل أن يكبر ابننا ويتعلم القراءة؟!
- أنا اشتريتها لك أنت لتقرأها وحين يحين الوقت، ستجد أنك تملك الكثير من القصص لتحكيها لأبنائك، وليس علينا أن نهدر الوقت في انتظار تعلمهم القراءة ما دمنا قادرين على أن نوفر لهم ذلك فور اكتمال وعيهم، الوقت الذي يملكه الجسد قصير وعلينا أن نستغل كل دقيقة لتنمية وعي أرواح أبنائنا وثقافتهم.

وصلنا إلى بيتنا ولا وقت لنهدره في البناء أيضاً، ولكن هذه المرة كنت حريصاً على أن لا تقوم عمرة بأي عمل قد يؤثر على حملها، وعنادها بالإشراف على بناء كل حجر أرهقني أكثر من السابق، فتعلمت البناء بالطريقة الصعبة تحت مراقبة

وإشراف المعلم عمرة، ولم يعد الوقت يسير ببطء فما إن تشرق الشمس حتى تغيب، واقترينا كثيراً من تحقيق حلم عمرة، وفي أحد الأيام وأثناء جولة تسوق صادفنا أختي الصغيرة أمل في أحد المحال، فهمست بأذني وحذرتني من أن شقيقي الأكبر ينوي إحضار جرافة وهدم البيت وإنه قد يقوم بذلك في أي وقت، لم أشعر بالقلق كثيراً، فشقيقي قد اعتاد إطلاق التهديدات ولكنه نادراً ما ينفذ أياً منها، فأخفيت الأمر عن عمرة حتى لا أتسبب لها بذعر هي في غنىً عنه.

لم ينتبه حسان ولا أخته إلى أن عمرة كانت قريبة بما فيه الكفاية لتسمع ما دار بينهما من حديث، وفي اليوم الثاني اختفت عمرة في الوقت الذي كان حسان مشغولاً بأداء صلاة العصر وحين انتبه لغيابها، لم يشغل باله معتقداً أنها نزلت أسفل البيت لتنظيفه، وقد اعتاد هو على ذلك ولم يجرؤ يوماً على العودة إلى ذلك المكان بعد زيارته الأولى على الرغم من رغبته الشديدة.

عمرة كانت في طريقها إلى بيت عائلة حسان، ولم تجد صعوبة في الوصول إليه بعد السؤال، وكان في استقبالها الأخت الكبرى لحسان فرحبت بها بكلمات قاسية:

- هل بلغت بك الوقاحة المجيء إلى عقر دارنا أيتها الكافرة؟
- أنت المرأة التي رافقت الغرباء وشجت رأسي بحجر، وأنا أسامحك ولم آت لأتشاجر معك، وكل ما أريده هو التفاوض مع عائلة زوجي.

استهزأت بها أخت حسان، وطلبت من بعض الصبيان المناداة على شقيقها الأكبر، وسرعان ما انتشر خبر زيارة الأجنبية، وتجمع الكثير من أفراد العائلة على مدخل البيت، فاقترح أحد الأشقاء دخول المنزل، فاعترضت الكبيرة وقالت:

- بيت الحاج عزام طاهر لن تدخله هذه الكافرة.

فردت عليها عمرة:

- وكيف لا أكون كافرة وأدخل بيتكم؟

وصل الأخ الأكبر وبنبرة صوت زعيم يتحكم بأفراد قبيلته دعا الجميع إلى داخل البيت، سبقهم وجلس والتفوا من حوله، ولم يتوقفوا عن تفحص عمرة، ثم سألها:

- ماذا تريدين منا يا محترمة؟

- جئت لأفاوضكم لتركنا نعيش في بيتنا بسلام.

فرد عليّها بصوت مبحوح:

- كنا نعيش بسلام قبل مجيئك يا محترمة، والآن نحن حديث كل أهل القرية، فخذي كفرك وارحلي عنا.

- وماذا عليّ أن أفعل كي لا أكون كافرة؟ وتتركوني أعيش مع زوجي بسلام؟

وبعفوية بادر أحد الصبيان وبدا أنه قد استمع إلى الكثير من الأحاديث التي دارت حول الأجنبية الكافرة سابقاً فقال:

- قولي أشهد أن لا إله إلا الله

- فردت عليّه عمرة وكأنها تخاطب رجل راشداً:

- لقد قلت ذلك وأخفيت شعري حتى لا يراه أحد.

الأخت الكبرى تمسك بأذن الولد وتشدها ليفهم أنه لا يجوز له التدخل بحديث الكبار وتعلق:

- نطق الشهادتين وإخفاء شعرك لن يتستر على الكفر الذي تمارسينه في الخربة.
- علموني إذن ما الذي يجب ألا أفعله حتى لا أكون كافرة وأعيش بسلام.
- ابتعدي عن الخربة وعن شقيقنا واذهبي لعبادة الشيطان في مكان آخر.
- أنا لا أعبد الشيطان وبيتي وزوجي لن أبتعد عنهما، فهل هناك طريقة ثانية لا أكون فيها كافرة؟

الحديث يدور وما زالت عمرة واقفة، تهمس إحدى الشقيقات في أذن الكبرى وعلى أثر ذلك تسأل عمرة:

- هل أنت حبلى من أخي؟
- نعم أنا حبلى منه وسأنجب بعد خمسة أشهر.
- وكيف سنتأكد من أن ما تحملينه هو ابن حسان؟
- هي ابنته، ولا أعرف كيف تتأكدون؟
- كيف عرفت أنها أنثى وليست ذكراً؟
- الأم بإمكانها أن تعرف ما تحمله في أحشائها.

تستغفر الأخت الكبرى ربها، وتطلب من أحد الأولاد إحضار مقعد لتجلس عليه عمرة، يغتاظ الأخ الأكبر الذي يبدو أنه لم يلاحظ انتفاخ بطن عمرة ويقول:

- يا محترمة، خذي زوجك وارحلي عنا وأريحينا من كلام الناس.
- لا، لن أرحل عن بيتي حتى لو ضربتموني كل يوم، والآن إما أن تعلموني ماذا أفعل حتى ترضوا عني وتتركوني أعيش وعائلتي في سلام وإما.

نبرة صوتها الجادة المقرونة بخلو وجهها من أي تعبير أوحت لزعيم القبيلة أنها تهدد، فقاطعها قبل أن تنهي حديثها وسألها:

- وإلا ماذا يا محترمة؟؟
- علينا أن نتفاوض كم يجب أن أدفع لكم لتتركونا نعيش بسلام.
- لا نريد نقودك ارحلي عنا فقط.
- لن أرحل وعليك أن تفاوضني ما الذي علينا أن ندفعه مقابل أن تتوقفوا عن أذيتنا؟

أحد أشقاء حسان يتأثر بما قالته ويعلق متمرداً على شقيقه الأكبر:

- لن يؤذيك أحد يا زوجة أخي، عودي إلى بيتك بسلام!

تدور عمرة بعينها على كل الموجودين تتفحصهم وتخاطب الذي تمرد:

- أعتذر منك، ولكني أرى أن بينكم من يخطط ويفكر في أذيتنا، ولن أرحل قبل أن نتفاوض ونصل إلى اتفاق يبعد الأذى عنا.

يعلق أحد الأخوة لطمأنتها وتفعل الأمر ذاته إحدى الأخوات، وعلى إثر ذلك، تجول عيني الزعيم وتتفحص وجوه الحضور صغيراً وكبيراً ويستفزه حينما رأى الكثير من التعاطف مع عمرة الخالية من أي تعبير، فرفع صوته وصرخ في الجميع:

- اذهبوا لعبادة الشيطان معها وسأجد حلاً لهذه المهزلة، وأقسم أن أنظف الأرض من كفر حسان وزوجته.

ترد عمرة بهدوئها المعتاد:

- اذن أنت تدفعني لطلب المساعدة من جدي ليتفاوض معك؟

– وهل تهددين بجدك يا محترمة؟

– لم تترك لي خياراً آخر لأحمي أسرتي منك.

يشتد غضب الزعيم ويشعر بالرغبة في صفعها، ولكن العادات والتقاليد ومكانته تمنعه من فعل ذلك، فيختار أن يسرع بالخروج ليفرغ غضبه في مكان آخر، ويتبعه نصف الحضور.

استلمت الزعامة الأخت الكبرى التي كانت أشدهم تعصباً ضد عمرة في السابق، وحين علمت أنها حامل شعرت بتأنيب الضمير وتعاطفت معها، فأخذت تطمئنها إلى أن شقيقها الأكبر سريع الغضب ويستحيل عليه أن يؤذيها أو يؤذي شقيقه، فردت عليها عمرة:

– ولكني أخشى عليه أن يتأذى إن حاول هدم البيت، وعندها ستكرهنا زوجته وأبناؤه، وأنتم أيضاً، وسينمو الكره في القلوب، ولن يشعر أحد بالأمان.

طمأنها الحضور إلى أن لا شيء مما تفكر فيه قد يحدث، وشرحوا لها أن عليها أن تساعدهم على وضع حد للأقاويل، وأن عليها أن تبعد ذلك الرجل الغريب عن الخربة حتى لا يسيء الناس الظن بعلاقتها به، فردت بعفوية:

– إنه ضرير ولا يستطيع أن يرى شعري وحسان لم يعلمني أن هذا ممنوع.

امتلأ البيت بالضحك على الطريقة التي شرحت بها عمرة الأمر، وعادت إلى بيتها وما زال القلق يساورها من نوايا شقيق حسان الأكبر، لم يسألها حسان أين اختفت، وهي كعادتها لا تتحدث إن لم تُسأل.

صَحَوْتُ باكراً وتناولت الإفطار الذي أعدته عمرة، وبحماس شرعت بخلط الجير وأخذت أغلق الفتحات بين الحجارة التي بنيناها بالأمس، وصل الضرير وتعاونا معاً على رفع ثلاثة حجارة وهي ما نقص ليكتمل بناء الجزء الشرقي من البيت، ولم تتنازل عمرة عن الإشراف الكامل على كل حجر، أعدت لنا الشاي واحتسيناه احتفالاً بالانتهاء من بناء نصف البيت، وأعلنت أن علينا استثمار هذا اليوم في فتح القبو وتنظيفه.

مدخل القبو كان خارج البيت وملاصقاً للجدار الذي أكملنا بناءه، أزلنا الكثير من الأتربة، ووصلنا إلى عدد من الحجارة التي رصت بنظام يدل على أن هناك من عمد إلى إخفاء القبو، لم يحدث هذا بسبب الزمن وعوامل الطبيعة، وما إن أزلناها حتى ظهرت بوابة من الفولاذ، فتحتها وكان هناك درج حجري أوصلني إلى غرفة خالية متواضعة تحت الأرض، وكنت مسروراً لأنه لم يكن هناك أتربة وحجارة سترهقنا.

في ساعات الظهيرة غادرنا الضرير مثل كل يوم في الموعد نفسه، وانشغلت عمرة بتنظيف القبو لننقل إليه أغراضنا، ونغلقه حينما لا نكون بالبيت، وهي على ثقة بأنه ليس من السهولة كسر باب الفولاذ، في حال جاء غرباء لصوص لسرقتها، لم يكن القبو سرياً وبإمكان أي كان أن يرى مدخله إن اقترب من البيت.

انتظرت انتهاءها من تنظيفه لتريني البوابة السرية التي تمكننا من الخروج أو الدخول من أسفل البيت في أي وقت، وهذا ما كنت أنتظره فأنا ما كنت لأحبس نفسي في مكان يغلق تلقائياً ولا يسمح بالخروج منه إلا بعد وقت، وإن كان باب

القبو يفتح يدوياً فهذا يعني أن بإمكاني الدخول والخروج متى شئت، طلبت مني أن أذهب وأحضر المصباح اليدوي ففعلت. لم تفتح الباب إلا بعد أن قمت بخطوات سخيفة للتأكد من عدم وجود من يراقبنا، ضغطت على حجر فغار إلى الداخل قليلاً، وعلى بعد خطوات ضغطت على حجر آخر، فانفتحت بوابة وكشفت عن غرفة أوسع قليلاً من القبو، لكنها مغلقة لا توصل إلى أي مكان، فسألتها إن كان هذا كل شيء، فدفعت الباب الحجري لينغلق خلفنا وأخذت تشرح أنه لا يمكن فتح باب قبل إغلاق الآخر، وقبل أن تعلمني كيف يتم فتح الباب الآخر أردت الاطمئنان إلى أن فتح الأبواب للخروج سيكون سهلاً، فطلبت أن أنظر عبر الثقب لأتأكد من ألا أحد قد دخل القبو خلفنا، وبعد ذلك أضع كفي على حجر وأشده إلى الخلف ففعلت، فانفتح بسهولة دون أي تعقيد، أوضحت أن الأبواب يسهل فتحها من الداخل إلى الخارج، ولكن الدخول يكون أكثر تعقيداً.

لم أشعر بالخوف، انتقلنا من سرداب إلى آخر، ووصلنا إلى بوابة من قضبان فولاذية بالإمكان رؤية ما خلفها، فسألتها كيف يتم فتح هذا الباب، فقالت إنها ستحتاج وقتاً لتجد المفتاح الذي يفتح الأبواب كلها، وعندها ستأخذني في جولة إلى الأماكن التي يسمح بالوصول إليها، ارتبكت قليلاً ولم أشعر بالراحة وقررت الخروج، وحينما عدنا إلى القبو، طلبت منها ألا تبحث عن المفتاح وألا تدخل إلى هنا مرة ثانية، فأجابت:

– هذا بيت عائلتي يا حسان، وأنت لست من الغرباء وليس عليك أن تقلق من أي أمر.

- أرجوك يا عمرة، علينا ألا نبحث في أسرار هذا المكان وألا نزعج أصحابه أكثر.
- إنه بيت عائلتي ونحن لا نزعج أحداً، ومستقبلاً على أبنائي التعرف إليه.

كانت عنيدة وأصرت على رأيها، هذا بيت عائلتها وعليها الاعتناء به. حاولت أن تشرح فقاطعتها:

- لا شيء سيغير قناعتي، هذا البيت للجن وليس علينا أن نخوض في أسراره، وإن كنت قد عرفت عنه الكثير فهذا لأنك امرأة صالحة وهم أرشدوك إليه لتعتني به. لا أعارض أن تواظبي على تنظيفه فقد صارت لدي قناعة بأنهم "جن صُلاَّح" ولكن ليس علينا أن نتجاوز حدودنا ونبحث في أسرارهم.

لم نتفق على شيء فخرجت من القبو وتركتها خلفي تكمل تنظيفه ليكون مخزننا.

من بعيد رأيت امرأة تقترب من حدود أرضنا بحذر وحين لوحت بيدها علمت أنها أختي، كانت زيارتها مفاجأة، ولم يفعلها أي فرد من عائلتي من قبل، باستثناء ذلك الهجوم الذي حدث قبل أشهر، كانت تحمل معها زيت زيتون وجبنة ولبنة، فضحكت، وسألتها عن سر هذا التمرد على أوامر "فرعون وفرعونة" وهذا ما نلقب به شقيقي وشقيقتي الأكبران، فطمأنتني إلى أن فرعونة هي من أرسلتها وحمّلتها هذه الأغراض لعمرة، ومازحتها:

- هل أنت متأكدة من أنها لم تضع فيه السم.

- اطمئن، زيارة عمرة بالأمس غيرت كل شيء وأختك تشعر بندم شديد عما بدر منها ولولا خوفها من الخربة لجاءت بنفسها.

لم أعلم بزيارة عمرة، وسرني الانقلاب الكبير الذي خلفته هذه الزيارة في نفوس الكثيرين من عائلتي، ولكن بعد أن انفلت لسان أختي وأخذت تشرح بالتفصيل الممل ما حدث استشطت غضباً وشعرت بالإهانة، ومع ذلك حاولت إخفاء ذلك عن أختي.

أحبت شقيقتي أمل ما فعلناه في الخربة وكيف أعدنا إليها الحياة، وبهرها جمال البيت على الرغم من أنه لم يكتمل، فدعوتها لإلقاء نظرة عن قرب، فارتعبت ولم تجرؤ على تجاوز حدود الأرض خوفاً من الجن الذي يسكن أرض الخربة. شكرتها وعدت إلى عمرة، وأنا أشعر بالإهانة لزيارتها أهلي وما إن رأيتها حتى سألتها:

- لماذا لم تخبريني بزيارتك لعائلتي؟
- أنت لم تسألني.
- ولكنك بهذه الطريقة قد أسأتِ إلي.
- أعتذر منك، لم أقصد الإساءة ولكن كان عليّ التفاوض معهم حتى لا يقوموا بأذيتك.
- لا تخافي، هم عائلتي نحن نتشاجر ونتصالح، حالنا كحال كل العائلات، ولم يحدث أن آذى أحدنا الآخر، أو عرض الدفع خوفاً من الأذية، أنا الآن في موقف الضعيف الذي أرسل زوجته مستعطفاً الحماية.

- أنت عائلتي ويتوجب عليّ الاعتناء بك، ولا أرى عيباً بالتفاوض ودفع المال لإبعاد شر الغرباء عنا، لقد فعلنا هذا في السابق عشرات المرات ونجح الأمر.
- يا عمرة، هذا العيب كل العيب! نحن في زمن لا أحد يدفع للناس خوفاً منهم، ولنفترض أن هناك من سيؤذينا فعلاً ودفعنا له، ألن نفتح شهيته ليعود طلباً للمزيد؟
- لا يحق لهم العودة وإن حدث وخرقوا الاتفاق بعد التفاوض فيتوجب عليّ إنذارهم ثلاث مرات قبل أن نرد عليهم.

شر البلية ما يضحك وعقلي يعجز عن فهم طريقة تفكير هذه المرأة المسالمة، أحياناً ينتابني شعور بأنها تعيش في زمن غير زماننا هذا، سألتها ممازحاً:

- كم كنت ستعرضين على أخي من المال ليبتعد عنا؟
- أنا لا أملك من المال ما يكفي لإتمام بناء البيت، ولكني كنت سأتفاوض معه ليقبل بجزء من الأرض الزراعية التي ورثتها عن والدك.
- هل اعتقدت أني سأوافق على التنازل عن حصتي في الأرض بهذه السهولة؟
- نعم، ستفعل أي شيء لتحمي عائلتك.
- ألم تخافي أن يطالب بالبيت والأرض المحيطة به.
- الكل يعلم أن لا حق لهم بهذا البيت والأرض التي حوله، لهذا لم يقتربوا منه عبر مئات السنين وأنا ما كنت لأفاوض على بيت عائلتي أبداً.

- اطمئني يا عمرة لن يؤذينا أحد، ولن تحتاجي يوماً للتفاوض على أي شيء، أو التهديد بجدك الذي أسمع به ولم يزرنا يوماً.
- شقيقك هدد بهدم البيت فوق رأسي ورأسك ولم يترك لي خياراً إلاّ أن أهدده بجدي لعله يخاف ويرتدع.

لم أمنع نفسي من الضحك فسألتها:

- وهل اعتقدت أن أخي سيرتعب من ذكر جدك.
- نعم، عليه أن يرتعب، فجدي مزعج بالتفاوض، وأنا لا أنوي الاستعانة به حتى لا يتهمني بأني عاجزة عن حماية عائلتي بنفسي.
- واجب حمايتك يقع على عاتقي، لا أحد سيؤذيني أو يؤذيك، أخرجي هذه الأوهام من رأسك، وعديني ألا تكرري ذلك مرة أخرى.
- أعدك أني لن أفاوض عائلتك على شيء بشرط أن تقوم أنت بمفاوضتها إن اقتضى الأمر ذلك.

أضحكني ردها.

- اتركي أمر عائلتي عليّ وسأفاوضهم نيابة عنك.
- صحيح، ماذا تحمل في يدك.
- إنها هدية من عائلتي.
- تعال لنتفق على أننا عائلة لا تقبل الهدايا، لكنك ستقبلها هذه المرة حتى لا نثير غضبهم، بشرط أن نرد لهم الهدية بهدية ونخبرهم أننا لن نقبل الهدايا مستقبلاً.

زيارة عمرة لعائلتي سببت لي الكثير من الحرج، لكن حديثي معها بدد غضبي، كنت سعيداً في أعماقي وأنا أستعيد مكانتي تدريجياً كزوج لهذه المرأة الحجرية، لا كتابع ينفذ ما تطلبه فقط.

واصلنا بناء البيت، وتعرضنا للكثير من المضايقات من بعض الأقارب وأهل القرية، لم أكن يوماً جباناً لأسكت عن رد الإساءة، ومع ذلك وجدت نفسي مضطراً إلى كتم غيظي إرضاء لعمرة التي تعتبر أن كل البشر غرباء وأن علينا تجاهلهم، تعرضت أرضنا للكثير من الهجمات التخريبية في غيابنا، وأحياناً ونحن نيام، وفي كل مرة تطلب أن أذهب إلى أخي وأن أتفاوض معه، لكني لم أكن أصدق أن ابن أبي وأمي يقف وراء تلك الهجمات حتى ثبت الأمر بالدليل القاطع.

كانت عمرة في الأيام الأخيرة من الحمل ولم أرغب بتوتير الأمور أكثر، فذهبت إلى أخي عله يكف شره عنا. تصالحنا، واكتشفت مما دار بيننا من حديث أنه يحسدني على أرض الخربة الواسعة، ويشعر بأني حصلت على النصيب الأكبر من ورثة والدي، لقد نسي أنه من أشرف على تقسيم الورثة بنفسه، وعرض أرض الخربة على الجميع مقابل دونم أرض زراعي واحد فقط، وأنا الوحيد الذي قبلت عرضه، واليوم بعد اكتشاف بئر الماء، يرى أن حصتي صارت ثلاث أضعاف حصة الآخرين.

اقترح علي شراء الأرض الزراعية التي تجاور أرضه جنوب القرية، وكانت أيضاً من ضمن حصتي بالميراث، وافقت ليس خشية منه وإنما لأني لن أتمكن يوماً من التصرف بها دون موافقة العائلة كلها، وكنت بأمس الحاجة للمال، فما عدنا أنا

وزوجتي نملك ما يكفي لإكمال بناء البيت، وبعد أشهر لن نجد حتى ثمناً للطعام، وأرض الخربة تكفيني وتزيد، لم ينصفني ودفع القليل، ولم أعترض.

عاد الهدوء والسلام إلى أرض الخربة، وأشرق نور ابنتي البكر التي أسميناها كريمة على اسم المرحومة والدتي، وترك هذا الأثر الطيب في نفوس بعض أفراد عائلتي، وفي أسبوعها الأول تلاشى الخوف من خربة الجن، وزيارة واحدة من أخواتي كانت كافية لكسر حاجز الخوف فتبعها الباقون.

هرب الجن وأخذوا معهم الهدوء الذي اعتدناه طوال ما يزيد على عام، تعرضت أرضنا لغزو عفاريت أقاربي الصغار والكبار، وعددهم ليس بالقليل وفضول الاكتشاف والمراقبة حركهم أكثر من دافع القيام بالواجب، انبهروا جميعاً كيف تمكنت هذه المرأة من قلب أرض الخربة وتحويلها إلى جنة، في الوقت الذي خشي فيه الآخرون حتى من المرور بجانبها.

فورة الحب والسلام لم تدم طويلاً، لم يفهموا أسلوب حياة عمرة، وهي لم تتقبل فوضاهم، زوجة ابنهم الأجنبية لا تبتسم ولا ترحب بهم، ترد على أسئلتهم ببرود ورسميات، لم تطرد أحداً ولكن خيل إلى بعضهم أنها فعلت، أيام أمضيتها بالتبرير والشرح أنها لا تقصد الإساءة لأحد، ومللت من تبرير صراحة عمرة، التي لا ترغب بقبول الهدايا ولا بزيارات دون موعد وتخبرهم أحياناً أن أسئلتهم لا معنى لها، وتتجاوز الخطوط الحمر بنقد تصرفات أطفالهم، وانفض الجميع من حولها، واتفقوا على أن هذه المرأة مجنونة أو أن الجن قد مسها، وحدث هذا فقط لأنها كانت

صريحة لا تجمل الكلمات أو تخترع أجوبة تلائم عقولهم. تساءلت ماذا كانوا سيقولون عنها لو أخبرتهم أنها عاشت في هذا البيت قبل زمن طويل!

لم يكن الأمر بذلك السوء، فابتعادهم أعاد إلى حياتنا الهدوء، كبرت ابنتي ومعها الأشجار واكتمل بناء البيت، والأسوار التي تحيط به، لم تسقط علينا ثروة جدها التي أوهمني بها سعيد، لم أمتلك فندقاً ولا أسطول سيارات فارهة، حتى سيارتي (البيجو) لفظت أنفاسها الأخيرة، ولم تستحق أن أعيد إنعاشها فتحولت إلى خردة تقبع على حدود أرضنا، لتذكرني بلقائي بعمرة قبل سنوات، والعمل في أحد المصانع كان السبيل لإعالة عائلتي، وأسفل البيت كان هناك الكثير من السراديب والغرف والأبواب المغلقة بقضبان الفولاذ التي لم أرَ شبيهاً لها في زمننا، كنت حريصاً على ألا يعرف أي كان بأمرها، وطالما كررت عمرة أنها أسرار عائلية لا يجوز للغرباء أن يكتشفوا وجودها، ورفضت دعوتها أن أعود إلى ذلك المكان مرة أخرى، لم يكن بالأمر السهل أن يكون تحت بيتي كل هذه الأسرار وأكبح جماح فضولي لاكتشافها.

حملت عمرة للمرة الثانية وأنجبت أختاً لكريمة، لم تكمل عامها الأول حتى توفاها الله، حزنت كثيراً لكني وجدت سعادتي وأنا أراقب كريمة تكبر أمام عيني كل يوم ولم ينطبق عليها المثل القائل (البنت لأمها) ولا أعتقد أن هناك مثل سينطبق عليها، كانت تخالف عمرة في كل شيء، تضحك وتبكي بسبب ودون سبب، ماكرة خبيثة، كسولة متمردة، تتسلل كل ليلة وتأتي لتنام في أحضاني، كانت اسماً على مسمى،

كريمة في ابتسامتها وضحكاتها، لا تشبع من اللعب ليلاً أو نهاراً ومع ذلك كانت سبب الشجار الدائم بيني وبين عمرة، لم يمر يوم واحد دون أن أسمعها تقول:

– أنت تفسد حياة هذه الفتاة!

– ما زالت طفلة ولن أحرمها من شيء.

عملت ساعات إضافية لأشتري لها الألعاب والملابس، كانت أميرتي الصغيرة وما كنت أرفض لها طلباً، ومن أجلها تمردت على أمها، عالم عمرة له قوانينه الخاصة وعلى الجميع التقيد به، وكريمة الصغيرة كانت نقيضاً لها في كل شيء، أخذت إجازة من عملي ورافقتها في يومها الأول إلى المدرسة، لم يطاوعني قلبي على تركها فعسكرت أمام بوابة المدرسة حتى انتهى الدوام الدراسي، وعادت إلى أحضاني وقبل أن أسألها عن تجربتها الجديدة قالت:

– بابا أريد تلفازاً.

كنت أعلم أن هذا اليوم سيأتي، فكريمة رأت التلفاز في بيوت أعمامها وعماتها حينما كانت ترافقني لزيارتهم، ولم يشدها كثيراً، واليوم انتقلت إلى عالم أكبر، ازدحم ببنات جيلها ولا حديث لهن إلا ما شاهدنه على التلفاز، حاولت أن أتهرب من الحديث وأشغلها بأمر آخر، ولكنها لا تشبه أمها إلا بالعناد، وما كانت لتتنازل عن أمر تريده، التلفاز ليس كالملابس والألعاب، ولا توجد طريقة لإقناع عمرة بأن تدخل عدوها إلى بيتنا، ومع هذا وعدت كريمة أن أشتري لها واحداً ولكن عليها أن تكون صبورة، والصبر ليس من شيم ابنتي، فما تطلبه علي أن ألبيه فوراً، وكان علي أن أحاول لعلي أقنع عمرة، ومن المحاولة الأولى حسم الأمر.

– لن يدخل التلفاز بيتي يوماً!

لا شيء يستطيع زحزحة عمرة عن رأي اتخذته، وكريمة كانت أكثر عناداً منها، تريد أن تشاهد التلفاز مثل كل الأطفال، ولن تتنازل عن هذا المطلب، وأنا وقعت ضحية عناد حواء، كان علي أن أجد حلاً يرضي الطرفين، فأخذت أتسلل وابنتي كلما سنحت الفرصة إلى بيت أختي الأقرب إلينا وأترك كريمة تشاهد ما يعرض على التلفاز، وما كانت لتكتفي.

تكرر خداعنا لعمرة، وكانت الصغيرة بارعة في إخفاء سرنا الصغير، وفي أحد الأيام عدنا إلى البيت فأعدت لنا عمرة الطعام وبعد أن انتهينا سألتها:

– كيف كان يومك يا كريمة.

فكذبت عليّها ببراعة:

– لقد تجولنا أنا ووالدي في الوادي ولعبنا وراقبنا العصافير وبحثنا عن السلاحف، وغداً بعد عودة والدي من العمل سنواصل بحثنا عنها مرة أخرى.

عانقتها عمرة وطلبت منها أن تذهب إلى غرفتها لتراجع واجباتها المدرسية، فغمزتني الماكرة الصغيرة وذهبت إلى غرفتها، لتفاجأني عمرة حين أمسكت بيدي ووضعت كفي على بطنها المنتفخ وقالت:

– أشهر وسأنجب ابنك يا حسان.

أعشق كريمة بجنون ولكني أريد أن يكون لي ابن ذكر يحمل اسمي، فسألتها:

– وكيف تعرفين أنه ذكر؟

- الأم بإمكانها أن تعرف، والآن قل لي هل أخفيت عنك سراً أو كذبت عليك يوماً؟
- لم تفعلي يا عمرة، وأنا أصدق كل ما تقولينه، ولا أشك في أنك تحملين ذكراً.
- أنا لا أتحدث عما أحمله في أحشائي، وإنما عن رعايتك لبذرة الكذب التي أراها تنمو في نفس ابنتنا، وكيف سيكون حال أسرتنا مستقبلاً إن كانت الأسرار تنام بيننا.

الخجل الذي شعرت به لانكشاف أمري أشعل غيظي فقلت لها:

- الأسرار تسكن أسفل بيتنا ونحن بارعون بإخفائها عن الآخرين.
- لم أخفِ عنك أي شيء يا حسان، وإن كانت هناك أسرار فنحن نخفيها عن الغرباء لا عن بعضنا البعض، ويوماً ما ستكبر كريمة وابننا ولن نخفي عنهما شيئاً.
- يا عمرة، التلفاز جزء من حياة كل أطفال العالم ولا يحق لنا حرمان طفلتنا من أن تحيا حياة طبيعية فقط لأن أمها ترعرعت في زمن مختلف.
- لا، لن أحرم ابنتنا من شيء، أنا أشجعها على الاستماع للموسيقى وسماع القصص التي تبث عبر المذياع، وكل يوم أقرأ لها حكاية.
- وما الفرق بين المذياع والتلفاز أليسا أخوين؟
- ليس بالضرورة أن يتشابه الأشقاء، الفرق بينهما كبير، الأصوات تحفز الخيال ليرسم صورة تناسب كل صوت وتمكنه من الرؤية بالظلام، أما

التلفاز فهو يحشو الذاكرة بآلاف الصور، فهل تريد أن يأتي يوم على ابنتك إن أغمضت عينيها ألا تستطيع تذكر ملامح وجهك لأن وعيها قد ازدحم بصور الغرباء.

- لا أجد منطقاً فيما تقولينه يا عمرة، برامج الأطفال تم إعدادها لتساهم بتعليمهم وتسرع في نموهم العقلي.
- ابنتك في السابعة من عمرها وفي الوضع الطبيعي تكون ذاكرتها قد خزنت مئات الصور ولن تجد صعوبة في تذكر كل واحد منها، وأين رأتها، ومن يكون صاحبها، ولكن بعد مشاهدتها التلفاز، هناك آلاف الصور لغرباء وجدوا طريقهم لذاكرتها وسيختلطون مع الواقع، التلفاز هو الشيطان الذي اتهموني بعبادته، وها هو يسكن كل بيت ويحد من قدرة الأرواح على البحث ويأخذها حيث يشاء، فهل تريد أن تحمل ابنتك ليل نهار حتى لا ترهق ساقيها بالمشي أو تمضغ الطعام عنها لتسهل عليها هضمه، هذا ما يفعله التلفاز مع الأرواح يسرق منها القدرة على التأمل ويحد من قدرتها على الطوف خارج الجسد، والأب عليه أن يحرص على روح ابنته قبل جسدها، والآن أريد منك أن تعدني ألا تشجع كريمة على التعلق بالتلفاز وعلى الكذب عليّ مجدداً.
- أعدك يا عمرة، والآن أخبريني من أخبرك؟ ومتى اكتشفت أني كنت أصحبها لمشاهدة التلفاز؟

– منذ أيام يا حسان، أنتم عائلتي ولا يسرني إحراجكما، كنت أنتظر منكما مصارحتي، لا حاجة ليخبرني أحد، الأم ترى في الظلام إن تعلق الأمر بعائلتها.

ربما لا تكون عمرة على حق فيما يتعلق بالتلفاز، ولكني لا أختلف معها حول أنه لا يجوز تشجيع ابنتنا على الكذب، حاولت أن أعيد الأمور إلى نصابها، لم أخبر كريمة أن عمرة قد كشفت سرنا بناء على طلبها، فهي لا تريد أن تحملها ذنب خداع أمها، احتملت نار دموع ابنتي وعنادها لأشهر.

مرت عمرة بمخاض صعب، وعانت كثيراً في ولادة ابننا البكر وانشغلت بالاعتناء به، وتمكنت مني الماكرة الصغيرة ودفعتني لأخلف وعدي، شعرت بتأنيب الضمير، وحسمت أمري بأنها ستكون المرة الأخيرة التي أصحبها لمشاهدة التلفاز، وعادت تسبل عينيها وتردد على مسامعي تعويذتها السحرية:

– "بابا بليز بابا".

عدت لأخرق قوانين عمرة ولم أتحرر يوماً من سحر كريمة، الرضيع وقف على الحد الفاصل بين الموت والحياة أكثر من مرة، ترتفع حرارته تارة وتنخفض تارة، وما قامت به عمرة لم يحدث من قبل، صنعت حمالة من القماش وألصقته عارياً على صدرها، وتركت جسدها يراقب حرارته 24 ساعة في اليوم لينبئها بأي تغيير يحدث حتى لو غفت للحظة، لقد تحول إلى جزء من جسدها شهوراً طويلة وبعناية الله ومعجزة الأم أخذت صحته بالتحسن تدريجياً، وعذابها لم ينته فكلما أبعدته

عنها كان يبدأ بالصراخ ولا يهدأ إلا بعد أن تعريه وتلصقه بجسدها، لم نطلق عليه اسماً في انتظار أن يقاوم ويجد طريقه للحياة، بمشيئة الله أولاً وأخيراً.

صراخه الدائم دفع كريمة إلى أن تطلق عليه اسم صريخ، فالتصق الاسم به، وحبيبة القلب الماكرة أشغلتني عنه وعن أمه.

جاء اليوم لأحصد ما زرعت، فقد اكتشفت بالصدفة أن الصغيرة قد برعت بالكذب عليّ وعلى الجميع، لم تكتف بأنه لم يعد لها علاقة بالدراسة بل كانت تتغيب عن المدرسة لأيام، تقضيها مختفية عن الأنظار حتى لا يكتشف أمرها أحد، استغلت انشغال أمها التي ما عادت تعرف الليل من النهار، خدعت معلميها وكسبت تعاطفهم حين أخبرتهم أن أمها مريضة وهي تتغيب لتعتني بأخيها الصغير، وأنا كنت المغفل الأكبر واستحال عليّ أن أعيد الأمور إلى نصابها بعد أن تمردت عليّ الصغيرة.

قسوت على قلبي لأنقذ ابنتي من السقوط في الهاوية، اعترفت لعمرة واستنجدت بها، ويبدأ العقاب بمنع الطفلة الصغيرة من مرافقة الطفل الكبير إلى أي مكان خارج محيط المنزل، صودرت ألعابها وأجبرت على العمل في الحديقة ساعة كل يوم، خضعت لرقابة صارمة ومع هذا كانت تجد طريقة للتأثير عليّ لمساعدتها في إنجاز بعض الأعمال الموكلة إليها، وعمرة التي فقدت ثقتها بي اكتشفت أمرنا مرة أخرى وكان عقابي أن عليّ أن أقرأ لها كل يوم عشرين صفحة من كتاب، ويكون هذا في حضورها لتضمن أننا لن نغش، كان ترويضي سهلاً على عمرة أما كريمة فازدادت تمرداً وفشلاً، وترسخ في عقلها الصغير أن أمها تكرهها، ومع هذا ما كنت

لتجرؤ على مخالفة أمرها، نطق ابني الصغير أحرفه الأولى واشتدت ساقاه ومشى، وخاب أملي حينما لم أتمكن من رسم ابتسامة على شفتيه الصغيرتين، خشيت أن يكون قد ورث هذه الصفة عن أمه، لاحظت عمرة القلق الذي اعتراني فأمسكت بكفي وشدت عليها وقالت:

– لا تقلق، لن يكون مثلي سأجد حلاً لهذه المشكلة قريباً.

– أنت زوجة وأم عظيمة ولا يقلقني أن يكون مثلك.

– شكراً يا حسان، لكني لا أريد لأبنائي أن يكونوا مثلي.

أشهر مرت قبل أن يطمئن قلبي وأرى ضحكة في عينيه الصغيرتين، كبر أملي أن أرى البسمة تجد طريقها إلى شفتيه، السعادة والحب والأمان، تسكن بيتنا وتحيط به والعصافير شاركتنا جنتنا الصغيرة، رائحة الأشجار المثمرة تعبق بكل زاوية، وحتى الحيوانات والدواجن التي احتلت زاوية من أرضنا، لم تزعجنا رائحتها يوماً، وقطة كريمة صار لها شبارق، وتعلمت كيف تتعايش مع كلبها الشرس، ولا شيء ينقصني سوى أن أجد الوقت لأراقب أبنائي يكبرون أمامي.

حَادِثٌ بسيط في العمل تسبب بكسر صغير في ذراعي لكنه أقعدني عن العمل شهوراً، وكانت فرصة لأقضي الكثير من الوقت مع كريمة والقليل مع شقيقها، كنا نأكل ونشرب ونلهو، لم أشعر للحظة واحدة بأن شيئاً ينقصنا، سوى أن تبتسم الزوجة وتتنازل الابنة عن عنادها، وتتوقف عن الشجار مع والدتها، وتتوقف حرارة ابني عن الارتفاع بين الحين والآخر.

جاء اليوم الذي كان عليّ مواجهة مشكلة لم أعرف بوجودها من قبل، فقد طلبت من عمرة أن تشتري ملابس جديدة لكريمة فردت عليّ:

– لا تهتم ستتدبر أمرها بما عندها، وحين تشفى ذراعك وتعود للعمل لن نحرمها من شيء.

يتطبع الأبناء دوماً بعادات آبائهم، وهذه القاعدة لم تنطبق عليّ، فعناد كريمة وإصرارها على أن تحصل على ما تريده فوراً انتقل إلي، وكان على عمرة أن تحد من اندفاعي:

– نحن لا نملك من النقود الكثير لنهدرها على شراء ملابس جديدة لكريمة في الوقت الحالي.

هذا ما قالته عمرة وهذا ما أثبتته الأيام لاحقاً، نحن فقراء لا نملك ثمن ثياب جديدة لابنتنا، الفقر كلمة سمعتها كثيراً ولم أفهم معناها يوماً، اعتقدت أنها ترتبط بالجوع والطعام، وهأنذا أكتشف أن الشخص قد يكون فقيراً دون أن يعرف، شعور بغيض أن يشعر المرء بأنه عاجز عن شراء ملابس لابنته الصغيرة.

حسدنا الأقارب دائماً على الجنة المنعزلة التي نعيش بها، أما الإشاعات التي دارت حولنا فكانت كثيرة، ووصلت إلى حد الاعتقاد بأننا عثرنا على كنز كبير، وحتى لا نثير الشبهات عملتُ في مصنع وتعمدنا ارتداء ملابس متواضعة.

لم أجد كنزاً ولكني شعرت بالثراء، ولم ينقصنا شيء، ولم أفكر بحاجتي لشيء لأكتشف حقيقة عدم قدرتي على شرائه من عدمها، واليوم يتبين أن ما كنت أتقاضاه من عملي ما كان ليسد نصف احتياجاتنا، وأن براعة عمرة في إدارة الأمور أبعدت عنا شبح الجوع، مزروعاتها ودواجنها وحيواناتها الأليفة كانت سنداً لنا، ومرض ابني وانشغال عمرة به استنفد الكثير مما ادّخرته للأيام العصيبة، وانقطاعي عن العمل كشف المستور، لم أكن أعرف وما كنت لأعرف يوماً لولا ضغطي على عمرة لتشتري ملابس للصغيرة.

لعل عقلي استوعب أسرار البيت وعمرة، ولكن حقيقة عجزي عن تلبية احتياجات عائلتي كان هضمه عسيراً على عقلي، أعلم أن شراء ملابس لابنتي ليس بالأمر الجلل وبإمكاني استدانة النقود بكل سهولة، ولكن هل عمرة ستقبل ذلك؟ وهي من رفضت قبول الهدايا من أي كان، ورددت دوماً: "لماذا نقبل ديناً لا حاجة لنا به؟! علينا سداده بما نحتاج إليه".

اقترحت عليها استدانة بعض المال وعند عودتي إلى عملي نقوم بتسديده، فرفضت الفكرة جملة وتفصيلاً، من وجهة نظرها نحن في أفضل حال ولا ينقصنا شيء، وابنتنا كبرت وليس علينا مجاراتها في كل ما تطلبه.

- إنها طفلة يا عمرة وليس عليها أن تتفهم ظروفنا المالية.

– حسان، طفلتك بعد أشهر ستبلغ العاشرة من عمرها، ودلالك أفسد حياتها بما فيه الكفاية وأتمنى أن تعطي القليل من الاهتمام لابنك فهو أيضاً بحاجة إليك.

تركتني وعادت إلى أعمالها التي لا تنتهي ولا أعرف ما الذي ذكرني بسعيد بعدما انقطعت عني أخباره سنوات طويلة فأخذت ألعنه بسري، فاقتربت مني كريمة وقبلت يدي وانتظرت أن أقول لها مثل كل مرة:

– "الله يرضى عليك يا كريمة".

سبلت عينيها وأخذت تردد تعويذتها السحرية "بابا بليز بابا"، حضنتها وقبلتها وقلت في سري، شكراً لك يا سعيد، فمال العالم كله لا يساوي لحظة أحضن فيها هذه الماكرة، وأقسم بأنها من أفسدتني وحولتني إلى أب فاشل، وحان الوقت لأتوقف عن مجاراتها. اتخذت قراري، لن أساعدها بواجبتها المدرسية، لن أسمح لها أن تغش، لن أخفي عن والدتها شكاوى المعلمات، ولن أتستر على فشلها الذي لا نهاية له، وعليها أن تتفهم أننا لا نملك النقود للمزيد من الألعاب والثياب التي لا حاجة لنا بها، اتخاذ القرارات سهل وتنفيذه سيكون صعباً إن لم أتحرر من سحرها أولاً، وما كان هذا ليحدث إلا بعد أن تبين أن الكسر في ذراعي لم يُجبر كما يجب وربما سأحتاج عاماً قبل أن أتمكن من العودة للعمل، حاولت أن أستثمر وقتي في إصلاح ما أفسده دلال ابنتي، واجهت عناداً وغباء دراسياً لا مثيل لهما، هذه الصغيرة والعلم أعداء لن يتصالحا يوماً، وما كنت أستطيع أن أعلمها إلا اللغة العربية، وعجلة الحياة تسير سريعاً، وكما قالت عمرة السعادة تكون في ما نملكه وليس علينا البحث عنها في ما لا نملك، كانت على حق ولكن الصغار بحاجة لما هو أكثر من فلسفة الكلمات.

فِي الثانية عشرة من عمرها وأثناء عودتها من المدرسة للبيت تسمع من ينادي عليها من بعيد:

- كريمة... كريمة...

تلتفت إلى الخلف وترى امرأة فتركض باتجاهها فرحة تقبل يدها وتعانقها، تغرورق عيناها بالدموع وتقول:

- عمتي أمل، اشتقت إليك.

تعانقها عمتها بحب وتمطرها بالقبلات، وتخبرها أنها حضرت لها مفاجأة ولكن عليها أن تغمض عينيها أولاً، تبتسم وتنفذ ما طلب منها، تعود وتفتحهما وترى أن عمتها تحمل حذاء فتصرخ من الفرحة:

- هذا لي يا عمتي؟
- نعم، هو لك يا حبيبتي، هيا اخلعي حذاءك القديم لنرى إن كان مقاسه يناسبك.

تخلع حذاءها القديم وتنتعل الجديد وتشعر بأنها ملكت العالم بأسره، لكن فرحتها سرعان ما تتلاشى ويطل الحزن من عينيها وتقول لعمتها:

- لا أستطيع أن أحتفظ به يا عمتي.
- أعلم يا حبيبتي، ولكن بإمكانك إخفاؤه بحقيبتك، وانتعاله فقط حينما تذهبين إلى المدرسة، وخلعه عند عودتك للبيت وهكذا لن تكتشف أمك الأمر.

تروق الخطة لكريمة وتخفي حذاءها الجديد في حقيبتها المدرسية، تقبّل عمتها وتعود للبيت فرحة، تستقبلها عمرة وبعد أن تحضر لها الطعام تسألها:

- هل تريدين إخباري أمراً يا كريمة؟
- لقد رسبت في الامتحان مثل كل مرة ولا شيء آخر لأخبرك به.

فِي أحد شوارع لندن الراقية، حيث اصطفت السيارات الفارهة على جانبي الطريق لزيارة أفخم محال لندن التجارية كان موقع عيادة الدكتورة إليزابيث، في أوائل الثلاثين من عمرها، متوسطة الطول شعرها قصير عيناها عسليتان، جميلة لكن ليست فائقة الجمال، أنيقة وما ترتديه لا يدل على ثراء، ليتناغم مع شارع الأثرياء الذي احتلت الطابق الرابع من إحدى البنايات الفخمة فيه، تدخل مساعدتها وتهمس لها:

- لقد عادت الحزينة صاحبة الشعر الأحمر التي لا تبتسم وهي تجلس في صالة الانتظار، فهل تريدين أن أجد لها حجة وأتخلص منها مثلما فعلت في المرات السابقة؟

- لا، لقد عذبتها بما فيه الكفاية واليوم سألتقي بها.

- هل أسمح لها بالدخول؟

- عليّ أن أعذبها قليلاً قبل ذلك، ألغي مواعيدي كلها ودعيها تنتظر أطول فترة ممكنة.

- وإن رحلت، ماذا عليّ أن أفعل؟

- اسحبيها من شعرها وأدخليها في الحال، هذه المرأة إن أصاب حدسي ستكون حلاً لأكبر مشكلة أواجهها في حياتي، لا ترفعي نظرك عنها وحين يفيض صبرها اسمحي لها بالدخول.

تمر ساعة من المماطلة تمضيها الدكتورة بتفحص صور كاترين وقراءة معلومات عنها حصلت عليها من محقق خاص وظفته لمراقبتها لأسابيع، لم تكن بحاجة لتفحص الملف فقد اطلعت عليه أكثر من عشر مرات، كانت الصهباء معلمة في مدرسة للصم والبكم، واشتهرت بقدرتها على التواصل معهم بلغة الإشارة إلى أن أصابتها حالة نفسية دفعتها لزيارة الكثير من الأطباء النفسيين.

ينفتح الباب وتطل امرأة صهباء في منتصف العشرينات من عمرها سبقها الحزن إلى المقعد الذي أشارت إليها الدكتورة إليزابيث لتجلس عليه قبل أن تقول لها:

- تعالي لنتفق، سأخاطبك باسم كاتي بدلاً من كاترين وأنت بإمكانك مخاطبتي باسم ليزا مباشرة دون ألقاب، هل اتفقنا؟

- لم نتفق مدام.

ضحكت الدكتورة وقالت:

- لا خيار أمامك، إما أن نصبح صديقتين وإما سأودعك بمصحة نفسية، لا تعذبيني بالألقاب والأسماء التي تشعرني بأني عجوز مثل دكتورة أو مدام أو إليزابيث، والآن ابتسمي أرجوك يا كاتي، اتركي عضلات وجهك تسترخي قليلاً ودعي شفتيك تكشف عن أسنانك قليلاً.

- اعذريني دكتورة إليزابيث، فأنا أفضل التعامل بالرسميات أكثر، والآن أخبريني لماذا أصر الدكتور هنري على تحويلي إليك على الرغم من انشغالك الدائم؟

- قبل أن أكون صريحة معك، سأتباهى قليلاً وأخبرك أن الكثير من الأطباء يطلبون مشورتي في علاج بعض مرضاهم، وقصتك أثارت فضولي، لهذا تحايلت وتخابثت ليحولوك إلي، وحين رفضت ذلك استخدمت بعض الحقارة لأمنعك من الحصول على تصريح الدواء الذي أدمنت عليه إلا من خلالي.

- أحترم صراحتك يا دكتورة، ألهذا تظاهرت بأنك مشغولة وطلبت من مساعدتك أن تراقب متى سينفد صبري.

- بالضبط، أردت أن أرى هل ستتنازلين عن الدواء وتذهبين أم ستحتملين ملل الانتظار، أعلم أيضاً أنك حصلت على أدويتك من السوق السوداء!

- دكتورة إليزابيث، أرجو أن تكوني مهنية أكثر، فأنا لست فأر تجارب، أنا ملمة بمشكلتي النفسية جيداً ولا أحتاج منك إلا أن تحرري لي وصفة دواء تساعدني على النوم وسأدفع ثمن الجلسة ولا حاجة لإهدار وقتك.

- كاتي حبيبتي، أنت لست مصابة بأي مرض نفسي وقد أخطأ الأطباء في تحليل حالتك والأدوية لن تساعدك أبداً، شابة مثلك كرست حياتها لتعليّم الصم وبرعت بالتواصل معهم بلغة الإشارة لن تعجز عن أن تميز إن كانت الفتاه الصغيرة التي تراها بالمدرسة وتختفي فجأة حقيقة أم وهماً.

- دكتورة إليزابيث مع احترامي لك، لست بحاجة لمن يخبرني أن عقلي يخدعني وكل ما أراه وهم، لقد شرح لي الكثير من الأطباء هذه الحقيقة، وأنا أتفق معهم، لهذا أواظب على تناول العلاج الذي وصفوه.

- يبدو يا عزيزتي أنك لم تفهميني جيداً، أنا لا أتفق مع زملائي الأطباء، ربما كانت الفتاة حقيقية وليست وهماً وأنت لم تملكي الجرأة لتكتشفي الأمر بنفسك.

- هل تسخرين مني يا دكتورة إليزابيث؟

- لا يا عزيزتي، أنا صريحة معك وعليك الآن أن تتخذي قرارك وتتواصلي مع الفتاة الصغيرة لتكتشفي الحقيقة بدل إغراق جسدك بالأدوية.

- وإن تبين أنها فقط من نسج خيالي فماذا عليّ أن أفعل يا دكتورة؟

- وإن تبين أنها حقيقة فماذا ستفعلين يا كاتي؟

- دكتورة إليزابيث هل أنا في عيادة نفسية أم في...؟

- انظري إلى الجدار يا كاتي، لعل الشهادات المعلقة عليه تخبرك أني لست مشعوذة.

- اعذريني دكتورة، لقد أخبرني د.هنري أنك تحملين العديد من الشهادات وواحدة منها دكتوراه في علم النفس، فهل من المنطق أن تطلبي مني أن أغرق أكثر في الأوهام؟

– ثقي بي يا كاتي، أحيانا يتوجب علينا أن نلاحق أوهامنا لنتأكد من حقيقتها.

– هل تؤمنين بالأرواح يا دكتورة؟

– احتفظي بالسر ولا تخبري أياً من زملائي به يوماً، حتى لا يسخروا منك ومني، كلنا أرواح، بعضنا يسكن داخل جسد والبعض الآخر رحل عنه، وإن قبلت صداقتي فسأقدم لك هدية صغيرة لن تحتاجي بعدها إلى علاج أو دواء.

– هل تختبريني يا دكتورة بطريقة ما؟

تمد الدكتورة يدها تلتقط ملفاً أعدته مسبقاً ثم قدمته لكاترين، فتحته كاترين فوجدت فيه صورة لفتاة صغيرة وورقة فيها معلومات كاملة عن عمرها والسنة التي توفيت فيها داخل أحد صفوف المدرسة التي تعلم فيها، ترتجف كاترين وتسقط الأوراق من يدها وتردد أكثر من مرة:

– إنها حقيقية! لست مجنونة أنا لست مريضة!

تضحك الدكتورة وتقول لها:

– أنت مجنونة وأنا ليزا وسنصبح صديقتين، سيؤلمني جداً ألا آخذ منك النقود، سأكتفي أن تعلميني لغة الإشارات بالمقابل، فقد أخبروني أنك

أبرع من اخترق عالم البكم والصم، وأنا على ثقة بأنك لن تعجزي عن التواصل مع روح فتاة صغيرة عالقة بمدرسة لا تجد من يساعدها.

- أنت رائعة يا يا يا يا ليزا!
- بما أنك نطقت الاسم الذي أحب سماعه أخيراً فهذا يعني أننا سنصبح صديقتين وسنلتقي خارج العيادة وربما نصحتك يوماً برحلة تريح أعصابك قليلاً.

تغادر كاترين وتدخل مساعدتها سوزي، تخاطبها بلقب دكتوره إليزابيث وتخبرها أن مندوب إحدى شركات الأدوية بالصالة يطلب لقاءها وعلى الفور، تغطي إليزابيث وجهها بكفيها ومن بين أصابعها تنظر إلى مساعدتها وتقول:

- ليزا! ليزا اسمي ليزا وسأخصم من راتبك هذا الشهر عقاباً لك.
- لم أخالف الاتفاق ولن تفعليها يا دكتورة ليزا ليزا ليزا، فأنا خاطبتك بالرسميات على مسمع من المريضة.
- سأخصم من راتبك مرتين لأنك كذبت، فالباب كان مغلقاً، والمريضة كانت قد ابتعدت.
- اخصمي كما تشائين وأخبريني ماذا عليّ أن أفعل مع مندوب الأدوية الذي ينتظر لقاءك؟

- أرجوك يا سوزي، ارحميني من تجار الأدوية المملين، أخبريه أن يعود لاحقاً، لا أخبريه أني انتحرت حتى لا يعود أبداً، ولكن أخبريني قبل ذلك هل هو وسيم أم يشبه من سبقوه؟

- لا، هذه المرة أرسلوا شاباً وسيماً.

- إذا كان الأمر كذلك فغازليه قليلاً واطرديه بعد ذلك.

تستدير سوزي لتنفيذ ما طلب منها فتنادي عليها ليزا، وحين تلتفت تغمزها بطرف عينها، ترسم ابتسامة خبيثة على شفتيها وتسألها:

- بعد قليل سأعد القهوة هل ترغبين بكوب مع القليل من السكر؟

تضحك سوزي لظرافة ليزا وأسلوبها المهذب في طلب القهوة وترد عليها:

- سأعدها لك كما تحبين يا دكتورة إليزابيث.

- سأخصم راتبك كله، هيا اذهبي وغازلي الوسيم بعيداً عني.

تنتقل ليزا لتجلس إلى جانب الواجهة الزجاجية المطلة على الشارع، تنظر باتجاه المحال التجارية الفاخرة وتراقب المارة وتحدث نفسها:

ما كان عليّ أن أطاوع زوجي وأفتتح عيادتي في هذا الشارع المتباهي، كان عليّ أن أصر على رأيي وأختار موقعاً أقل استفزازاً لعيني، لا يغيظني شيء أكثر من رؤية السيارات الفارهة أمام هذه المحال لشراء ما لا يحتاجونه بأثمان باهظة لغرض التباهي فقط، وفي الوقت نفسه لا أشعر بأي شفقة تجاه الفقراء الذين

يمرون من هذا الشارع لشراء حلم باقتناء حذاء أو قطعة ملابس من شارع الأثرياء البغيض هذا!

الحقيقة، أن مايك المخنث يغيظني أكثر من السيارات، نصف الرجل هذا لا يمل من تلميع واجهة محله وطلاء وجهه بالمساحيق، وما عاد يميز ما يرتديه إن كان يناسب الرجال أم النساء أكثر، لست متعصبة ولا أحمل أي ضغينة تجاه الجنس الثالث، ولكن لا يحق له أن يمزج الرجولة والأنوثة في قالب واحد، يطلق لحيته وشاربه ويصبغ شعرة باللون الأرجواني، ويرتدي ملابس ضيقة فاقعة الألوان، وتارة يحف وجهه ويطليه بالمساحيق، ويرتدي بذلة وربطة عنق، هل يسعى ليكون جنساً رابعاً؟!

عندما أراه يتمشى على الرصيف المقابل لعيادتي يخطر ببالي أن ألقي بجسدي من الطابق الرابع لعلي أسقط فوق رأسه، وأريحه من صبغ شعره بألوان مستفزة، وأريح عيني من رؤيته خمسة أيام في الأسبوع، سعر الحذاء الواحد في محله يعادل ما أدفعه لمساعدتي عن عملها لخمسة أشهر كاملة، هذا في حال أنها لم تتغيب وأخصم من راتبها.

في كل مرة، أجلس بجانب الواجهة الزجاجية هذه لأستمتع باستراحة استفزاز قصيرة، أذهب في خيالي إلى أني أقوم بشراء بعض المحال وأشعل فيها النار، ودوماً أبدأ بمحل مايك، لا شيء يغمرني بالسعادة أكثر من تخيلي أحذية فاخرة تحترق أمامي، واليوم تجتاحني الرغبة في أن أحول الحلم إلى حقيقة.

تنادي الدكتورة إليزابيث على سوزي بأعلى صوتها غير مكترثة بوجود أحد في صالة الانتظار، ينفتح الباب وتطل سوزي مبتسمة وتسأل:

– هل تريدين القهوة الآن أم بعد مرافقتك لاختيار المحال التي تنوين إحراقها هذا اليوم؟

– أنا جادة وسأفعلها، هيا رافقيني!

تضحك سوزي وتهز رأسها، وتعتقد أن الدكتورة فقط ستتمشى في الشارع قليلاً وتعود للعيادة مثل كل مرة، ولم تتوقع أنها ستذهب إلى محل مايك مباشرة، تقترب منه وعلى الرغم من أنها تعرف اسمه تسأله:

– ما اسمك أنت؟

لم يرق له أسلوبها بالسؤال، ولكنه تظاهر بالتهذيب ورد عليها:

– اسمي مايك يا سيدتي.

– يا سيد مايك، أريد التفاوض معك لشراء محلك، وسأعرض عليك مبلغاً كبيراً من المال، فهل أنت موافق على التفاوض؟

ضحك مايك ورد عليها:

– وما حاجة الدكتورة إليزابيث إلى شراء محل أحذية متواضع؟

– يسعدني أنك تعرف من أكون يا مايك.

- ومن لا يعرف الدكتورة الثرية وزوجها وهم يملكون نصف عقارات هذا الشارع؟! المجتمع الراقي يعرف بعضه، أليس كذلك يا مدام؟

- لاحظت رقيك يا مايك من الحذاء الذي تنتعله، سأشتري محلك وأحرقه بعد ذلك، فهل ترغب أن نبدأ التفاوض لننهي الصفقة الآن؟

- قدمي عرضك مدام لأفكر فيه.

- لا مجال للتفكير يا مايك، وعليك أن تتخذ قرارك فوراً، سأدفع لك ألف باوند، هل عقدنا صفقة؟

- أنت لم تدفعي ربع ثمن حذاء واحد.

- إذن سأدفع لك عشرة آلاف، هل بعت؟

- بعض الأحذية يزيد ثمنها على هذا المبلغ مدام.

- سأدفع لك مائة ألف، هل بعت؟

- لم تصلي لنصف ثمن الأحذية المعروضة في واجهة المحل

- سأدفع نصف مليون والآن معك عشرُ ثوان لتفكر وترد على عرضي.

- ادفعي 3 ملايين باوند وسأسلمك مفاتيحه في الحال.

تهز ليزا رأسها وترد عليه:

– سأفكر بالأمر وإن وجدت أن عرضك يناسبني فسأطلب من محاسبي التواصل معك لإتمام الصفقة.

تنظر باتجاه سوزي وتطلب منها أن تسرع في انتقاء أي حذاء لتشتريه لها، وحين رأت أنها مترددة حثتها على الإسراع، تمر دقائق قبل أن تعود مساعدتها بالحذاء، غير مصدقة أنها ستقوم بشرائه لها، تنظر ليزا باتجاه مايك وتقول:

– والآن يا مايك الراقي، هل ترغب أن تفاوض جارتك الراقية على ثمن حذاء واحد؟

– لا، ادفعي ما ترينه مناسباً، أنا موافق يا مدام.

– أنت رجل مهذب وعليّ أن أنصفك، سأدفع لك باونداً واحداً ثمناً للحذاء، وإن احتجت في أي يوم لجلسة علاج لن أتقاضى منك أكثر من باوند.

اعتقد مايك أن ليزا تمازحه، وحين أخرجت من حقيبتها باونداً ودسته في جيبه وابتعدت مسرعة، عض على شفتيه ندماً لمنحها الحرية بتحديد ما تدفعه، فات الأوان ولم يبق أمامه إلا أن يفحص حجم خسارته، فأسرع ليسأل موظفته عن نوع الحذاء الذي اختارته مساعدة الدكتورة، فعلم أن 3500 باوند هربت منه ولن يعوضها في حال أنها لن تشتر محله، تعود الدكتورة فرحة وتتمتم:

– لم أسرقه، لقد اشتريت حذاءً ودفعت ثمنه، وعليه أن يعوض خسارته من زبائنه الأثرياء.

عدت وسوزي إلى العيادة بعد أن حصلت على جرعة كبيرة من الطاقة، لم أحرق محل مايك وما كنت لأهدر مالي لتحقيق هذا الحلم اللذيذ، ومع هذا أشعر بسعادة بالغة، باوند واحد لا يكفي لشراء فردة حذاء مستعملة من أسواق الفقراء، هذا الأحمق يعرف جيداً كم أنا ثرية وربما يعزي نفسه حالياً باحتمالية شرائي محله، مراقبة سوزي تحتضن الحذاء بفرحة عارمة ولا تصدق إن كان ذلك حقيقياً يسعدني. لا بد من أنها تتساءل إن كنت سآخذه منها أو أعيده لمايك، مارست خبثي عليها والتزمت الصمت حتى فاض صبرها وسألت بعصبية:

– هل سنعيد الحذاء أم نحتفظ به أم ماذا؟

تركتها حائرة ولم أرد عليها، غافلتني أكثر من مرة وتفحصت الحذاء الذي أنتعله، ولا بد أنها تساءلت في سرها هل يعقل أن أنتعل مثل هذا الحذاء باهظ الثمن وربة عملي تنتعل حذاء لا يزيد ثمنه على عشرة باوندات؟! عذبتها لدقائق قبل أن أقول لها:

– هو لك يا سوزي، ولكن علينا أن نتفاوض أولاً على الثمن الذي ستدفعينه في المقابل.

لم تجد ما ترد به وصمتت، أعلم أنها لن تتمكن يوماً من دفع ثمن مثل هذا الحذاء فضحكت وقلت لها:

– أولاً عليك أن تعيدي لي الباوند الذي دفعته حالاً، فهو ملكي، ولن أفاوض عليه، وبعد ذلك إن وافقت أن تأتي إلى العمل كل يوم أبكر بنصف ساعة لمدة ثلاثة شهور فهو لك.

وافقت على عرضي فوراً، وزادت عليه بأنها ستعد لي القهوة يومياً دون أن أتحايل عليها لتفعل ذلك، كم هي غبية كان عليها أن تفاوضني على إعداد القهوة مقابل حضورها الباكر، وكنت سأوافق على هذا، ولكن فرحة الحذاء أضاعت فرصتها للتفاوض على شروط أفضل، عدت لأحتسي القهوة بالقرب من الواجهة واستمتعت كثيراً بإحساسي بأني أملك القدرة على شراء أي متجر في شارع الأثرياء هذا وإحراقه لو أردت.

لقد قال لي جدي يوماً إن رغبتنا المجنونة بالشيء تنبع من عجزنا على الحصول عليه، وعلمني أن كبرياء الفقراء يساعدهم على قهر ألم الجوع، وحين نقدم لهم الهدايا بدافع الشفقة نخدش كبرياءهم، وأن لا شيء بالمجان، وعلى الجميع دفع الثمن، لهذا كنت مصرة على أن تدفع سوزي الباوند وتعمل ساعات إضافية، وبهذه الطريقة فقط يمكنها أن تنتعل الحذاء وألا تشعر بأنها مدينة لي.

كم أكره الأحذية! لأني كلما فكرت فيها أندفع وأرتكب جريمة لا تغتفر، وسأفعل ذلك حالاً، أغلقت الباب بإحكام والتفت حولي مثل كل مرة؛ لأتأكد من أن أمي لن تظهر فجأة وتوبخني؛ أعلم استحالة حدوث هذا يوماً، ولكنها عادة قديمة لا أستطيع منع نفسي عنها، وعليّ أن أكون حذرة كلما أقدمت على هذا الفعل المشين، اقتربت من درج مكتبي وأخرجت علبة السجائر وأشعلت واحدة.

دق جرس الهاتف، تسرعت في الرد خشية أن يكون على الطرف الآخر زوجي أو ابنتي، ولسوء حظي كان هاري شقيق صديقتي، هذا اللعين الذي لا يكف عن مطاردتي، لم أجد صعوبة في إنهاء المكالمة سريعاً فأنا أحمل شهادة دكتوراه في علم النفس وأملك الخبرة الكافية للتعامل مع أشد الحالات النفسية صعوبة، ومع هذا أتساءل أين أخطأت ليندفع هذا الشاب ويوهم نفسه أني قد أخون زوجي يوماً!؟ لو عرف هذا المعتوه المرأة التي ربتني لهرب بعيداً، اللعنة عليه وعلى الأحذية، أشعر بحرارة الدموع على وجنتي، يا إلهي! السنين غيرت كل شيء في إلا البكاء، فما زال يباغتني في كل مكان وزمان، وطالما تساءل أصدقائي ما الذي قد يحزن الدكتورة إليزابيث التي تملك كل شيء، أسرة وثراء ونجاح، هل كانوا سيصدقون لو أخبرتهم أني على استعداد لأضحي بكل ما أملكه مقابل ساعة أنام فيها في حضن أمي عمرة، وأقبل يد والدي حسان وأسمعه يقول "الله يرضى عليّك يا كريمة" وهل سأملك الجرأة يوماً لأخبر أياً كان بأني أبكي كلما رأيت حذاء قديماً، وأغتاظ من كل حذاء جديد بسبب ذلك الحذاء اللعين الذي أخذته من عمتي أمل وأخفيته عن والدتي، لم أنسَ ذلك اليوم أبدا!

وَدَّعتُ عمتي أمل بعد أن أخفيت الحذاء بين كتبي، وفي طريق العودة أخرجته من الحقيبة مرات عدة لأمتع عيني به، والخدوش الذي ظهرت على حوافه لم تفسد فرحتي به فهو حذاء فاخر بالمقارنة بالذي أنتعله، وصلت البيت فاستقبلتني أمي، وكالعادة كان عليّ أن أقترب منها وأعانقها، هذه المرأة لا تمل من عناقي، وتجبرني على ذلك، ولا يهمها إن رغبت بذلك أم لا! أعدت لي الطعام وجلست بجانبي وسألتني:

– هل تودين إخباري أمراً يا كريمة؟

– لقد رسبت بالامتحان مثل كل مرة وليس هناك أمر آخر أخبرك به!

كذبت عليها ولم أشعر بتأنيب الضمير، فأنا دوماً أفعل ذلك، وهي بارعة باكتشاف كذبي، وسجلي عندها حافل ومزدحم بالأكاذيب، كنت حينها سأتخلى عنها وعن أخي الصغير مقابل أن أحتفظ بحذائي الجديد، كم كنت أكره هذه المرأة، التي إن نظرت في عيني تكتشف كل أسراري، وإن نظرت في عينيها لا أرى شيئاً، إنه لمن الظلم أن تحرم فتاة من حقها بالاحتفاظ بسر بعيداً عن أمها، وكثيراً ما تمنيت لو كانت عمتي أمل هي أمي، فهي لا تعذب بناتها، وتشتري لهن كل شيء، ويسهل خداعها.

مر اليوم بسلام، وفي الصباح خرجت بحذائي القديم، وفور ابتعادي عن البيت خلعته وانتعلت حذائي الجديد، فحملني وطار بي إلى المدرسة، ولأول مرة أصلها باكراً، فأنا بالعادة أسير إليها ببطء شديد، وكأني بذلك أؤخر لقائي بها، يوم الحذاء

كان مختلفاً لقد شعرت بأني أقوى وأذكى وأجمل من الأيام السابقة، وازددت يقيناً بأن حذائي القديم هو سبب فشلي.

مر أسبوع كامل وأنا أخفي الحذاء وأنتعله بعد خروجي من البيت ثم أخفيه عند عودتي، لا شيء يوحي باكتشافها السر، ويستحيل أن أعرف ما يدور داخل رأس صاحبة الوجه الذي لم يبتسم يوماً، سذاجتي أوهمتني أني أخيراً قد تمكنت من خداعها، وربما كنت فرِحة بقدرتي على خداعها أكثر من احتفاظي بالحذاء! هذه العمرة يستحيل خداعها، لقد اكتشفت أني دخنت سيجارة مع ابنة عمي سراً، واكتشفت أني أخذت نقوداً من عمتي، واكتشفت أموراً يستحيل اكتشافها حتى أني كنت أحياناً أصدق ما تردد على ألسنة بنات عمي بأنها ساحرة. كم تمنيت لو كان ذلك حقيقياً، ويأتي اليوم الذي تمارس سحرها وتخرجنا من الفقر.

احتفظت بالحذاء وكنت حريصة على ألا يعرف أبي بسري، بعد أن سرقته عمرة مني وحولته إلى إنسان معدوم الشخصية، كان في الماضي أباً حنوناً يساعدني في كل شيء، يحفظ أسراري، ويلبي ما أطلبه، وفجأة انقلب على ابنته الوحيدة التي تقبل يده وتضحكه، وارتضى على نفسه أن يكون جاسوساً عليها لصالح زوجته الشريرة، وانشغل بتعليم ابنها المعاق المتلعثم. إن كانا لا يحباني فأنا أيضاً لن أحبهما، وبما أنها لم تكتشف أمر الحذاء فهذا يبشر بالخير وبإمكاني أن آخذ النقود من عماتي وأشتري ما أريد، كنت محظوظة أن عمتي أمل تشبه أبي قبل أن تسحره عمرة، ولم أجد صعوبة في تطويعها يوماً، تسبيل العينين وقبلة على يدها وأنال ما أريد، ومن سوء حظي أن لعمتي الطيبة ابنة حقيرة من جيلي، كانت

جميلة ذكية لم ترسب في امتحان يوماً، تملك كل شيء، وأنا كنت على عكسها تماماً، فاشلة بكل شيء، لا أملك شيئاً، ومع هذا كانت تغار من حب أمها لي، وكنت مضطرة للتعامل معها ومجاراتها لأنها كانت حلقة الوصل الوحيدة مع عمتي وخاصة بعد أن حرمتني والدتي من زيارة أقاربي نصف عام، أي أم ظالمة تحرم ابنتها من زيارة أقاربها بسبب سيجارة واحدة!

جاء اليوم الأسود، ودون سبب قررت ابنة عمتي إحراجي وأخبرت كل طالبات المدرسة أن الحذاء الذي أنتعله كان لها ولم يعجبها لونه، فأعطتني إياه شفقة على حالي، ولتثبت صدق روايتها كشفت لهم عن سر حذائي القديم الذي أحمله في حقيبتي، كانت فضيحة وشعرت بوجع فظيع يمزق أحشائي، انهمرت دموعي لتؤكد ما قالت وتزيد الأمور سوءاً، فهربت من المدرسة وتسللت إلى البيت بعد أن أخفيت حذاء ابنة عمتي وجلست تحت شجرة وأخذت أبكي، ويبدو أن الشريرة عمرة لمحتني فاقتربت وجلست بجانبي، حضنتني ولم تقاطع بكائي، لم تسألني عن سر عودتي في هذا الوقت من المدرسة فهي اعتادت على هربي من المدرسة مرة أو عشراً في الشهر، وبعد صمت طويل سألتني إن كنت أرغب في التحدث معها بأمر ما، فأخبرتها أن لدي ألماً في بطني وأنه سر بكائي وعودتي باكراً، قبّلت رأسي وتركتني، ثم عادت تحمل بيدها كوب ماء شربته وأخبرتها أني ما زلت أتألم، فقالت:

- جسدنا أحياناً يترجم ألم الروح بطريقة خاطئة، اطمئني الجسد لم يحتج يوماً لنعلمه كيف يشفي نفسه، وسيجد طريقة لشفاء ذاته فهو بارع

بذلك، أما الروح فإن أصابها أمر فهي لا تشفى منه أبداً، وكل ما تستطيع فعله هو التكيف مع الألم، وتعلم مواجهة كل خدش جديد ليكون الوجع أخف وطأة عليها، فهل تريدين مساعدتي في تعليم روحك كيفية التكيف مع الألم؟

المساعدة الوحيدة التي طلبتها منها هي أن تأتي لي بالدواء لا الماء، فتجاهلتني وذهبت لتعتني بابنها الشرير المزعج، ولم تعد فذهبت إليها وأخذت أبكي:

– لماذا تحبين أخي أكثر مني؟

فردت عليّ ببرودها المعتاد:

– أخوك مرض بالأمس ويحتاج إلى عناية، فهل تساعديني وتعتني به حتى أتمكن من إنجاز أعمالي؟

– ولكني أيضاً مريضة يا أمي وأحتاج إلى عناية مثله!

لم ترد عليّ وانشغلت به، كنت أتألم فعلاً ولم أتظاهر بذلك ومع هذا تجاهلتني الشريرة، فذهبت إلى غرفتي وفي أعماقي تمنيت لو يختفي أخي الصغير، دقائق ولحقت بي وجرتني بالقوة إلى الحديقة لأنفذ العقاب الجديد الذي أقرته قبل شهر، وهو جمع الأوراق التي تساقطت من الأشجار، وبعد ذلك أجلس تحت شجرة لمدة ساعة وأقرا إحدى رواياتها السخيفة، لم أجد من يتعاطف معي وينقذني من هذه المرأة التي تفننت في تعذيبي، جمعت الأوراق وجلست تحت شجرة، أمسكت الرواية وأخذت أقلب الصفحات دون أن أقرأ مثل كل مرة في انتظار أن يمضي الوقت، كانت تقترب مني وتسألني إلى أي صفحة وصلت في القراءة، فأختار بعشوائية أي

صفحة، تأخذ الكتاب وتنظر إلى الصفحة وتسألني ماذا كتب فيها، فأخترع لها عدة كلمات التقطتها عيني وخزنت بذاكرتي من كثرة تكرار تقليب الصفحات، تعيد الكتاب وتقول:

– بإمكانك الاستمرار في خداعي ولكني لا أريدك أن تخدعي نفسك يوماً.

استفزني تعليقها وسألتها:

– وكيف تعرفين إن كنت أكذب عليك أو أقول الصدق وأنت لا تقرئين العربية؟

– قلب الأم يقرأ اللغات كلها دون الحاجة لتعلمها يا كريمة.

تعلم جيداً أنني لا أقرأ شيئاً ومع هذا تستمتع بمراقبتي أتعذب حاملة كتاباً وأجلس تحت شجرة في انتظار مرور الوقت لأتحرر من عقابي، لا شيء أكرهه أكثر من رائحة الكتب، وكأن عذاب المدرسة لا يكفيني لتأتيني بالكتب، تركتني وعادت إلي بالطعام وسألتني إن كان الوجع قد خف، فأخذت أبكي، فقالت:

– وجعك سيزول فور أن تخرجي من حيرتك وتتخذي قرارك، هل ستذهبين غداً إلى المدرسة بالحذاء القديم أم الجديد؟

لم أتفاجأ ولم يكن هناك حاجة للشرح، إنها أمي وتعرف كل شيء، ووجدتها فرصة لأحملها ذنب ما حدث لي في المدرسة، قلت لها:

– أنت تعرفين كل شيء وكان عليك إجباري على إعادة الحذاء لعمتي مثلما كنت تفعلين مع النقود، وأمور أخرى!! لا أن تتظاهري بأنك لا تعرفين

وتتركيني أنتعله وأتعرض للإهانة أمام صديقاتي! أي أم ترضى أن يحدث هذا لابنتها الصغيرة؟

- لست صغيرة يا كريمة، أنت في طريقك لسن الثالثة عشر، وعليّك تحمل عواقب القرارات التي ستتخذينها، وأنا وعدتك بشراء حذاء جديد في نهاية الشهر حينما يستلم والدك راتبه، كان قرارك والذنب ذنبك أنت.
- وهل ستسمحين لي بالاحتفاظ به والذهاب به إلى المدرسة، ولن تزيدي في عقابي إن قررت ذلك؟
- لن أتدخل هذه المرة، وعليك أن تقرري إن كان نوع الحذاء الذي تنتعلينه سيحدد من تكونين، سأتركك الآن وفكري جيداً بالقرار الذي ستتخذينه في الصباح.

لم أتمكن من اتخاذ قراري، وفي الصباح حينما صحوت وجدت أنها قد جهزت ملابسي، وكالعادة حرصت على أن تكون نظيفة، لا يهمها إن كانت قديمة أو جديدة، النظافة هي الأهم، وتفاجأت أنها قد لمعت حذائي القديم والجديد وتركتهما بجانب الملابس، شعرت براحة أنه ما عاد عليّ أن أخفي الحذاء مثل كل يوم، وأني صاحبة القرار، ومع هذا لم أشعر بأني قادرة على انتعاله مرة أخرى أمام صديقاتي بعدما جرى، لم يكن سهلاً عليّ انتعال حذائي القديم، ولكنه كان قراري، وأقل وجعاً، لا شيء لأفعله وعليّ التكيف مع الواقع، في انتظار اكتمال القمر ليستلم والدي راتبه.

خف وجعي تدريجياً، وبقيت أمي تكرهني وتحب أخي أكثر مني، كان مطيعاً، علمته الإنجليزية قراءة وكتابة، مع أنه كان يتلعثم ويمرض كثيراً، إلا أنها اعتقدت أنه أذكى مني، أنا لا أكرهه بل أشفق عليه كلما مرض، على الرغم من أنه سرق الاهتمام بي، وما ذنبي إن كان الأهل يحبون الصبيان أكثر من الفتيات؟ لم تقف الأمور عند هذا الحد فقد اكتشفت أن أمي تتحدث مع أخي بلغة لم أسمع بها من قبل، عندها غضبت وسألتها:

- ما هذه اللغة ولماذا لم تعلميني إياها إلا إن كنت تعتبريني من الغرباء؟
- إنها لغة عائلتي القديمة وأنا أنتظر بفارغ الصبر أن تنضجي لأعلمك إياها.
- أنا أكبر منه بسبع سنوات، إنه الصغير لا أنا.
- هذا صحيح، ولكنه يريد أن يتعلم وأنت لا.
- لا أريد أن أتعلم منك شيئاً، أنا الفاشلة الوحيدة في هذه العائلة! فاتركوني وشأني فقط!

لم تتركني وشأني، كان عليّ أن أثبت لها أني أكثر عناداً منها، فلتعاقبني كما تشاء، حتى نرى ماذا ستجني من وراء العقاب، ويوماً ما سأكبر ولن تعود قادرة على فرض إرادتها علي.

جاء اليوم الذي قررت فيه عمرة أن تفاوضني، كنت أمضي ساعة العقاب وكانت لي الحرية في اختيار الشجرة التي سأجلس في ظلها، والكتاب الذي سأحمله معي ما دمت سأمضي ساعة حتى لو لم أفعل شيئاً، عرضت عليّ أن تعفيني من جمع

أوراق الشجر للمدة المتبقية من عقابي مقابل أن أقرأ الرواية فعلاً وأحكيها لها، راقت لي الفكرة، ووجدتها فرصة لأحصل على امتيازات أكثر، وبعد التفاوض اتفقنا، وكانت هذه المرة الأولى التي أقرأ فيها رواية، عشرة أيام وانتهيت منها، لم تملك الوقت لتطلب مني أن أحكيها لها لتتأكد من أني لم أخدعها.

أخطائي لا تتوقف والعقاب دوماً يتجدد، لكن الجديد هو التفاوض على الإعفاء مقابل قراءة كتاب، لم تعلم أمي أنها وجدت لي مخرجاً مريحاً للهرب من كل عقاب، ولحسن حظي فإن أغلب الكتب في بيتنا باللغة الإنجليزية وأنا بالكاد أقرأ لغتي الأم، فانتهيت من قراءة ما كتب بالعربية، والمهمة أصبحت سهلة أكثر فأخذت تطلب أن أعيد ما قرأته وتطمئنني إلى أنه فور توافر النقود ستأتي لي بروايات جديدة، يا إلهي، هذه المرأة لا تريد أن تفهم أني بحاجة إلى ملابس جديدة! ألعاب! تلفاز! لا كتب سخيفة! وكان عليّ مجاراتها وعدم إتاحة الفرصة لها لإلغاء الاتفاق المريح.

تمردي وأخطائي كثيرة ومع هذا أحببت لعبة التفاوض على نوع العقاب، الاعتناء بأخي الصغير وتعليمه اللغة العربية، وتدريب لسانه المتلعثم على النطق مقابل امتيازات، القراءة، إطعام حيواناتنا الأليفة، تنظيف المنزل...الخ. الصفقة الوحيدة التي فشلت بالتفاوض حولها على الرغم من أني عرضت عليها الكثير، كانت أن تتوقف عن اصطحابي لبيع البيض والخضار التي تزيد على حاجتنا لبعض التجار، كان الأمر محرجاً لي كثيراً، كنت أخشى أن تشاهدني صديقاتي برفقتها في جولاتها التجارية، وتمكنت مني أمي حينما عرضت عليّ أن تعطيني جزءاً من الربح

لأشتري فيه ما أريد لاحقاً، كان العرض مغرياً حتى إنني تطوعت للاعتناء بالدجاج دون مقابل لعلها تزيد من إنتاج البيض فأربح أكثر!

رفعت الحظر عني، وتكرمت عليّ بالسماح لي بمرافقة صديقاتي في جولة لساعات معدودة، لم ألتزم بالموعد المحدد لعودتي، وحين عدت للبيت بدا أن أمي قد استنفدت ما بجعبتها من أنواع العقاب، فعادت لتكرر نفسها، حملت إلي رواية سخيفة مملة، ومن النظرة الأولى للغلاف علمت أني قرأت هذه الرواية سابقاً وأن بإمكاني التظاهر بقراءتها، ولو فكرت باختباري فسأجيبها بسهولة فأنا أعرف تفاصيلها، ويستحيل أن تكشف خداعي، ولكنها أصرت على أن أقرأ الرواية لها، وفي المقابل ستقرأ لي رواية باللغة الإنجليزية، كان العقاب أشد مما تصورت وسأمضي الكثير من الوقت أعاني من رفقتها، حاولت التفاوض ولكنها هددت بإلغاء الاتفاقات السابقة إن لم ألتزم، فقلت لها:

- يا أمي إنها رواية مملة اختاري لي واحدة أخرى أرجوك!
- لقد اخترت وحُسم الأمر، ودورك الآن هو إيجاد طريقة حتى لا أمَّل منها.

أفسدت يومي هذه العمرة، ومتعة الساعات التي قضيتها برفقة صديقاتي نتجول ونهزأ من الشبان بطريقتنا سأدفع ثمنها غالياً، لمعت برأسي فكرة ستساعدني على تنفيس غضبي من الظلم الذي أتعرض له، هي لا تقرأ العربية، ولن تعرف يوماً مضمون القصة، وهذه فرصة ذهبية لأنتقم منها ومن كاتب الرواية الأبله، فأخذت أقرأ لها كلمة من الكتاب وعشرة من خيالي، وشعرت بمتعة لا مثيل لها وأنا أعيث في الرواية خراباً، استبدلت أسماء أبطال الرواية، والأماكن التي ذكر أنها حدثت

بها، قلبتها رأساً على عقب، لم أسمح للكاتب بأن يغرق السفينة في البحر لتموت الفتاة التي أحببتها، بل أنقذتها من الغرق وأرسلت إليها جذع شجرة لتتعلق به وتصل إلى الجزيرة، ودفعت القرصان ليسبح بالبحر وجعلت سمكة قرش تفترسه، وهكذا حررت العبيد وبنيت لهم بيتاً على الجزيرة، أزلت الكثير من الصخور وزرعت مكانها الأشجار التي أحببتها، وجعلت من الفتاة ملكة عليهم جميعاً، وبنيت لها قصراً وزرعت حدائقه بورود اخترت ألوانها، وعدت إلى المدينة وحررت الشاب الوسيم من سجنه، وتركته يبحر حتى أوصلته إلى الجزيرة ليلتقي بحبيبته ويتزوجها، كانت أمي تستمع إلي بحماس وتسألني عن بعض التفاصيل، وهي لا تعرف أني قلبت أحداث الرواية رأساً على عقب، ولم يبقَ سوى كتابة اسمي عليها، وحين انتهيت خيل إليّ أني أرى في عينيها الصامتتين سعادة من نوع ما، وقالت بنبرة صوت لم أسمعها من قبل:

- أحسنت يا كريمة، لقد أطلقت لروحك العنان وسمحت لها أن تحلق، لا تقيدها كلمات كتبها أحدهم، ويوماً ما ستكتبين قصة حياتك الخاصة بطريقتك أنت فقط.
- هل اكتشفت أني أفسدت الرواية وغيرت أحداثها.
- لقد استمتعت بالقصة كثيراً، وما دمت قادرة على التحكم بأحداثها فأنت لم تفسديها، لا تقيدي روحك يوماً، اتركيها تحلق بعيداً وتكتشف ألواناً جديدة، عندها فقط ستزورين مستقبلك، وربما تمكنت من إصلاح

الأخطاء قبل حدوثها، والآن سأتركك تكتبين قصتك الخاصة، من أنت وماذا تريدين أن تكوني.

لم يخطر هذا السؤال على بالي من قبل، لم أعتقد أنه سيقلق منامي أكثر من أسبوع وسأعجز عن إيجاد جواب له، ماذا أريد أن أكون وأي قصة أريدها أن تحكي عني، وبعد يأسي من إيجاد الجواب ذهبت إلى أمي وقلت لها:

- أنت تعرفين أسراري من نظرة واحدة فأخبريني ماذا سأكون؟
- الطرق إلى المستقبل كثيرة ولن أعرف يوماً أي طريق ستسلكين.
- أنا فاشلة في كل شيء ولن أعرف يوماً ما أريده.
- طالما كنت عنيدة، وخرقت القوانين كلها، فهل ستتركين الفشل يتحكم بك؟
- لا، لن أدع أحداً يتحكم بي وسأكون كاتبة شهيرة ثرية وأشتري سيارة.

هذا ما خطر ببالي حينها وكان حافزاً لي لأحلم، وما كنت لأصدق لو أخبرني أحدهم أني من سأسعى بنفسي لعقاب أمي، أجلس تحت الشجرة ساعات لأقرأ أي كتاب، وحينما لا أجد ما أقرأ أصاب بحالة من الهستيريا، لم يمر الكثير من الوقت حتى اتخذت قراري المجنون الأول، ذهبت إلى المدرسة حاملة بيدي اليمنى حقيبتي وباليسرى الحذاء الملعون، جمعت صديقاتي في الساحة وأخذت أنادي على كل فتاة قريبة، وضعت الحذاء على الأرض وأشعلت فيه النار، وأشرت إلى حذائي البالي وقلت:

- اسمعن جميعاً! أنا كريمة وهذا حذائي!

دقائق هي التي استمتعت فيها أراقب النيران تلتهم ذلك الحذاء، ورائحة الدخان الأسود الكريه أنعشت روحي وقلبي، وكانت كالعطر، وعلى إثر هذه الحادثة فصلت على الفور من المدرسة، وعدت إلى البيت وقد هيأت نفسي لعقاب كبير، استقبلتني أمي بالأحضان، وأخذت أردد في سري:

- لو تعلمين يا عمرة ماذا فعلت اليوم وكيف طردت من المدرسة لما عانقتني.

فشدتني إليها بقوة حتى شعرت بأنها ستسحق أضلاعي وقالت:

- أعلم، وأنا فخورة بك.

ارتجفت وقلت لها:

- يا إلهي، هل أنت ساحرة فعلاً؟ كيف سمعت ما فكرت به؟
- يوماً ما ستصبحين أماً وتسمعين أفكار أبنائك.

لم أتوقع أن عمرة المهذبة سيسعدها أنني فصلت لأسبوع كامل، وأنها ستكون فخورة بحرقي المدرسة، لم أجهد عقلي بالتفكير كيف عرفت، بكيت كثيراً حينما شعرت بالكم الهائل من الحب الذي تدفق منها إلي حينما عانقتني، مسكينة أمي كانت عاجزة عن التعبير عن حبها عبر عينيها أو ملامح وجهها، ومع ذلك سعت لتعويضي عن ذلك عبر إصرارها على عناقي في أي فرصة حتى تلك التي لا أعيرها أي انتباه، علاقة من نوع آخر نشأت بيني وبينها، أخذت أصغي إليها أكثر، أعاندها أقل، والعقاب لا بد منه بين الحين والآخر، وما عادت تفاوضني على قراءة الروايات بعد أن أدمنتها، وانتقلت بي تدريجياً لأقرأ كتبها، وكانت البداية بصفحة

كل مرة، كانت امرأة بارعة في ابتزاز ابنتها واستغلالها، كانت تصر دوماً على أن أثق بها ولم تطلب يوماً أن أحبها، اعتادت أن تقول إنه لا يجوز أن يكون بين الأم وأبنائها أسرار، حاولت كثيراً ألا تقنعني ألا أخفي عنها أسراري، يا إلهي، إنها سخافات ولكنها بالنسبة لي أسرار خطيرة قد أتشاركها مع صديقاتي، ويستحيل أن أبوح بها لأم ناضجة، وعلى كل الأمهات أن يتفهمن أن الأسرار جزء من حياة البنات، ومهما كانت الابنة قريبة من أمها فهي تحتاج إلى أن تشاغب قليلاً بعيداً عنها.

صار لدي حلم وهدف، أريد أن أكون كاتبة، وعليّ البدء بكتابة بعض القصص القصيرة، اخترت كبداية أن أكتب عن حيواناتي الأليفة وكيف نجحت في بناء صداقة بين قطتي وكلبي، توطدت علاقتي بأخي الصغير ابن السنوات الست الذي لا يمر شهر دون أن يمرض، يتلعثم ويعيش في عالم لا يعرف فيه إلا أمي، والقليل من أبي. لن يذهب إلى المدرسة قريباً حتى تطمئن أمي إلى أن حرارته لن ترتفع فجأة، وأنا لم أعد أعلمه العربية مقابل امتيازات أحصل عليها من أمي، فقد صرت أحب تعليمه، كنت معلمة لطالب واحد، وهذا عزز ثقتي بنفسي، وهذا أيضاً نفعني، فقد اختبرت عليه الكثير من قصصي القصيرة، يا إلهي كم كان بريئاً يصدق أي شيء أقوله، ولا يميز بين الواقع والخيال، لم تمر عدة شهور حتى أتقن القراءة والكتابة، شعرت بالغيظ ولكني كنت أعزي نفسي بأنه ليس أذكى مني وإنما أنا معلمة عبقرية، تعلق بي وأخذ يطاردني في كل مكان، وكان عليّ أن ألفت انتباهه

إلى أني لست والدته فليذهب إليها، وأحمد الله أني لم أفعل، وكانت مكافئتي حين عانقتني أمي وقالت:

- الحب الذي منحته لشقيقك ساعده على الشفاء، لم ترتفع حرارته منذ أشهر والفضل يعود إليك، كم أنا فخورة بك يا كريمة.

شعرت بعواطفها وكان الموقف مؤثراً لا ينقصه إلا الدموع، فبكيت عني وعنها، كم كانت فرحتي أني لم أعلمه فقط بل كنت سبباً في شفائه، اتخذت قراري ببذل كل جهد لشفاء لسانه من اللعثمة، ورافقت أخي إلى المدرسة في يومه الأول، كان أنيقاً وحذاؤه جديداً، من حسن حظه أن ظروفنا المالية كانت أفضل من السابق.

لم أعد أملك الوقت، فأنا أحتاج الكثير منه لأعوض سنوات الفشل بالدراسة، وكذلك للاعتناء بأخي وتعليمه، وللقراءة التي كانت الهواء الذي أتنفسه، ولولاها لما وجدت نفسي، إضافة إلى الكثير من المهام المرهقة التي عذبتني بها أمي، المهمة الأحب إلى قلبي كانت أخذ البيض والخضار إلى التجار مرة في الأسبوع، ثلث الأرباح كانت من نصيبي وقريباً سأتفاوض معها على النصف، سأدخر النقود وحين أكبر سأحقق حلمي العظيم وأشتري سيارة، كنت فخورة ولم أعد أشعر بالخجل.

جَاءَ اليوم الذي اكتشفت فيه أن أمي هي من تخفي عنا الأسرار، وحدث هذا حينما ذهبنا لزيارة المرأة الوحيدة التي تعانقها أمي ولا تعتبرها من الغرباء، خالتي الثرية التي تسكن في بيت فخم له حديقة واسعة، ومع هذا لم أره يوماً أجمل من بيتنا، تملك سيارة مرسيدس فضية، لم نزرها يوماً إلا وكانت تعمل في الحديقة، أبناؤها أكبر مني ولم أنسجم معهم يوماً، ومن حسن حظي أنهم لم يكونوا ذلك اليوم في البيت وهي فرصة لأقضي الكثير من الوقت أجلس في السيارة وأتخيل نفسي أقودها، خالتي أكبر من أمي وعكسها تماماً، فهي لا تتوقف عن الضحك والمزاح، ولكنها بخيلة مثلها، حينما رأتنا شعرت بأنها ستفقد صوابها، أخذت تعانقنا وبدا أنها محتارة من عليها أن تقبل أكثر، أردت أن أخبرها أن تعطي نصيبي من القبلات لأمي، ولكنها أصرت على أن تعذبني فأنا "كيكي الصغيرة" ولا يهمها كم بلغ طولي، وحين همست لها أمي أني بلغت زادت نصيبي من القبلات، كنت أفضل أن تعطيني مفاتيح سيارتها وتسمح لي بتحريكها للخلف والأمام وسأكتفي بمتر واحد فقط، وبعد حديث ممل بين السيدتين، انتقلت أمي لتوبيخها:

- ألن تكفي عن إفساد بشرتك بهذه المواد الكيماوية؟
- سأكف عن كل شيء إلا عن المكياج، فلا ينقصني أن يتزوج عليّ سعيد.
- لقد بلغ سناً لا يسمح له بالزواج، اطمئني.
- وما أدراني أنه لا يتظاهر بالمرض وأنت من علمتني أن الثعلب يبقى ثعلباً مهما بلغ عمره.

ضحكت خديجة ولم تضحك أمي، وانتقلنا لشرب الشاي، كان سيسرني لو طُلب مني مثل كل مرة أن أذهب للعب، ويبدو أني الوحيدة التي لم تلاحظ أني كبرت وأن بإمكاني مشاركة السيدات شرب الشاي والاستماع لبعض النكات التي ستطلقها خديجة طبعاً دون أن تبتسم أمي، وسرعان ما اكتشفت أن السماح لي بمشاركتهما الجلسة عقاب لا مكافأة، وسرعان ما شعرت بأن خديجة تبحث عن طريقة لإبعادي لتنفرد بأمي، أسئلتها الكثيرة وملامح وجهها دلت على ذلك، وأخيراً وجدت الطريقة ودعتني أن أذهب إلى مكتبتها لاستكشف الكنوز التي جمعتها، وما كنت لأتردد بالهرب من الملل، لأغوص في ذلك البحر المثير، ولكن الفضول كان أقوى ودفعني لأتنصت سراً عليّ أكتشف سر طردي المهذب وسمعت:

- يا عمرة، أرجوك لا تكوني عنيدة، ابنتك لم تعد طفلة، وهي بحاجة إلى أن تستمتع في هذه السن، ولا بد أنها تراقب ما ترتدي الفتيات وتتحسر على حالها.
- أعلم أنها كبرت وقد علمتها أن تنظر إلى عقول الناس لا إلى أحذيتهم، وقد تجاوزنا السنوات الصعبة واليوم أوضاعنا أفضل بكثير، وهي تشاركني إدارة البيت ولها الحرية في شراء ما تريد.
- وهل يعقل أن تصحبيها معك لبيع ما تزرعينه من خضار؟
- وما العيب في ذلك؟ عليها أن تتعلم كيف تساعد عائلتها.
- لا عيب في ذلك، بالعكس هو فخر، ولكن أنت لست بحاجة لكل هذا.

- كيف لا أكون بحاجة وما يجنيه حسان من عمله لا يكفينا، ومرض الصغير احتاج إلى الكثير من المال.
- أرجوك يا عمرة، لا تعذبيني أكثر بعنادك، المال الذي أعطيتني إياه يستحيل إنفاقه، وهل يعقل أن تحرمي نفسك وأولادك منه، لولاك لكنت ما زلت أسكن ذلك البيت الحقير.
- إنه البيت الذي ترعرع فيه زوجك وأولادك، فلا يحق لك إهانته، وأنا لم أعطك شيئاً أملكه، أنت لا تدينين لي بشيء.
- آسفة، قصدت البيت الصغير السعيد الظريف الدافئ، لكن الحقيقة أن جدك منحك كل هذا المال وأنت قررت إعطائي إياه.
- خديجة، كم مرة عليّ أن أشرح لك أن جدي أعطاني هذا المال وترك لي حرية التصرف فيه بعد أن حكى لي قصته، هذا المال لم يكن لي يوماً لأحتفظ به، وأنا اتخذت القرار الصائب أن أعيده لأصحابه.
- لن تقنعيني يوماً يا عمرة، وشقيق زوجي الضرير أخبرني القصة كاملة وأنت وحدك كنت صاحبة القرار.
- لن أهدر وقتي في إقناعك؟
- هل سيأتي اليوم وتخبريني كيف أخذ جدك ثروة زوجي بموافقته؟ تعلمين أن سعيد ما زال مصراً على عدم التحدث في الموضوع.

- بإمكاني أن أخبرك عن أسراري فأنت جزء من عائلتي يا خديجة، ولكن أسرار جدي لا يحق لي الحديث عنها، والآن أخبريني ماذا يفعل الضرير في حياته؟
- لا شيء تغير فيه، ما زال سليط اللسان، يزورنا بين الحين والآخر وجمله الجديد وقح لا يتوقف عن العبث بحديقتي، علاقته بأبنائي قوية أما علاقته بسعيد فلا تزال فاترة، حاولت معه كثيراً أن يترك عمله لكنه بقي مصراً على مطاردة السواح والغياب عن زوجته أياماً وأحياناً أسابيع، ودوماً يسأل عن أخبارك وأخبار عائلتك.
- لقد اختار طريق حياته يا خديجة وأنا سعيدة من أجله.
- ما دمت جزءاً من عائلتك هل تسمحين أن أقدم لكريمة هدية لمناسبة بلوغها.
- كريمة كبرت وقد منحتها حرية اتخاذ الكثير من القرارات فاسأليها.
- هل أفهم منك أنك لن تتدخلي إن اتفقنا، خاصة فيما يتعلق بتعليمها الجامعي مستقبلاً.
- الوقت ما زال مبكراً على هذا، ولكن حينما تجد طريقها ستتخذ قرارتها بنفسها، وجدي سيوفر لها الدعم كله.
- اعذريني يا عمرة، فجدك هذا الذي أسمع به ولا أعرف من يكون أطال الله عمره، قد لا يكون موجوداً حينها، وبصراحة الظروف التي مررت بها

في السنوات الماضية تبكي الحجر، وكان الأولى به أن يساندك أنت لأثق بأنه سيساند كريمة.

- جدي لم يتخل عن عائلته يوماً، وحين يحين الوقت وتتعرف إليه ابنتي فستكون قادرة على اتخاذ القرار بأن تطلب مساعدته من عدمها، أما أنا فقد منحني جدي الفرصة لأحقق كل ما حلمت به يوماً، إيجاد بيت العائلة القديم وإعادته إلى ما كان عليه، ويوماً ما سأعثر على أفراد عائلتي من الماضي وأعرفهم على عائلتي في الحاضر، وماذا كنت أريد منه أكثر من ذلك، هل كان عليّ أن أطلب منه أن يشتري لأبنائي الملابس والألعاب، أو يحمي عائلتي من الغرباء وأنا قادرة على أن أفعل ذلك بنفسي، جدي لا يقدم المساعدة لأفراد عائلته إلا إن طلبوها، والفقر الحقيقي هو الجوع ونحن لم نجع يوماً، فلدينا الماء والأرض وهي لم تبخل علينا في الماضي أو الحاضر.

كان حديثاً صادماً مليئاً بالأسرار، وحين شعرت بانتهائه عدت إلى المكتبة وتظاهرت بأني منهمكة بقراءة كتاب فجاءت خديجة إلي:

- اليوم أنت كبيرة وأمك لن تتدخل بيننا، فماذا تريدين أن أشتري لك هدية أقصد هدايا.

ابتسمت بخبث وسبلت عيني وما كنت لأتخلى عن هذه الحركات يوماً، وقلت لها:

- أريد الكثير من الأحذية والملابس ومكياج وسيارة...

كانت فرصة ولم أتوقف حتى تعب لساني وكانت أمي تراقب بصمت وخديجة فرحة وردت:

- سأقدم لك عيني إن طلبتها وسأشتري لك كل هذا، أما السيارة فسنؤخرها قليلاً، ولكني أعدك بها بعد أن يسمح لك بالقيادة، فأنا أخاف عليك.

يا إلهي، كل شيء أردته أرى أنه أصبح في متناول يدي فجأة، والإغراء كان أقوى من قدرتي على مقاومته، أشعر بغضب أخفيه خلف ابتسامة زائفة، لن أهدر هذه الفرصة ولكني أشعر بأن وقتها لم يحن بعد، فقلت لها:

- سأكتفي حالياً باستعارة بعض الكتب من مكتبتك، وأعدك إن احتجت شيئاً فسآتي إليك فوراً، هل أنت موافقة؟
- لا، لست موافقة على حرماني من فرصة أن أفرح بأني قادرة على أن أقدم لك شيئاً ولكني واثقة من أنك تعتبرين أني أمك الثانية ولن تترددي في أن تطلبي مني شيئاً.

كنت أريد حمل الكتب كلها ولكن عليّ أن أكون مهذبة أمام أمي، فاكتفيت بما أستطيع حمله، بعد أن وعدتها بأني سأعيد ما أخذته، عرضت علينا أن توصلنا بسيارتها ولكن أمي رفضت بحجة أنها تريد أن تصحبني في نزهة، وفي الطريق سألتني:

- لماذا ضيعت على نفسك مثل هذه الفرصة؟

فرددت عليها بنبرة حادة:

- لم أفوت شيئاً، سأفكر قليلاً وربما سأعود غداً لأحصل على ما أريد ما دمت أملك حرية اتخاذ القرار، هي أموالك وأنا أحق بها من خديجة وأولادها!!
- وهل من التهذيب التنصت على أحاديث الآخرين؟
- وهل من التهذيب أن تعلميني أنه لا يجوز أن نخفي الأسرار عن بعضنا وأنت الوحيدة التي لا تتوقف عن الكذب؟!
- انتقِ ألفاظك يا كريمة.

لم أتمالك نفسي أخذت أبكي وأصرخ:

- لا، لن أنتقي ألفاظي لا أريد أن أكون مهذبة، أنت أم كاذبة ظالمة لا تحب عائلتها، حرمتنا من كل شيء، وأعطيته لعائلة خديجة، ومَن هذا جدك الذي لم أسمع به قبل اليوم؟؟
- حين يحين الوقت سأخبرك كل شيء، ما زلت صغيرة يا ابنتي.
- حان الوقت لتقرري هل أنا كبيرة بما فيه الكفاية وأستحق ألا تكذبي عليّ، أم صغيرة وسأفعل ما أشاء ولن أسمح لك بالتدخل في حياتي.
- لم أكذب على أحد يوماً لأكذب عليك، وأنت قطعة من روحي وجسدي، تعالي لنعد إلى البيت وحين نصل لن أخفي عنك شيئاً.

صبرت على مضض وحين وصلنا اطمأنت إلى أن أبي اعتنى بأخي جيداً في غيابها، تأخرت فذهبت إليها وأشرت إليها بإصبعي وقلت:

- هل تتعمدين التهرب مني؟

طلبت أن أذهب وأن أنتظرها في الحديقة، وفعلاً لم تتأخر، صمتت قليلاً ثم قالت:

- سأروي لك قصة الثروة التي تتحدث عنها خديجة باختصار وأنت أخبريني ماذا كنت ستفعلين لو كنت مكاني؟
- والد سعيد كان أحد أصدقاء جدي منذ زمن بعيد، وفي إحدى الأيام وجد تحفة من الذهب على شكل أفعى، فطلب منه جدي أن يعيدها إلى مكانها، وكان سيفعل، ولكن سعيد كان شاباً سيئاً في حينه، فسرق الأفعى وكل ما يملكه والده من نقود وهرب بعيداً، باع الأفعى لتاجر واستثمر النقود وجنى ثروة كبيرة، وعلى أثر ما فعله باع والده البيت وانتقل إلى مدينة أخرى وتزوج وأنجب ولداً تعرض لحادث تسبب في أن يكون ضريراً. جدي بعد سنوات لأسباب لا أعرفها أخذ ثروة سعيد وجعله مفلساً، وأقرضه المال ليشتري منزل والده الصغير، ويعيش فيه مقابل أن يكون مديناً له بخدمه، ربما كان هدف جدي أن يعاقبه، وربما له أهداف أخرى فكل شيء يفعله يقود إلى نتيجة غير متوقعة، وحينما أرسل جدي في طلبي لآتي إلى هذه البلاد، فرحت وعلمت أنه سيوكل إليّ مهمة البحث عن بيت عائلتنا القديم، لقد هيأني لهذه المهمة منذ كنت صغيرة، لقد تعلمت لغة هذه البلاد طوال سنوات من أجل هذه المهمة، بعد أن فشل هو بنفسه، على الرغم مما بذله من جهد، وكان على ثقة بأني سأنجح في ذلك، لأني عشت حياتي السابقة فيه، حينها أخبرني قصة سعيد وشقيقه الضرير، عرفني بأحد أصدقائه الذي يحتفظ بالوثائق

والأموال التي استولى عليها جدي وترك لي الخيار في أن أتصرف بها كما أشاء، لقد كان هذا أسلوب جدي، دوماً يتركنا أمام خيارين أحدهما سهل والآخر صعب، وعلينا أن نختار، انطلقت في مهمتي وتعرفت على سعيد وخديجة وأولادهم، ووالدك والضرير، وتبين أن كل شيء فعله جدي في الماضي ارتبط ببعضه البعض، وبعد أن أوفى الجميع بوعودهم كان عليّ اتخاذ القرار بما عليّ فعله بالثروة التي تركها جدي بين يدي، وقراري كان إعادة الثروة لأصحابها فأنا ما كنت لأسمح ببناء بيت العائلة بأموال غيرنا، وعرضت على الضرير أن أقسم المال بينه وبين شقيقه، فأخبرني أنه لم يعد بحاجة إلى أي شيء، وطلب أن أمنح المال لزوجة شقيقه وأبنائها شرط ألا يتحكم سعيد بالمال يوماً، كنت سعيدة بهذا القرار فأنا لا أثق بسعيد، وخديجة أثبتت أنها قادرة على الاعتناء بعائلتها أفضل منه، إضافة إلى أني لم أسامحه يوماً على خداعه والدك ليدفعه إلى الزواج مني. أعدت الأموال لتكون تحت وصاية خديجة فقط، بعد أن قبلت بالشروط، هذه القصة باختصار ولو كنت مكاني فهل ستأخذين مالاً ليس لك وأنت تعرفين من هم أصحابه؟

انتهت أمي من سرد القصة الغريبة، والحقيقة أني لم أفهم منها شيئاً سوى أن أحدهم سرق مالاً، وأن جدّها سرقه منه، ومنحه لأمي لتتصرف به كما تشاء. فأجبتها عن سؤالها:

- بما أن جدك سرق هذا المال ومنحك إياه فقد كان عليك أن تحتفظي بجزء منه، ولو فعلت لكنت ثرية واشتريت لي سيارة!
- صحيح أن جدي رجل بغيض ومزعج ولكنه لم يكن لصاً يوماً، لقد منحني الخيار لاتخاذ القرار الصائب، وعلى الرغم من أن سعيد مخادع فقد وفى بوعده، واعتنى بي، وساعدني، وكذلك الأمر فعل شقيقه الضرير، وأنا كنت محظوظة بوالدك الذي أعاد إلي بيت عائلتي القديم، ومعه أنت وأخوك، فماذا أريد أكثر من ذلك يا حبيبتي؟
- أمي، لقد فهمت أنك ترفعتِ عن أخذ عمولة صغيرة مقابل جهودك لإثراء الآخرين ونحن فقراء، لا يهم سأفعل ذلك لاحقاً، والآن عليك أن تخرجيني من حيرتي فلم أعد أفهم شيئاً! لقد أخبرني والدي أنك سائحة تعرف عليك وتزوجك، ومعاً بنيتما بيتاً كان يملكه والده، وأنت تقولين إن هذا البيت ملك لعائلتك، وعمتي أخبرتني يوماً أن البيت للجن، وأنت أخبرتني أنك ابنة متبناة لعائلة في إنكلترا، واليوم أفهم أن لك جدّاً يسكن بلادنا وقد اعتنى بك منذ كنت صغيرة، أمي من يكذب عليّ؟ أنت أم والدي؟ وهل سأكتشف أني لست ابنتك أيضاً؟
- حبيبتي، هلّا تصبرين وسأشرح لك كل شيء مع الأيام.
- لا، لن أصبر دقيقة واحدة، أريد أن أعرف كل شيء الآن! هل أنا ابنتك أم ابنة امرأة أخرى؟ وإن لم تكن ثرية فلا أريد أن أعرف، أعلم أني أشبهك لهذا عرفت الجواب سلفاً.

- وهل عقلك الصغير يا كريمة سيفهم أن هناك حياة بعد الموت، وعائلتنا تمتلك القدرة على الانتقال من حياة إلى أخرى، وفي زمن ما عشت في هذا المنزل أنا وعائلتي قبل أن يهدم، هل تجدين أنك جاهزة لتدخلي هذه الدوامة؟
- عقلي صغير في الدراسة فقط، وأنت تعلمين جيداً كم أنا ذكية، كوني صريحة معي، هل ما قيل عن أنك تعبدين الشيطان صحيح يا أمي؟
- لا يا حبيبتي، نحن لا نؤمن بوجود الشيطان حتى نعبده وأنت على دين والدك ولن أجادلك في ذلك يوماً.

أغمضت عيني وفردت ذراعي استعداداً للقفز والرقص فرحاً إن كان جوابها على سؤالي التالي سيكون كما أحب:

- إذن أنت ساحرة! وأنا سأصبح ساحرة مثلك يوماً ما! أرجوك قولي نعم حتى أفرح!!
- لست ساحرة، ولن تكوني أنت أيضاً.
- إذن ماذا؟ نحن مجرد عائلة فقراء لا أكثر؟!
- لا، نحن أثرياء بما نعرفه عن الحياة، وعندما تكبرين ستعرفين الكثير، فأنت تنتمين إلى عائلتنا.
- وهل هذا الثراء الذي تتحدثين عنه سيشتري لي سيارة يوماً ما؟
- بإمكان أي شخص أن يعمل ويبتاع سيارة، ستحصلين على ما هو أثمن من ذلك بكثير.

- وهل سألتقي جدّك يوماً ويعطيني الكثير من المال؟
- ستلتقين به يوماً ويعطيك ما هو أثمن بكثير.
- وهل لدي خالات وأخوال أثرياء؟
- كان لدي ولكنهم ضاعوا مني، وسأجدهم يوماً ما.
- إذن عائلتك العجيبة هذه لن نجني من ورائها إلا الفقر، فهل لديك قصة أخرى يا أمي تكون أكثر سعادة وثراء.
- ليس بالضرورة أن نكون فقراء، ولكن ظروفنا عاكستنا قليلاً وأنت بإمكانك الاجتهاد والحصول على ما تريدينه، والسعادة فيما نملك.

مقولة أمي التي لم تتوقف عن ترديدها، لم ترق لي يوماً، بالنسبة لي السعادة بما تملكه خديجة، أما أنا فعليّ أن أراقب الدجاجات لتبيض وأدخر المال.

رفضت إخباري بأي شيء آخر عن عائلتها، أو أسرار البيت لأنها وعدت والدي ألا تفعل قبل بلوغي السادسة عشرة من عمري، أحببت فكرة كوني جزءاً من عائلة عجيبة، ولم أمانع حتى لو كنا مصاصي دماء، ولكن خاب أملى كثيراً، فلا شيء يميزنا عن الآخرين حتى إننا كنا أقل منهم، ومع هذا كنت امل أن تأتيني أمي يوماً وتزف لي بشرى بأنه قد حان الوقت لأكون ساحرة عظيمة، وأتمكن من شراء سيارة، وارتعبت من فكرة أنه ربما يوماً ما سأكون مثلها لا أبكي لا أبتسم لا أحزن لا أغضب.

فِي الرابعة عشرة من عمري، أدمنت القراءة وكلما وصلت إلى الصفحة الأخيرة من كتاب نضجت أكثر، ولم أعد ذات الفتاة عند الصفحة الأولى، وهكذا اكتشفت أن عالمي أكبر من عالم صديقاتي، وليس بالضرورة أن أكون ساحرة لأحقق أحلامي. لم أغلق الباب أمام هذا الحلم لعله يتحقق، الحياة كانت أسهل حينما علمتني المرأة التي لا تبتسم كيف أبتسم، فيزول حزني، وهموم الأمس تتلاشى إن تجاهلناها والحذاء الجديد لم يكن مفتاح السعادة ولا الشقاء، تحسنت أوضاعنا المالية وامتلكت الكثير من الأحذية، وكنت أشتاق إلى حذائي القديم الذي ضاق على قدمي، والأيام كانت كفيلة لتخبرني أن أمي لم تكرهني يوماً لهذا لم أعد أراها المرأة الشريرة التي كان كل همها كيف تعذب ابنتها، فسألتها يوماً:

- لماذا لم تخنقيني وترميني في البئر وتريحي نفسك مني؟
- لأنه لا يوجد في الكون بئر يتسع لقلب أم لتلقيه فيه!

أبي المسكين لم يخف دهشته وهو يراقب ابنته تعاني وتبذل كل جهد في دراستها. لم يكن من السهل تعويض سنوات الفشل، أعلم أنه اشتاق إلى أن أتدلل عليه وأمارس خداعي ليفعل ما أطلب، لا شيء يحبه أكثر من هذا، وأنا ما كنت لأحرمه منه بين الحين والآخر، ولم يصدق حين أخبرته أن أمي لن تعارض إن ذهبنا إلى بيت عمتي لمشاهدة التلفاز، فرد عليّ:

- هل تخدعيني مجدداً يا كريمة؟
- وهل سبلت عينيّ يا أبي؟

لم أخدعه ولم نذهب لمشاهدة الشيطان والحقيقة أن أمي تركت لي الحرية أن أتخذ هذا القرار بعد أن شرحت لي الأضرار التي سيلحقها بذاكرتي وخيالي، لم أعد أشعر بذلك الشوق لما يعرض على التلفاز بعد اكتشافي متعة القراءة، والأهم أني كنت بحاجة لهامش من الحرية لاتخاذ قراراتي بنفسي، نظرات أبي لم تتغير تجاهي، وصدقت أمي حين قالت إن الأب لا يلاحظ أن ابنته تكبر إلا عندما يأتي من يخطفها منه، وكان عليّ أن أنبهه إلى أن كريمة الصغيرة قد كبرت وطلبت منه أن يحكي لي قليلاً عن أمي.

لم يفهم ما أقصده في البداية حتى أخبرته أن أمي قد حكت لي أنها عاشت في هذا البيت في زمن ما، وأني قد قرأت الكثير من الكتب التي تحكي عن تناسخ الأرواح، لهذا أنا مؤمنة بكل حرف قالته، نجح الأمر واعتدل والدي في جلسته ونظر إلي بطريقة مختلفة ثم قال:

- إياك أن يسمع أحد بهذا الأمر! فقد عانت أمك بما فيه الكفاية فقط لأنها اختارت السكن في هذا البيت، فكيف إن سمع أحد بقصتها؟! ولله في خلقه شؤون وليس علينا أن نهتم بما لا يدركه عقلنا.
- علينا أن نهتم يا أبي، فهذا بيت عائلتنا وعلينا أن نعرف أسراره.
- لا يا ابنتي، ليس مطلوباً أن نعرف كل شيء، فهناك أمور يمنعنا ديننا من البحث عنها.
- وهل الله هو من منعنا؟ أم بعض البشر الذين نصبوا أنفسهم للتحدث باسمه؟

- كريمة، هذا الجدل سيقودك إلى طريق الكفر فتجنبيه!

- أنا أؤمن بالله يا أبي، وليس عليّ أن أؤمن بما يقوله البشر.

عجز عن مجاراتي في الحديث ومارس سلطته الأبوية لإنهائه وتركني في حيرة، أبي كان مؤمناً لم يقطع صلاته يوماً. أمي كانت تؤمن بوجود خالق للكون ولم تتبع أي دين ووقفت على الحياد، ولم تعلق أو تشارك في أي نقاش دار بيني وبين والدي حول الدين، وفي رمضان كانت تعد لنا طعام الإفطار ولا أذكر يوماً أنها انتهكت حرمة الشهر الفضيل، وكلما سألتها عن أمر له علاقة بالأديان كان ردها:

- لا أملك الإجابات يا ابنتي.

كانت الحياة أسهل قبل أن أعرف قصتها، وازدادت صعوبة بعد حواري مع أبي، وأنا أيضا لا أريد أن أبحث فيما يتعارض مع ديني، على الرغم من قناعتي بأن والدي لم يبلغ من العلم ما يخوله معرفة ما يغضب الله، لا شيء يعذب فتاة صغيرة أكثر من الخوض في أسرار الحياة، وحين يزدحم عقلنا بأسئلة يستحيل الإجابة عنها، نختار ألا نرهق أنفسنا ونكتفي بما توفر من إجابات، ونتجاهل ما لم نجد، أخبرت أمي أني لا أريد معرفة أي شيء عن عائلتها السابقة وعن البيت، لا الآن ولا مستقبلاً.

وَجَدتُ راحتي لفترة طويلة من الزمن لكن الفضول عاد إليّ مجدداً، فذهبت إلى أمي وقلت لها:

- أريد أن أعرف كل شيء عن منزلنا، وعن عائلتك القديمة.
- ما الذي غير رأيك بعد مرور كل هذا الوقت؟
- أنت عائلتي يا أمي وعلي أن أعرف كل شيء حتى أتمكن من الحفاظ على بيتكم.
- ما رأيك أن نترك هذا الموضوع حتى انتهائك من امتحانات الثانوية.

وافقتها الرأي ولكن عدت بعد أيام وقلت لها:

- لا يا أمي لقد تريثت بما فيه الكفاية وأنا جاهزة الآن لكل شيء.
- إذن، حان الوقت للقاء جدي.
- نعم، هيا نذهب إليه الآن، فأنا أريد التعرف إليّه.
- عليّك الانتظار وأنا على ثقة بأنه سيجد الوقت ليزورك بنفسه.
- إذن، حدثيني عنه، أين يسكن ماذا يعمل كيف هو؟
- حالما تتعرفين إليه بإمكانك سؤاله، ولكن عليّ أن أحذرك من أنه رجل مخادع، بغيض، مستفز غير مهذب، ولا ينتقي ألفاظه، وقد لا يسرك لقاؤه.

أَمضيت أياماً وأنا أتخيل كيف سيكون شكل جد أمي، هل سيكون عابساً مثلها، لا يضحك، لا يبتسم، لا يحزن، هل عليّ أن أقبل يده مثلما أفعل مع أبي؟ أم عليّ تسبيل عيني والتدلل عليه ليعطيني الكثير من المال؟! ربما سيكون ساحراً كبيراً

وسيقول لي لقد اخترتك يا كريمة لأورثك عصاتي السحرية!! لم أنجح في رسم صورة له، كيف سيكون! ماذا يعمل! والأهم ماذا يمتلك؟! أسابيع مرت ولم يزرني جدّها، يبدو أنه مشغول بما هو أهم مني. وأنا انشغلت بتحقيق معجزتي، وأثمر الوقت الذي استثمرته بأخي فلم يعد يتلعثم، أشك في أني سأتمكن من تجاوز امتحانات الثانوية، مع أنه لو تقدم لها اليوم رغم صغر سنه لنجح، أشعر بالغيرة منه فهو ناجح في كل شيء، يقرأ ويتحدث الإنجليزية أفضل مني، لم يترك كتاباً لوالدتي إلا وقرأه، ولن يمر عام حتى ينهي كل ما قرأته من كتب بالعربية، وجد حلمه سريعاً، يريد أن يصبح رائد فضاء ويكتشف كواكب جديدة، حلمه مستحيل ولكنه يملك الإيمان بأنه سيحققه يوماً.

من الظلم ألا ينقل إلى المرحلة الثانوية فوراً، حتى لا يهدر وقته بالجلوس بجوار طلبة فاشلين، وفي نهاية العام سينتقلون معاً لمرحلة جديدة، هذا ما حدث معي طوال سنوات، أنتقل من مرحلة إلى أخرى دون أن أستحق ذلك، إدارة المدرسة لا تريد أن تزدحم الفصول بالراسبين من أمثالي، لهذا لا حاجة لبذل أي مجهود للنجاح، النظام والقانون مقدس في المدارس يظلم المتفوقين من أمثال أخي ويكافئ الفشلة من أمثالي، الوقت من تراب ولدينا منه الكثير، وعلى أمثال أخي الالتزام بالنظام وإهدار سنوات من عمرهم برفقة الفشلة، أغار منه مع أني فخورة به كثيراً، أحب كثيراً ما يبذله من جهد لينال إعجابي، سعيدة لأنه بمدرسة الأولاد وإلا لكان اكتشف حقيقة أني لا أصلح أن أكون قدوة له، كان مفيداً لي في تطوير لغتي الإنجليزية، فقد رضعها من أمي صغيراً وبرع فيها.

ما زلت أنتظر أن تتوقف سيارة فخمة أمام منزلنا ويترجل منها رجل أنيق يرتدي بذلة وربطة عنق، ويخبرني أنه جد أمي ويطلب مني مرافقته في جولة لزيارة بعض معارض السيارات ويشتري لي واحدة، وربما يهديني إحدى شركاته الكثيرة، لا أشك في أنه رجل ثري، فلا يعقل أن يكون غير ذلك! خاصة بعد أن عرفت عن الثروة الكبيرة التي منحها لوالدتي وبدورها تنازلت عنها لخديجة، وما دام فعل ذلك فهو يملك أضعافها، لم أتوقف عن الانتقال من مشهد إلى آخر، حتى خيل إلي أنه قد يكون رئيس دولة ويأتي إلى بيتنا في موكب مهيب، لم يحدث أي من هذا ونسيت الأمر برمته.

ومثل كل يوم وفي الوقت الذي خصصته للقراءة حملت كتاباً وجلست تحت شجرة أحلامي، ورأيت ما ميز هذا اليوم عن غيره، عجوز غريب المظهر، أبيض الشعر واللحية، ذو هيبة ووقار، ثوبه الأبيض أشبه بالرهبان لا بأصحاب الشركات، يليق به أن يكون أحد سحرة العصر القديم، لم أرَ أحداً يشبه من قبل، خفق قلبي وتيقنت أنه جد أمي وجاء لزيارتي، لم يكن كما أردته أن يكون، ولكن كلي أمل أن يكون ساحراً ويحولني إلى ساحرة عظيمة، اقترب مني وحدق بي بصمت، انتظرت أن يعرف عن نفسه ولم يفعل، فارتبكت وتلعثمت، كان عليّ أن أقول شيئاً:

- هل أحضر لك شيئاً لتشربه يا يا يا جدي؟
- نعم، أحضري لي القليل من النبيذ، فكما أرى لديكم الكثير من العنب وأمك ماهرة في صنع النبيذ الجيد.
- أمي لا تصنع النبيذ؛ فهو حرام يا جدي.

- الحرام أن تهدروا هذا العنب ولا تصنعوا منه ما يفيد!
- أمي تصنع منه أشياء كثيرة مفيدة وتبيع منه أيضاً، فهل أحضر لك شيئاً مما تصنعه؟

لم يرد وصمت مجدداً فقلت:

- لم أتخيلك بهذا الشكل يا جدي.
- وأنا لم أتخيل نفسي هكذا يا بطة.
- اسمي كريمة يا جدي.
- أنت تشبهين البطة أكثر من كريمة.
- أنا لا أشبه البطة ولا أحب أن تناديني بهذا الاسم يا جدي.
- لم أطلب إذنك يا بطة، والآن اذهبي إلى تلك الشجرة وأحضري لي حبة تفاح من الأعلى وعودي إلي، فجئت له بحبة تفاح، فطلب مني الجلوس وأن أرفع التفاحة وأسقطها على رأسي، ففعلت ما طلب، وأخذ يقهقه، فسألته لماذا طلب مني أن أفعل هذا فرد عليّ:
- أردت أن أختبر إن سقطت التفاحة على رأسك كما حدث مع نيوتن فأي نظرية ستكتشفين يا بطة؟
- وماذا عليّ أن أكتشف من هذا الفعل الغريب يا جدي؟
- نظرية أنك بطة سخيفة.

كظمت غيظي ومنعت نفسي من الصراخ في وجهه وقلت:

- لقد أخبرتني أمي أنك ستعلمني الكثير، وستكشف لي أسرار البيت والعائلة، لا أن تسخر مني!
- لا أسخر منك وإنما أخبرك بحقيقة أنك بطة سخيفة حشت رأسها بروايات خيالية وصدقت أحلام أمها المجنونة بأن هناك أسراراً لتكتشفها.

لم أمنع نفسي من البكاء فضحك وقال:

- بطة سخيفة وتبكي! يا لهذا اليوم المبلل الممل.
- لماذا تفعل هذا يا جدي؟ هل من الصعب أن تكون مهذبا؟
- أمك الوحيدة المهذبة في عائلتنا، لهذا لا تبتسم ولا تضحك.

لم يتوقف عن السخرية ولم أعد قادرة على الاحتمال، فتركته وذهبت إلى أمي ولمتها لأنها لم تخبرني أن جدها مجنون، لم تعرف أنه يجلس في الحديقة حتى أخبرتها، ولم أشعر بأنها كانت مهتمة بلقائه فشكوت لها أنه غير مهذب وأسلوبه فظ ولا يتوقف عن السخرية مني فقالت:

- لقد أخبرتك سابقاً أن جدي غير مهذب وغريب الأطوار.
- هل أنت مجنونة وكاذبة كما أخبرني؟
- إن قال لك هذا، فهذا ما فكرت به أنت، وعليك أن تجدي الإجابة بنفسك.
- لا أريد إجابات، أريده أن يرحل عن بيتنا فاذهبي إليه وأخبريه ألا يعود إلينا مرة أخرى.
- إن كانت هذه رغبتك فعليك أن تفعلي هذا بنفسك.
- نعم، سأفعل ذلك وأطرده.

اتخذت قراري وسأثبت لها أني قادرة على تنفيذه، عدت إلى العجوز ووقفت أمامه، ترددت قليلاً قبل أن أقول:

- لن أسمح لك بمناداتي بالبطة السخيفة مرة أخرى.
- سأفكر بالأمر ولكن علينا أن نتفاوض على ذلك، فما رأيك أن أتوقف عن مناداتك بالبطة السخيفة مقابل أن تحضري كوب ماء وتسكبينه على رأسك؟
- لا لم نتفق ولن أسمح لك بالسخرية مني مرة أخرى.
- فكري بالأمر قليلاً وستجدين أنك الرابحة.
- وما الذي سأربحه إن فعلت؟
- سأضحك قليلاً وسأمتنع عن وصفك بالبطة السخيفة، وسأختار لك اسماً آخر.
- وأي اسم ستختاره لي؟
- الوزة المبللة سيناسبك أكثر.
- إذن أنا الخاسرة في الحالتين.
- هذا صحيح، على أحدنا أن يخسر ليربح الآخر، فهل لديك عرض آخر لنتفاوض حوله يا بطة؟
- إن توقفت عن السخرية مني فسأسمح لك بالبقاء، وإلا فعليّ أن أطلب منك بتهذيب أن ترحل عن بيتنا، هذا عرضي الوحيد لك، فإما أن تقبل أو ترحل.

- لا يناسبني عرضك لأفاوضك عليه، وعليك أن تقدمي لي عرضاً آخر، فهذا بيتي قبل أن يكون بيتك، ولهذا لا يحق لك طردي منه.
- لا يوجد لدي عرض آخر فهل يوجد لديك أنت؟
- نعم، لدي الكثير من العروض لنتفاوض حولها، ولكن أولاً عليّ أن أسألك إن لاحظت أنك حولت نفسك إلى نسخة طبق الأصل من والدتك، لا ينقصك إلا أن تجف دموعك لتكوني أمرة ثانية.

كان الجد محقاً، ففي الآونة الأخيرة تقمصت شخصية أمي ولم ألحظ ذلك حتى لفت انتباهي، وطريقته في شرح الأمر أوحت إلي أنه يسخر منها، لهذا كان عليّ أن أدافع عنها، فقلت له:

- لا يعيبني إن شابهت أفضل امرأة في الكون وأنا فخورة بها.
- عليك يا بطة أن تكوني أنت لا أمك، أما أنا فلا ينقصني إنجليزية مهذبة مملة ثانية!
- أنا لست إنجليزية وعلى كل سيدة أن تكون مهذبة.
- أنت بطه سخيفة مملة بلهاء، وعليّ أن أهرب بعيداً قبل أن أموت من الملل.

على الرغم من فظاظته لم أكن أريده أن يرحل فقد انتظرته طويلاً، معتقدة أنه يملك ثروة كبيرة، وكل الإجابات التي أحتاج إليها، ولكنه بكل بساطة تجاهلني ورحل، فغضبت وندمت على تفويت الفرصة لطرده بنفسي، ذهبت إلى أمي وأخبرتها أن جدها رجل عجوز أحمق ونعته بالكثير من الألقاب، وكنت أتوقع من أمي أن

توبخني، وهي التي علمتني أن علينا انتقاء ألفاظنا، وليس من التهذيب استخدام كلمات غير لائقة مع الآخرين، وكيف ستكون ردة فعلها وأنا أشتم جدها العجوز بهذه الطريقة، إلا أنها فاجأتني حينما قالت:

- كان عليك أن تخبريه ذلك بنفسك، ربما حان الوقت ليجرؤ أحد ويخبره بحقيقته لعله يتعلم ويكف عن إهانة الآخرين والسخرية منهم.

شعرت بسعادة أنها تشاطرني الرأي تجاه هذا العجوز، وأخبرتها:

- لقد هرب مني، هل بالإمكان أن نذهب إليه لأنفس عن غضبي قليلاً وأخبره بما أشعر به اتجاهه؟

- سيعود يوماً وستسنح لك فرصة التعبير عن غضبك، لكن هذا لا يعني أني أوافق على أن تعاملي الآخرين بهذه الطريقة.

لم أكن بحاجة أن أنتظر لأسابيع فقد رأيته في اليوم الثاني قادماً باتجاهي من بعيد، فهيأت نفسي لأهاجمه قبل أن يسخر مني، ولكنه اقترب وجلس على بعد خطوات مني وبكل تهذيب سألني عن أحوالي، وخاطبني باسمي وطلب أن أحضر له كوب ماء بارد، لقد شعرت بالحب يتدفق من عينيه، ونبرات صوته كانت دافئة، أردت أن أعانقه، فهذا الجد الذي أريده، أحضرت له كوباً من الماء سريعاً، وقدمته له، لم يمد يده ليأخذه وإنما اكتفى بالتحديق بي لثوانٍ وبعدها قال:

- اسكبيه على رأسك ودعيني أضحك قليلاً، وفي المقابل سأبوح لك بسر.

كتمت غيظي وسألته أن يخبرني أولاً بالسر وحينها سأقرر إن كان يستحق أن أسمح له بالسخرية مني فقال:

- البطة لا تهتم إن اعتقد الآخرون أنها إوزة ما داموا لن يأكلوها، فهيا يا بطتي السخيفة أشفقي على جدك العجوز ودعيه يضحك قليلاً.
- سرك هذا يستحق أن أسكب الماء على رأسك، ولكني لن أفعل لأنك أكبر مني سناً وسأخبرك بسر، أنت عجوز أحمق، أبله، غبي، أجدب، معتوه...
- تكرارك كلمات تحمل المعنى نفسه لن يجعل منك فصيحة اللسان، الحماقة أحياناً تساعد على قتل الوقت لمن هم مثلي، ولكن أنت بحاجة لكل دقيقة، وكوني أحمق لا يغير من حقيقة أنك بطة سخيفة، والآن عليك أن تختاري بين أن تكوني إوزة أو بطة لأجيبك عن أسئلتك بالمقابل.
- لن أهتم إن اعتقدت أني إوزة أم بطة، والآن دورك لتتوقف عن السخرية وتعلمني ما وعدتني أمي به.
- لقد تعلمت بسرعة يا بطة، والآن ماذا تريدين أن تعرفي؟
- أريد أن أعرف كل شيء، قصة بيتكم وعائلتكم، وأسرار الحياة بعد الموت، وكيف نجحت أمي في الانتقال من حياة إلى أخرى؟

حدق بي وقهقه وعاد ليخلط الجد بالمزاح ثم قال:

- عليّ أن أصحح معلوماتك قبل أن أخبرك الحقيقة، كان عليك أن تقولي عائلتنا لا عائلتكم، بيتنا لا بيتكم، فأنت فرد من هذه العائلة، ولا تصدقي يوماً أن أياً من أفراد عائلتنا أو غيرهم بعد أن يتحرر من ثقل جسده يريد أن يخوض التجربة مرة أخرى! والآن عليك أن تتسلقي الشجرة وتغمضي

عينيك وتقفزي عنها، وفي المقابل سأبوح لك بسر خطير، هيا تحركي بسرعة!

- هل تعدني إن وثقت بك وفعلتها أنني لن أتأذى؟
- الوعود لا تشفي الجراح يا بطة.
- وأنا لست غبية لألقي بنفسي عن شجرة إرضاء لك.
- جوابك يستحق نصف السر، كل ما أخبرتك به أمك يدور في خيالها فقط وأنصحك أن تهربي قبل أن ينتقل جنونها إليك أيضاً.
- أعلم أنك تسعى إلى تشكيكي بها كنوع من الاختبار.
- إذن، أنت بطة سخيفة مجنونة مثل والدتك.

دافعت عن أمي وأصر على رأيه، كان بارعاً في السخرية من كل شيء وأي شيء، وقرر فجأة أن يرحل بعد أن أخبرني أني أُشعره بالملل، عاد من جديد وكان عليّ مجاراته فحتماً هو يختبرني، لم يتغير شيء، سخرية وضحك، يشعر بالممل، وينصرف بكل وقاحة.

تكرر مجيئه وذهابه حتى صرت على قناعة بأن هذا الجد ليس أكثر من طفل صغير يبحث عمن يلعب معه، وأكثر لعبة يحبها هو أن أغمض عيني ليختبئ خلف الشجرة وأبحث عنه، وحينما أجده يتهمني بممارسة الخداع فيغضب ويرحل. قطعت الشك باليقين بأن هذا الجد مجنون لا يملك مالاً ولا عقلاً، ولا أستبعد أن تكون أمي كذلك.

فاض صبري فقررت حسم الموقف، وإبعاد هذا الطفل الكبير عني، فاعتذرت منه بتهذيب وأخبرته أني لا أستطيع قضاء المزيد من الوقت معه، لأن امتحانات الثانوية قد اقتربت وعليّ التفرغ لدراستي.

فرد عليّ بوقاحة:

– أنت فاشلة وستهدرين وقتك على الدراسة.

وقبل أن أرد عليه تركني ورحل، مر أسبوع ولم يعد، لم أبال إن كان سيعود أم لا، ومع هذا كنت أشتاق لرؤيته ومزاحه، وأشعر بالشفقة عليه وأتساءل من يعتني بهذا العجوز إن مرض؟!

أمي لم تسألني وأنا لم أرغب بالحديث عنه، ودراستي لم تُبق لي دقيقة واحدة لأفكر بأمر آخر، حتى جاءت الفرحة الكبرى حينما تفوقت على نفسي، واجتزت امتحانات الثانوية بنجاح مع أنه لم يكن بالكبير، لكنه كان كافياً لأثبت ما قالته أمي بأن الفشل جبل يسكن النجاح على قمته، كنت فخورة بتسلقي ذلك الجبل، وقطف ثمرة النجاح اللذيذة، ومن يتذوق طعمها يطلب المزيد.

العالم كله لم يتسع لفرحة أبي أما والدتي فاكتفت بعناقي وهمست:

– كم أنا فخورة بك.

شيء واحد أردته في تلك اللحظة وهو أن أذهب إلى العجوز لأقول له لست أنا الفاشلة أيها الجد الأبله، ثم سألت أمي أين يسكن جدها لأذهب إليه، فقالت:

– كان عليك أن تسأليه ليخبرك.

- اعذريني يا أمي، فجدك ليس أكثر من عجوز خرف، ولا أعتقد أنه يملك شيئاً سوى المزاح واللعب، إنه لا يجيب عن أي سؤال ولا يتوقف عن السخرية واللعب، إنه طفل صغير يا أمي!
- إذا كان كذلك فما حاجتك إلى الذهاب إليه؟
- أريد فقط أن أطمئن إلى أنه بخير، وأيضاً لأغيظه بنجاحي.
- اطمئني إذن، جدي قادر على الاعتناء بنفسه جيداً، والآن عليك البدء بالتفكير بالخطوات القادمة التي ستقودك لمستقبلك.

الجامعة كانت هدفي وما كنت لأتنازل عن هذا أبداً، وبصفتي المديرة المالية لميزانية عائلتنا فأنا أعلم سلفاً أن ما ادخرناه من مال لا يكفي لتغطية القسط الأول من دراستي، حل هذه المشكلة في متناول اليد بإمكاني اللجوء إلى خالتي خديجة، ولكني شعرت بأني بحاجة للاعتماد على نفسي أولاً، فقررت أن أبدأ التمهيد لوالدي حتى يسمح لي بالعمل، كنت على ثقة بأني قادرة على إقناعه ولكن هذا لن يكون سهلاً، وما زالت أمي قادرة على سماع أفكاري وربما هذا أحد الأسباب التي منعتني من الشك بقصتها فقاطعت أفكاري:

- لا تقلقي يا حبيبتي، جدي سيجد لك الحل، فهو لم يتخلَ يوماً عن أفراد عائلته.
- إن كان جدك يملك إمكانية مساعدة عائلته، فلماذا لم يقدمها حين كنا بأمس الحاجة إليها يا أمي؟
- كنا قادرين على تدبر أمرنا ولم نطلب منه المساعدة.

سرني أن هذا الجد الأبله في النهاية يملك ما يقدمه. نعم، أنا بحاجة إلى أن أشعر بأني قادرة على الاعتماد على نفسي أولاً، ولكن لماذا عليّ اختيار الأصعب إن كان السهل في متناول اليد، عدت لأجلس تحت الشجرة برفقة أحد كتبي غارقة في أحلام جميلة في انتظار الجد الذي أخبرتني أمي أنه سيعود، خططت وفكرت بالطريقة التي عليّ أن أتعامل فيها معه لأستثمرها جيداً، مر أسبوع ورأيته قادماً باتجاهي من بعيد، وكأنه يتعمد أن أراه قبل أن يقترب، وهذه المرة لم أشعر بالقلق من سخريته، فالجد الثري يحق له ما لا يحق للجد الفقير، وقبل أن يسألني ويسخر قلت له:

- البطة السخيفة نجحت وعلى جدها أن يهديها سيارة لتذهب بها إلى الجامعة التي سيدفع تكاليفها بنفسه.
- من الأحمق الذي أخبرك أني سأهدر أموالي على بطة سخيفة.
- أنا أعلم أنك جد طيب وتهتم بأفراد عائلتك.
- إذن سأفكر بالأمر وأجد لك الحل ولن يكون هذا دون مقابل يا بطة.
- أنا على استعداد لأي مقابل، هل تريد أن أسكب ماء على رأسي لتسخر مني وتضحك.
- لماذا عليّ أن أدفع لأسخر منك ما دمت قادراً على أن أحصل على ذلك بالمجان؟ إن أردت مساعدتي في إيجاد الحلول لإكمال تعليمك فلدي شرط وعليك الالتزام به.
- وإن نفذت شرطك فهل بإمكاني أن أكمل تعليمي في أي بلد أختاره؟

- وأي بلد اخترت؟ وماذا ستتعلمين؟
- حلمي أن أتعلم إدارة الأعمال في إنكلترا، البلد التي نشأت فيه أمي.
- ألم يكن حلمك أن تكوني كاتبة؟
- سأكون، ولكني اكتشفت أني بارعة أكثر في إدارة الأعمال.
- لم أحب يوماً هذه الجزيرة، لكن لدي هناك أشخاص يدينون لي، ولن يتقاعسوا عن مساعدتك إن احتجتها.
- والآن، ما هو شرطك يا جدي لأنفذه؟
- أريد منك قص شعرك وإحضاره لي لأخبرك ما عليك أن تفعلي بعدها.
- أرجوك يا جدي، اطلب شيئاً آخر غير شعري!
- لا شيء يؤلمني أكثر من رؤية فتاة تقص شعرها اعتقاداً منها أنها ستكون أجمل!
- إذن لماذا تريد أن أقوم بذلك ما دمت تؤمن بأن الشعر تاج جمال المرأة؟

نعم هو تاج جمال جسدها، والعلم هو تاج روح المرأة وحريتها، فإن تخلت عن تاج الجسد مقابل أن تحصل على تاج الروح فعليها أن تفخر، هذا الثمن الذي أطلبه لأجد لك الحل، وأفتح لك أبواب أرقى الجامعات، لن أفاوض على هذا، فإما أن تقبلي أو ترفضي.

الجد الحقير أصر على رأيه وكنت أكثر عناداً منه، ولا أدري كيف أعمى بصيرتي وليَّن عنادي وأقنعني أنه يملك علاقات ستفتح لي الأبواب كلها، فالوصول إلى جامعة مرموقة يحتاج إلى علاقات قوية أكثر من المال.

جدلت شعري الطويل وبكيته لأيام قبل أن أجرؤ على ترك المقص يزوره، انتظرت قدومه وحملته إليه، شعرت بأني أم تضحي بابنها على مذبح العلم، والجد الحقير لم يمد يده حتى ليلمس قطعة من روحي وأنا أقدمها له، وقال:

لا حاجة لي بشعرك، خذيه لصديقة أمك خديجة واطلبي منها أن تحتفظ به، اقترضي منها المال وتذكري أن عليك أن تعيدي إليها ما اقترضته لتفخري بأن مستقبلك صنعته بنفسك وأنك لا تدينين به لأحد، وهكذا أكون قد أوفيت بوعدي ووجدت لك الحل.

شلت الصدمة لساني وتجمدت مكاني وأنا أراقبه يبتعد، لقد خدعني اللعين وسرق أجمل ما أملك مقابل لا شيء، لقد قدم إلي الحل المتوافر منذ سنوات، وما كنت بحاجة لمن يدلني عليه، هذا العجوز مخادع، منذ اليوم الأول أخبرني أنه لن يتوقف عن السخرية مني، ولكن لم أتوقع أن أدفع مثل هذا الثمن، سامحك الله يا أمي ماذا فعلت بي، وهل كان ينقصني مثل هذا الجنون، نعم أنا بطة ساذجة سخيفة يتلاعب بها عجوز أحمق، وما عاد ينفع الندم!

أخذت الشعر المجدول لخالتي خديجة وطلبت منها الاحتفاظ به، لم أفعل ذلك طاعة للعجوز، وإنما لأني كنت بحاجة إلى أن أتذكر ما فعله بي، لعليّ يوماً أتمكن من الانتقام منه، جن جنون خديجة ووبختني على قص شعري، لم أخبرها السبب وسألتها إن كانت ما زالت على استعداد لتقرضني النقود فقالت:

- لست بحاجة إلى أن أقرضك فقد أودعت باسمك مبلغاً من المال منذ كنت صغيرة ليعينك على دراستك الجامعية وأكثر من ذلك أيضاً.

– شكراً يا خالتي، سأعيده لك يوماً ما ولن أنسَى ذلك أبداً.

لقد أثبتت هذه المرأة أنها صديقة وفية، ساندتني وشجعتني على تحقيق حلمي ودفعت الكثير لإزالة كل عائق يعترض طريق دراستي في إنكلترا.

لم تسر الأمور كما أردنا بسبب معدلي المنخفض، واضطرت للتنازل والاستعانة بزوجها سعيد، الذي عرف التفاصيل كلها سابقاً، كان يبتسم ولا يعلق وكأنه يخبرنا "ستعودون لطلب مساعدتي" وهذا ما حدث، قالت له خديجة:

– حك رأسك أيها الثعلب العجوز وجد لنا حلاً لهذه المشكلة.

– حلولي لن تعجبك وتعجب عمرة يا خديجة!

– لديك الضوء الأخضر، افعل ما تريد ما دامت النتيجة ستحقق حلم كريمة!

حك رأسه وقال:

– اتركوا لي الأوراق كلها واعتبروا أن الأمر تم.

أيام قليلة وكانت كل الأوراق جاهزة، ارتفع معدلي من 57% إلى 87% بقدرة قادر، حتى إني حصلت على شهادات إضافية لم أسمع بها من قبل، والكثير من التوصيات الغريبة، ثم تفاجأت بأن اسمي تحول من كريمة إلى إليزابيث، فاعترضت لكنه برر الأمر بأن أمي إنكليزية الأصل وإليزابيث ستحصل على الجنسية والقبول أسرع من كريمة، وأيضاً سيصعب فحص صحة الأوراق بعد أن تم تغيير اسمي في معظم الدوائر، كان القرار يعود إلي، إما أن اقبل أو أرفض، ولم أكن لأرفض القليل من الغش في سبيل تحقيق أحلامي، ولم يتبقَ أمامي إلا الحصول على قبول من إحدى الجامعات، وعليّ الانتظار عدة شهور قبل أن أنطلق لتحقيق حلمي، اعتدت

على الشعر القصير، وعادت علاقتي بأمي إلى طبيعتها، ففي النهاية ليس ذنبها إن كان جدها مجنوناً، وكان عليّ مصارحتها بممارستي الغش، وأعلم أنها ستستاء كثيراً، فهي كانت تتقبل رسوبي في الامتحانات ومع ذلك لم تتهاون مع الغش يوماً، علاقتي بها في السنوات الثلاث الأخيرة كانت مثالية، وكانت حافزاً لي أن أتحدى المستحيل، ولا أريد تلويثها بإخفاء مثل هذا الأمر عنها، فصارحتها واعتذرت منها عما اضطررت لفعله، وحين سمعت ردها انهمرت دموعي ولم أتوقف عن البكاء لأكثر من ربع ساعة فقد قالت:

- كنت صغيرة ومارست الغش للهرب من العلم، واليوم أنت مضطرة للغش طلباً للعلم، أتفهم الأمر، ليس على أحد أن يحكم عليك بناء على ماضيك، ومن حقك أن تسرقي فرصة ثانية من الحياة، حتى لو عن طريق الغش، والسنوات القادمة هي من ستثبت إن كان غشك مبرراً أم لا.

عانقتها بقوة وعدت بذاكرتي إلى حرق الحذاء وفصلي من المدرسة، طالما كانت أمي تساندني وتحتمل جنوني، وفي ذروة كرهي لها لم تتوقف عن تقبيلي قبل النوم، سأفعل المستحيل لأجعلها فخورة بي، فأنا لا أستحق أما مثلها، وهي تستحق ابنة أفضل مني. كنت سعيدة بأن حلمي سيتحقق قريباً، وكنت حزينة لفراق والدي وأخي الصغير، الذي تعلق بي وتعلقت به أكثر، توقعت كل شيء إلا أن يجرؤ العجوز الخرف على الاقتراب مني مرة أخرى بعد ما فعل، يا لوقاحته، وجد الجرأة ليقطع عليّ خلوتي ويسألني عن الكتاب الذي أقرؤه، كنت سأصرخ في

وجهه وأصفعه، وبعد ذلك أركله وأطرده بطريقة مهينة، ولكني تمالكت أعصابي وقررت أنه لا يستحق أن أصرف عليه أي طاقة، أغلقت الكتاب وعاملته كمتسول وقلت له:

- أيها العجوز، هل أنت بحاجة إلى طعام لأحضره لك وتذهب في حال سبيلك؟
- تظاهرك بأنك مهذبة لن يخفي كونك بطة سخيفة، فاذهبي وأحضري الطعام.
- لا، أنت لا تستحقه، فاذهب وابحث عنه في مكان آخر.
- إذن، لا تعرضي شيئاً لا تنوين تنفيذه.
- عليك الرحيل الآن، وأنصحك ألا تختبر جنون بطة سخيفة.
- سأرحل بعد أن آخذك في جولة داخل بيتنا لأعرفك على بعض أسراره.
- إذن عليّ أن أصحح معلوماتك، هذا بيت أمي وأبي، والقرابة التي تربطك بأمي، لا تمنحك الحق حتى في الجلوس تحت إحدى أشجارنا إن لم نسمح بذلك.
- سأطلب إذنك حينما أحتاجه يا بطة، والآن عليّ أن آخذك في جولة داخل قصة لا تشبه أي رواية قرأتها من قبل، وربما وجدنا الوقت لنتحدث قليلاً عن أوهام والدتك.
- أعرف كل شيء عن أوهامها، ولا أحتاج عجوزاً مثلك ليزيد على ما أعرفه، ويكفيني فخراً أني ابنة من صنعت المستحيل، بنت بيتها وحافظت

على أسرتها، فهل سيتغير في الأمر شيء إن كانت قد عاشت في هذا البيت يوماً أو أنها أرادت أن تتخيل ذلك؟! ومن منا ليس بحاجة إلى قصة وهمية تساعده على احتمال قسوة الحياة؟ إرادة عمرة هي السر الوحيد الذي يسكن هذا البيت، وأتفهم لماذا كان عليها أن تخفي عنا وجود قريب لها على قيد الحياة، ولا أستبعد أن تكون أنت السبب الرئيس في فقدانها القدرة عن التعبير عن مشاعرها مثل بقية البشر، فأنت بارع في سرقة الفرحة من الآخرين!

- لقد نضجت يا بطة، وصرت فصيحة اللسان، وعليّ أن أشجع الجميع على القراءة ليكونوا مثلك، واطمئني أنا لم أسرق فرحتها، روحها تضحك دوماً ولكن جسدها مصاب بمرض لم يكتشفه العلم بعد.

أخذني الحديث ولم أنتبه إلى أن عمتي أمل وبرفقتها ابنتها الحقيرة قادمتان نحوي، لم تكن الزيارة متوقعة، وفور أن رآهما العجوز قال إنه سيرحل ويعود لاحقاً، وطلب أن أفتح الكتاب وأقرأ بصوت عال، فقلت:

- لن أفعل ذلك، وليتك تنتظر حتى أعرفك على ابنة عمتي فهي تشبهك كثيراً وربما أقنعتها أن تلعب معك.
- أحب أن أسخر منك يا بطة ولكن لا أريد للغرباء أن يفعلوا مثلي، لهذا نفذي ما طلبته.
- هم أهلي وأنت الغريب هنا.

اقتربت عمتي وأخذت تضحك ثم سألتني:

- ماذا تفعلين يا كيكي؟
- أتحدث مع هذا العجوز المسكين، فهو لا يتوقف عن زيارة حديقتنا يا عمتي.

ضحك العجوز وقال لي:

- أنصحك بتجاهل وجودي ومرافقتهما للبيت، وسأرحل فور أن تستديري.
- لا، سنجلس نحن هنا، وبإمكانك الرحيل أنت أيها العجوز!
- أنا أحاول تجنيبك الإحراج يا بطة، ولكن إن اخترت الطريقة الأصعب للتعلم، فسأستغل الفرصة لأسخر منك وأضحك!

واصل قهقهته المستفزة، فيما بذلت كل جهدي لأكون مهذبة، فلا ينقصني أن تشيع ابنة عمتي أني أتعامل مع كبار السن بوقاحة. نظرات عمتي كانت مريبة، فسألتني مع من أتحدث، فأشرت إلى العجوز، وأخبرتها:

- معه!
- أنا لا أرى أحداً، هل أنت بخير.

أخذ العجوز يضحك وأنا أنتقل بعيني إليه وإليها:

- أخبريها أنك تمازحينها فقط! وتجنبي الإحراج!

كانت هذه كلماته الأخيرة قبل يختفي فجأة، بحثت خلف الأشجار وفوقها لعليّ أجد له أثراً، وكنت في العادة أراقب خطواته وهو راحل، ذهب وأخذ معه ذكائي، واشتعل عنادي، ولم أتنازل عن محاولة إقناعهما بأن عجوزاً كان يجلس على بعد خطوات منهما، صراخي جاء بأمي، والغباء حين يمتزج بالعناد يدفعنا للقيام بأمور نحن في

غنى عنها، وهذا ما حدث حينما استنجدت بأمي الصادقة لتشرح لهما أني كنت أجلس مع جدها العجوز، فقالت:

- ليس عليك تبرير نفسك للآخرين، لقد أخبرتهما الحقيقة ولا تهتمي إن صدّقتا أم لا!

صِدق أمي وعنادي اجتمعا مع لسان ابنة عمتي ليعيدا للبيت قصص الماضي، أما أنا فتعلمت بالطريقة الصعبة أن جد والدتي شبح لا أحد يقدر على رؤيته سواي، مع أني لم ألاحظ ذلك يوماً. لقد قال لي سابقاً، "طعم الغباء لذيذ في المساء وفي الصباح يكون مراً"، طلبت تفسيراً فقال:

- عقولنا تخضع لعواطفنا مساء فنعتقد أننا أذكياء وتكون أكثر صفاء في الصباح فنكتشف كم كنا أغبياء!

وهذا ما حدث معي، أنا ماكرة وكنت أتدبر أمري دوماً، وما كان عليّ أن أحرج نفسي أمام الغرباء، عمتي حبيبتي ولكن ابنتها ستبقى دوماً من الغرباء، وعلى الرغم من كل ما حدث فإني كنت سعيدة جداً أن يكون لي جدٌ شبح، مثل هذه الأمور لم تخفني يوماً، على العكس من ذلك هذا ما كنت أتمناها دوماً.

أخذت أستذكر الساعات التي كنا نقضيها معاً واكتشفت أن هذا اللعوب كان حريصاً على تعليمي الكثير، وأني كنت بطة سخيفة كسولة، لم تجرؤ على فرد جناحيها والتحليق عالياً، وعندما عاد الجد أخبرته أن كونه شبحاً لن يغفر له إجباري على قص شعري فأجاب:

- طول الشعر لن يزيد الذكاء، وقصره لن يقلل الغباء، وأنا أحتاج إلى انتباهك لا إلى مغفرتك.
- أنا منتبهة جيداً، لكن عليك أن تعرف أني لن أنسى يوماً ما فعلت!
- فعلت هذا لتذكريه لا لتنسيه أبداً.
- عليك أن تعرف أني لن أكون مهذبة معك أبداً، ويوماً ما سأجد طريقة للانتقام منك.
- حديثك الممل سيقتلني قبل أن أتمكن من تسجيل اسمك على قائمة الحالمين بالانتقام مني.
- للأسف لن أتمكن من قتلك فأنت ميت، والآن أنت مدين لي بالكثير من الإجابات والعلاقات ذات النفوذ التي وعدتني بها.
- سأزودك ببعض عناوين أشخاص يدينون لي ولن يترددوا في مساعدتك في أي أمر كان، وأتمنى أن تعتمدي على نفسك حتى لا تحرريهم من ديونهم.
- هل هم أشباح مثلك يا جدي؟
- لا، هم سحرة من الجن ينتظرون قدوم بطة سخيفة ليتوجوها ملكة عليهم!
- أعدت لتسخر مني أيها الشبح؟
- حينما يكون السؤال غبياً فعلى الجواب أن يكون أغبى.

- فهمت الدعابة والحكمة، والآن اشرح لي كيف بإمكانك الظهور نهاراً؟ فما قرأته عن الأشباح أنها لا تظهر إلا في الليل!
- الأطياف حساسة لنور الشمس، لكن بإمكانها الظهور والتنقل حيث تكون الظلال، وهذه القاعدة لا تنطبق على طيف وسيم مثلي.
- هل بعد أن أموت سيكون بإمكاني العودة لأعيش حياة أخرى مثل أمي؟
- حينما ترحلين عن جسدك وتتنفسين الحرية لن تفكري بذلك أبداً.
- أنا أريد ذلك بشدة يا جدي.
- لن يكون الأمر سهلاً، فمثل هذه القفزة تحتاج إلى إرادة قوية، وعلم وخبرة لا تكتسب في أعوام قليلة.
- في الهند الأمر يحدث تلقائياً، لقد قرأت عن ذلك كثيراً، فلماذا تعقد الأمور؟
- حينما تكون الحفيدة هندية يسهل على جدها أن يهديها فيلاً!

سألته أن يسخر أقل ويشرح أكثر، فقال:

- تختلف ألوان البشر ومعتقداتهم، وحين ترحل الروح عن الجسد تتميز بالمعرفة والوعي المكتسبين، لا بالهيئة التي اختارت أن تظهر فيها، الكثير من أهل الهند اعتنقوا فكرة عودة الروح وتجسدها، ومواظبتهم على مراقبة أطفالهم بحثاً عن علامات، ساهم في اكتشاف بعض الحالات التي لا تزيد على الواحد من كل مائة ألف، ومع هذا كانت كافية لتعزز إيمانهم، ولو فعل الآخرون الأمر نفسه وراقبوا وعي أطفالهم قبل سن

الخامسة لاكتشفوا المثل، وهذا ما يطلق عليه مصطلح الجذب والسقوط اللاإرادي، أما القفزة فهي فعل مدروس تقوم به الروح عن معرفة.

لم يتوقف جدي عن الشرح، واكتشفت أن عقلي ما زال صغيراً ليستوعب هذا الكم من الألغاز، وأرعبني حينما قال إن الاحتفاظ بالذاكرة والوعي بعد الرحيل عن الجسد ليس بالأمر السهل، فالكثير من الأرواح تفقد هويتها بعد أيام، وأن هذا قد يحدث معي أيضاً، وعاد وطمأنني إلى أن المعرفة هي الثروة الحقيقية التي تملكها عائلتنا. بسط جدي الأمور وعلمني الكثير، وقدم لي أثمن هدية حصلت عليها يوماً، وهي المعرفة والقدرة على الطواف خارج الجسد، أمتار معدودة داخل حديقتنا كانت البداية، والميل الأول برفقته كان ممتعاً، ولم يمر شهر حتى تجاوزت أميالاً خارج جسدي، كان الأمر يحدث مثل الحلم، وسألته إن كان بإمكاني القيام بالأمر بنفسي، فضحك وقال:

– افعليها لأسخر منك قليلاً!

وفعلتها وتركت جسدي في الحديقة، وابتعدت لأميال ووقعت في شَر فضولي، لم أجد طريق العودة وأخذت أنتقل من مكان إلى آخر، ولم أعد واعية إن كنت في حلم أم في علم، وفي كابوسي ظهر الكثير من البغضاء، أحدهم شدني من شعري وقال:

– أنت ملكي يا فتاة!!

ارتعبت ولم أتمكن من التحرر، فجرني خلفه إلى مكان مظلم، ارتعبت وأخذت أصرخ وأستنجد بجدي ليأتي وينقذني من هذا البغيض، ولكنه كان أكثر بغضاً ووقف يراقب وكأن الأمر لا يعنيه، فتوسلت إليه:

– أرجوك يا جدي، ساعدني.

فتبرم قبل أن يشير بيده ويبتعد البغيض ويتركني في حالي، فأسرعت واختبأت في حضن جدي، وكانت تلك المرة الأولى التي أعانقه فيها، وأشعر بوجوده، تركني لحظات ثم طلب أن أبتعد عنه قليلاً ثم قال:

– أنا لست والدتك، ولا أحب العناق! فاحرصي أن تحافظي على مسافة بيننا في أي مكان، واتبعيني لأعيدك.

ارتجف جسدي ووجدت نفسي تحت شجرتي غارقة في دموعي، تحررت من الكابوس، وكان جدي يحدق بي وبعد أن هدأت قال:

– عليّك أن تتعلمي القتال يا كريمة؛ حتى لا تكوني صيداً سهلاً لأحد!

قال يا كريمة ولم يقل يا بطة كما اعتاد، فسألته:

– هل كان هذا حلماً أم حدث في الواقع فعلاً يا جدي؟ لأني شعرت بألم فظيع.

- لقد شعرتِ بخوف شديد وكنتِ صيداً سهلاً لمن هي أضعف منك بكثير!

- كان رجلاً ضخما وليس امرأة يا جدي.

- كان أو كانت لا يهم، وهذا درس لك لتتعلمي أن الطواف خارج الجسد ليس لعبة نلهو بها لنشبع فضولنا وغرورنا، والأشرار لن يرحموك إن كنت ضعيفة داخل الجسد أو خارجه، الطواف سهل وإيجاد طريقة العودة هو الجزء الصعب، وسر النجاح في السيطرة على الخوف.

- لا أريد الطواف خارج جسدي مرة أخرى!

- أنت والكثير من البشر يطوفون يومياً خارج أجسادهم ثواني معدودة دون أن يعرفوا ذلك، وأمامك الكثير لتتعلميه لتجاوز الدقيقة الأولى.

- ولكني لا أريد أن أصاب بالأذى يا جدي!

- الجهل غذاء الخوف، والمعرفة تبعد عنا الأذى، والطواف خارج الجسد يشبه قليلاً قيادة السيارة، علينا أن نتعلم كيف نفعل ذلك، ونتوخى الحذر، وألا نسمح لأمر بتشتيت انتباهنا عن الطريق، والأهم أن نحفظ طريق العودة حتى لا نتوه وتتشعب الطرق إلى ما لا نهاية.

- أخشى أن أضيع يا جدي وألا أجد طريقة العودة أبداً!

– كل روح تحتاج إلى عنوان تذهب إليه عند الحاجة؛ لتستعيد طاقتها وتصفي ذهنها؛ وتواصل رحلتها، ولا فارق إن كان هذا العنوان بشراً أم حجراً.

أسئلتي كانت صبيانية تناسب سني حينها، وقد علمني الكثير، ومع مرور الوقت اكتشفت أن الكثير من الأسرار إجابتها في متناول الجميع ولكننا فقط لا نريد أن ننتبه، وجميعا نطوف خارج الجسد، ونتحول إلى أشباح لأجزاء من الثانية دون أن نعرف، نبني علاقات كثيرة، نصادق ونحب ونكره في رحلة الطواف خارج الجسد، يتلاشى كل شيء ويتحول إلى حلم، وحين يتصادف أن نلتقي بأحد نتساءل أين التقينا به من قبل، عقولنا ازدحمت بالأوهام وما عدنا قادرين على الانتباه لأبسط الأمور التي نراها يومياً.

كان جدي يرغب في أن أكون من يعتني بالبيت يوما ماً، لكنه أيقن منذ كنت صغيرة أني بطه كسولة، وحين اكتشف أن لي جناحين ولن أتوقف عن الطيران حتى أحقق أحلامي، والطريق التي سأختارها ستكون على بعد آلاف الأميال من بيت العائلة، اقتنع أن على أحد آخر أن يقوم بالمهمة.

كم أحب أن يكون جدي ساحراً، ولا اعلم إن كان كذلك ويخفي ذلك عني، لقد كان بارعاً في السخرية، أحببت هذا العجوز المتعجرف.

اقترب موعد سفري فذكرته أني سأجد طريقة لأنتقم منه، فرد عليّ بأن أفضل طريقة للانتقام منه هي حرمانه من السخرية مني بعدم اللجوء إليه لطلب المساعدة، سألته العناق لمرة واحدة فرد عليّ بخساسة:

– لا أريد أن أتلوث بسبب عناق سخيف.

نجح في إغاظتي للمرة الأخيرة ومع هذا كان ردي ماكراً:

– أنت جبان يا جدي، وتخشى أن تتلوث بالحب.

شعرت بنشوة الانتصار، وكاد قلبي يقفز من مكانه من شدة الفرحة حينما رأيت على وجهه علامات تدل على ضعف وارتباك، قبل أن يتبخر ويختفي فجأة دون وداع.

حانت اللحظة الأصعب، وداع عائلتي، والدي عانقني وأخفى دموعه، شعرت بأنه سيغير رأيه ولن يسمح لي بالسفر، وأخي الصغير رائد الفضاء، كان في الثانية عشرة من عمره رفض عناقي فأخذت أتحايل عليه وأقنعه بأني لن أطيل الغياب، فأجهش بالبكاء، وللحظات شعرت برغبة في أن أضعه في حقيبتي وأصحبه معي. وداع أمي كان الأسهل تعانقنا ولم نتحدث، فقد تعلمت كيف أسمع أفكارها أيضاً:

– كوني الابنة التي طالما حلمت بها.

– سأفعل يا أمي، سأفعل!

الشهر الأول في الغربة كان مؤلماً، والشهر الثاني سرق جزءاً من نقودي، ومع الثالث بدأت أتأقلم، وفي الرابع كشرت عن أنيابي، وفي الخامس ثبتُّ قدمي على أرض صلبة وما عدت أتأرجح، طريقي لم تكن معبدة فقد ابتلت بالدموع وواجهت فيها الكثير من الحفر والعثرات، كان حلمي أن أدرس إدارة الأعمال وأبني شركتي الخاصة، وبعد عامي الأول، كانت البداية بدوام جزئي مقابل عمولة في شركة عقارات متواضعة، قريبة من سكني وجامعتي، وكانت البداية كوسيط بين المستأجر والمؤجر، الفشل لم يحبط عزيمتي، والنجاحات الصغيرة حفزتني، وسرعان ما انتقلت لأكون وسيطاً في بيع العقارات الرخيصة، وعمولة إتمام كل صفقة كانت متواضعة، ولكنها أفضل من التأجير.

تصادقت مع رجل أعمال ناشئ وأقنعته بتأسيس شركة عقارية صغيرة معاً، ارتعب من الفكرة في بادئ الأمر ولكنه جاراني، مقر الشركة كان في عمارة متواضعة جداً لن يقترب منها أي زبون ثري أبداً، فاكتفيت كبداية بتأجير مساكن للطلاب والعمال الأجانب، وبيع عقارات رخيصة، أصحابها فقراء، لزبائن أفقر منهم، هامش الربح لم يكن كبيراً، ووقتي ضيق أقسمه بين الدراسة وبين تثبيت شركتي الصغيرة المثيرة لسخرية كل من عمل في هذا المجال، أقصد الصغار منهم، أما الكبار فكنا بالنسبة لهم ذبابة لا يسمح لها بالاقتراب من طعامهم، صديقي وشريكي تقدم لخطبتي، وكان عليه أن يثبت أنه مغامر وجريء، وكاد يموت رعباً حينما اقترحت عليه أن نشتري بيتاً ونبيعه لحسابنا، بمدخرات عمره وما أملكه اشترينا البيت الأول، وما زرعته أمي كان حاضراً في وجداني؛ البيوت حجر وعلينا أن نمنحها الحياة؛ قلبت

البيت رأساً على عقب، ولم أترك ركناً إلا وزرعت فيه وردة، حتى إنه عز عليّ بيعه، وعقدت صفقتي الأولى وبعته بثلاثة أضعاف ثمنه الأصلي، وانتقلت لشراء بيت ثانٍ وثالث.

انطلقت كالإعصار، وكان على لندن أن تتكيف مع طموحي، واكتشفت أن إدارة الأعمال تحتاج إلى موهبة وبراعة أكثر من الدراسة، وجني المال يكون أسهل إن وجدت طريقي للغوص في أعماق البشر، أحببت علم النفس واتخذت قراري، هناك يجب أن أكون، ولم يكن هذا التخصص متوافرا في جامعتي، وعليّ العودة مرة أخرى للبداية، وتذكرت ما قاله جدي قبل سفري:

عليك يا بطة أن تفردي جناحيك وتثقي بأنك قادرة على الطيران أولاً وثانياً وثالثاً قبل لجوئك لمساعدتي. هذه البلاد تخفي عنصريتها بتهذيب، وما كنت لأنجح حتى لو حاولت ألف مرة، وحان الوقت ليدفع جدي ثمن شعري، اختصرت الطريق وذهبت إلى أحد العناوين التي زودني بها، وتساءلت هل سيستقبلني شبح آخر، طرقت الباب وفتحت لي امرأة ترتدي زيّ الخدم فسألتها عن السيد ستيف أفتار، وبنبرة ساخرة قالت:

- لقد مات منذ زمن فهل تريدين أن أدلك أين دفن؟

فسخرت منها بدوري وقلت:

- هل شبحه موجود؟

فضحكت بأعلى صوتها وأضحكتني معها، دعتني للدخول وعرفتني على نفسها بأنها ستيف أفتار، وأن الاسم لا يتعدى كونه لقباً أطلقه عليها صديق زوجها قبل زمن، لم تسألني عن اسمي أو من أكون، وسألتني عن المساعدة التي أحتاج إليها، فشرحت لها وعلى الفور رفعت سماعة الهاتف، ومباشرة شرحت للطرف الآخر ما أريده، ويبدو أن الرد لم يرق لها فاحتدت:

- لا يهمني كيف ستفعلها! أريد لهذا الأمر أن ينتهي اليوم!

أغلقت الهاتف ثم قالت:

- هناك سيارة قادمة لتصحبك، واليوم ستحصلين على مقعدك الدراسي، وإن احتجت أي مساعدة فلا تترددي في زيارتي في أي وقت، ولا تبخلي عليّ برد القليل مما أدين به لمن أرسلك إلي، قلت في سري إن ثبت أن هذه المرأة تمتلك النفوذ فعليّ أن أستغلها ليل نهار، حتى لا تقول إني أبخل عليها، كنت فضولية وهي أغلقت الباب أمام أي سؤال يكشف سر لقائها بجدي وأين، وما علاقته بزوجها، شعرت أن الحديث في هذا الموضوع يسبب لها ألماً، ومن الصور المعلقة على الجدران كان واضحا أن زوجها قد توفي قبل زمن، لم يمضِ وقت طويل حتى تبين أن هذه المرأة بعكس ما دل عليه مظهرها، تمتلك نفوذاً واسعاً، وبمساعدتها وجدت طريقي لدراسة علم النفس، ولم أكتفِ بالنجاح الصغير الذي حققته في سوق العقارات، ووقتي كان من ذهب. أغرقت خطيبي بالعمل ليل نهار، وتعلم

بسرعة أن سهرة بمطعم فاخر على أضواء الشموع برفقته كانت تسعدني قليلاً، لكن دعوتي إلى عمارة مهجورة معروضة للبيع تمنحني سعادة أكبر، وغرقنا معاً برومانسية العقارات الميتة وإعادة الحياة إليها، لم أعد ذبابة تخشى الاقتراب من موائد الأثرياء فقد تحولت إلى دبور عليهم خشية لَسعاتي إن حاولوا إبعادي.

أقنعت خديجة أن أستثمر جزءاً من ثروتها في لندن، وافقت وزدتها ثراءً، ولم أبخل على السيدة ستيف أفتار بطلب مساعدتها عشرات المرات في تسهيل شراء بعض العقارات، كنت بارعة في التوفيق بين الأعمال والدراسة، وأثبت ذاتي، وبجهدي وتفوقي أجبرت الجامعة على أن تفخر بي في أكثر من مناسبة، كنت واحدة من القلائل الذين حصلوا على شهادة دكتوراه في عمر صغير، صديقي وشريكي صار زوجي ووالد ابنتي، معه كان اسمي كريمة فقط، وعلى الرغم مما حققته من نجاح وثراء في مجال الأعمال، وشهرة واسعة كطبيبة نفسية، فلم أتوقف عن القراءة يوماً، وما زال أمامي الكثير من الكتب لقراءتها، وإنجازات كثيرة تنتظر أن أحققها، كنت أنا فقط، لم أمتلك عصا سحرية وإنما ورثت من أمي عمرة عنادها وإرادتها، وتركت لأخي الأصغر ليرث صدقها وصراحتها، ولا أريد شيئا أكثر من العودة لبيتنا القديم، لن يكون هذا قريباً، وعليّ مواصلة الاعتناء به على الرغم من آلاف الأميال التي تبعدني عنه، وثلاثة عشر عاماً منذ سفري غيرت الكثير، واليوم موعدي مع الذكريات والألم الذي سيمر عبر الهاتف ليعتصر قلبي.

تَنْتَقِلُ الدكتورة وتجلس على أحد المقاعد المريحة، تنادي على مساعدتها وتطلب منها ألا تزعجها مهما كان السبب، فتلاحظ سوزي أن أصابع ليزا تلامس الهاتف فتمازحها:

- هل ستجرين محادثة منحرفة مع زوجك؟!
- لا سأتحدث مع حبيبي.

تغادر سوزي وتلامس كريمة أزرار الهاتف بسبابتها، تتنهد وتنتظر الرد.

على بعد آلاف الأميال يجلس شاب وسيم أسمراني، في منتصف العشرينات من عمره، يحمل بين يديه كتاباً يقرأه بشغف، على يمينه منضدة خشبية تربعت عليها زجاجة فودكا روسية، وبجوارها كأس امتلأت حتى الربع، ينتظر بشوق عودة أصابع الوسيم لتحملها وتقربها من شفتيه، ليحتسي منها القليل ويعيدها لينتظر مجدداً، كان الشاب يستمتع بالهدوء قبل أن يقاطعه رنين الهاتف، يرفع السماعة دون أن يشعر بالحاجة لمعرفة من تسبب بصراخ الهاتف، وبلا "هالو" أو مقدمات يرد:

- لقد اتصلت باكراً هذا اليوم!
- وكيف عرفت أنه أنا يا حبيبي؟ ألم تتوقع أن تكون إحدى صديقاتك؟
- هل توقعتِ أن ترد عليك واحدة منهن لهذا اتصلتِ باكراً؟
- لست بحاجة لهاتف لأعرف حينما تخون وعودك يا حبيبي.
- واصلي لعبة التخمين والبلاهة إذن.

- أنا أثق بك كثيراً، ولن أسمح لنفسي بالتفكير في أنك ستكرر فعلتك السابقة وتلوث البيت برائحة عاهرة.
- أنا أحترم ما نتفق عليه، وبعد استبدال الرقم لم يعرفه غيرك.
- أنت رجل تحترم وعودك، والدليل زجاجة الخمر التي على يمينك، ألم نتفق أنك لن تدخل الخمر إلى بيتنا مرة أخرى؟
- أنت بارعة في التخمين، ولكن هذه المرة أخطأتِ، فلا يوجد شيء على يميني أو يساري، إلا إن كنت تبحثين عن حجة لتأخير تحويل النقود مثل كل مرة!
- أثق في التزامك حبيبي، والآن أخبرني ما الكتاب الذي تقرأه؟
- كفي عن لعبة التخمين هذه، أنا لا أحمل كتاباً ولا اقرأ، وعليك أن تسأليني مباشرة عما أفعله حتى لا تزيد بلاهتك أكثر!
- أخبرني إذن، ماذا تفعل يا حبيبي حتى لا أخمن وتزيد بلاهتي.
- كنت أشاهد فيلماً على التلفاز قبل إزعاجي باتصالك.
- ألم تجد ما تقوله غير هذا يا حبيبي، فأنا أعرف أنك لا تحب التلفاز مثلي، وفي بيتنا لا يوجد تلفاز.
- لقد اشتريت واحداً وعليك أن تتعلمي كيف تثقين بي.
- معك حق، نحن عائلة وعلينا أن نثق ببعضنا البعض، ولا يحق لي أن أشك في أنك ستحترم ذكرى والدنا وستحتسي خمورك خارج البيت يا صريخ الغالي.

- إن ناديت علي بهذا الاسم مرة أخرى فسأغلق الهاتف في وجهك.
- لن تفعلها، فأنت ما زلت بحاجة لمالي لتنفقه على عاهراتك وخمورك.
- لا شيء بالمجان هذا اتفاقنا لأبقى بالبيت.
- نعم، هذا هو اتفاقنا وسأحول لك النقود خلال أيام، وأتمنى أن يأتي اليوم الذي تشعرني فيه بأنك مهتم بمعرفة أي شيء عني، أليس من واجبك أن تعرف ماذا تفعل شقيقتك في حياتها، أين تسكن؟ هل تزوجت؟ هل تطلقت؟ هل أنجبت؟ هل تعمل في وظيفة مرموقة أم في ملهى ليلي لتتمكن من إرسال النقود لك كل شهر؟!
- نعم، هذا واجبي، متى ستحولين لي النقود؟
- مهما تظاهرت بالعكس فأنا أعرف جيداً أنك تحبني في أعماقك.
- إذن أخبريني قبل انتقالك إلى فصل الإجهاش بالبكاء كالعادة، متى ستحولين لي النقود؟
- أنا أبكي دوماً اشتياقاً لك ولبيتنا، فلا تهتم وتعال لنتحدث بلغة المصالح التي تثير عواطفك أكثر، هل وجدت وظيفة تناسب سموك أم ما زلت مشغولاً بأناقتك وتلميع حذائك؟
- نعم، لقد حصلت على رخصة تخولني العمل على سيارة أجرة، والكرة الآن في ملعبك، أرسلي لي ثمن سيارة لأعمل عليها.
- أسعدتني يا أخي كثيراً، تركتك صغيراً مع حلم أن تكون رائد فضاء، واليوم أعلى طموحك أن تكون سائق أجرة، لا يهم ما دمت ستعمل وتعتمد على

نفسك، سأفكر بالأمر قبل أن أرسل لك النقود لتشتري سيارة، والآن هل حان الوقت لتخبرني لماذا طلقت زوجتك؟

– تصحيحاً لمعلوماتك لقد طلقتني، مشكورة على ما فعلت.

– هي المخطئة، فأنت الزوج الوسيم المثالي الذي تحلم به كل امرأة، هل وجدت الحب الذي لن تطلقه؟

– لا، لقد قررت ألا أهدر مالك على زواج آخر، قلبي مثقوب وتسقط منه أي امرأة مهما كان حجمها، لهذا لن أعيد التجربة مرة أخرى.

– قلبك أدمن الخمر والعاهرات ولن يرضى أن تسكنه امرأة.

– أنت أختي وسأمتنع عن نقاش مثل هذا الموضوع معك.

– وأنت أخي وكلي أمل أن تصادف المرأة التي ستقع في حبها وتساعدك على الخروج من هذه الفوضى.

– اطمئني لن يحدث هذا أبدا!

– سننتظر إن لم يحدث هذا، آمل أن يهتم بك جدي ويجد طريقة لإخراجك من الضياع الذي أنت فيه.

– كريمة، ألن تتوقفي يوماً عن اعتناق جنون أمي؟

– يوماً ما ستمتلك الجرأة لتواجه الحقيقة وتشفى من حيرتك.

– لقد واجهت الحقيقة يا أختي، ومن واجبي أن أنصحك بزيارة معالج نفسي لعله يحررك من أوهام أمك!

– لو اهتممت يوماً بالسؤال عني لاكتشفت أني من أعالج الناس وأحررهم من أوهامهم.

– نعم، أنا مهتم جداً لأعرف متى ستحولين النقود!

كانت أختي من تحدد متى تبدأ المكالمة وتنهيها، وعليّ الطاعة وإلا لن ترسل النقود التي خصصتها لي شهرياً، لا شيء أسوأ من أن تكون فرداً في عائلة مهووسة بالأرواح والحياة بعد الموت، لحد الاعتقاد أن بيتنا مدخل إلى عالم الأرواح، أختي المدللة حبيبة أمها وأبيها، الذكية الناجحة، أنهت المكالمة بدموعها:

– أحتاج إلى عناقك يا أخي!

لم أرد عليها فأنا ما عدت بحاجة لعناق أحد، كنت في الثانية عشرة من عمري حينما عانقتني للمرة الأخيرة وأغرقتني بدموع التماسيح:

– سأشتاق لك يا أخي، لا تتخلَ عن حلمك أبداً، يوماً ما ستكون رائد فضاء!

بهذه الكلمات رحلت عن حياتي، تركتني مع كلبها العجوز وقطتها الوقحة، نبكيها بظل شجرة أحلامها المقدسة، على أمل أنها ستعود قريباً لتروي لنا المزيد من قصصها الخرافية، كانت بارعة في إقناعي أنها ساحرة عظيمة وأن بإمكانها أن تطير فوق السحاب لو أرادت ذلك، أوهمتني أنها تملك عصا سحرية وتجيد لغة الكلاب والقطط، كنت صغيراً، صدقت وأحببت أن لي أختاً تطير، ويوماً ما ستصحبني في إحدى رحلاتها العجيبة، كانت لي الشمس التي تشرق كل يوم على

حكاية ومغامرة جديدة، وعدتني أنها ستعتني بي دوماً ولن تتركني أبداً، حنثت بوعدها ورحلت، تساقطت أوراق الشجرة المقدسة ولم تخضر مرة ثانية، حبيبة أمها وأبيها كانت لهما الربيع، وأنا كنت الخريف المتلغثم، والدي أحب كريمة وطالما مسح دموعها وحين بكيت رحيلها وبخني:

- الدموع خلقت للنساء ومحرمة على الرجال!

لم أفهم عنصريته وفلسفته هذه، هل البنات نسجهن الله من حرير لهذا يستحققن الحب والحنان، أما الأولاد فخلقهم من مادة صلبة، والمشاعر لا تليق بهم؟

- دعه يبكي يا حسان، فالرجال يبكون سراً أكثر من النساء.

هذا كان رد أمي، أخذتني إلى أحضانها وشجعتني على البكاء وقالت:

- الأجساد تفترق والحب يجمع الأرواح فلا تفترق مهما بعدت المسافة، والدموع تنعش الحب وتريح الروح!

لم أرَ أمي تبكي يوماً سرا أو علناً، خجلت وجفت دموعي سريعاً، أمي لم تكذب عليّ يوماً فهي لم تدع أنها ساحرة، أو تفهم لغة القطط والعصافير، كنت بحاجة لكذب كريمة لا لصدق أمي، ومن حسن حظي أنها رحلت وحررتني من أكاذيبها، لأكتشف أن هناك عالماً لا يخضع لسحرها، عام كامل مر قبل أن تصلني رسالة منها، عدة أسطر كتبتها على عجل. مزقت الرسالة، هي لا تحتاج حبي بعد أن استحوذت على كل الحب في بيتنا، كبرت ونضجت بأحضان عمرة وبين كتبها التي ازدحم بها عالمي، وبذلت جهدي لإرضائها لعلها تحبني أكثر من أختي، لم أخالف

لها أمراً ولم أترك كتاباً طلبت مني قراءته إلا وأنهيته، ومع هذا لم أشعر يوماً بأنها تحبني أكثر من ابنتها المدللة الذكية الناجحة في كل شيء.

على الآباء والأمهات أن يتعلموا أنه لا يحق لهم التفرقة بين أبنائهم، لأن أثر ذلك لن يزول من النفوس أبداً، رددت أمي أكثر من مرة حين كنت صغيراً إن هذا بيت عائلتها القديم، وستعرفني على أسراره حينما أكبر، كنت أترجم ما تقوله بناء على تفكيري في ذلك الوقت، وأحببت فكرة أن هناك أسراراً سأكتشفها وأحببت أكثر الوقت الذي تقضيه معي، كنت أسأل أمي دوماً:

– متى سأكبر لتحكي لي عن البيت.

فكانت ترد:

– حينما تبلغ طولي سأفعل.

وحين تمكنت من تقبيل خدها دون أن أقف على رؤوس أصابعي، اعتقدت أنها اخترعت لي قصة الأسرار لتساعدني على أن أطول أسرع، بلغت من الطول ما سمح لي أن أقبل مركز رأسها، وتركت الأشواك التي نمت على وجهي تدغدغ خدها لعلها تبتسم ولم تفعل، هذه المرأة المثقفة مهووسة بالحياة البدائية، لم أفهم يوماً أين المنطق في الوقت الذي تهدره في المساء والصباح من أجل عدة أرغفة من الخبز!؟ في عالم ازدحم بالأفران الآلية!

تتحدث كسيدة من أسرة إنجليزية عريقة، وتعمل على مدار الساعة كخادمة متواضعة، لم نكن أثرياء، ولكن وضعنا الاقتصادي كان فوق المتوسط، والدي كان مسؤولاً في مصنع بلاستيك، يتقاضى راتباً يزيد على حاجتنا، وما كان بحاجة

ليرهق نفسه بعمل لو وافق على استقبال ثروة هبطت علينا من السماء، حين عرضت علينا إحدى الشركات مبالغ خيالية مقابل بيع البيت والأرض المحيطة به، كنت أتفهم أن أمي مهووسة بكل ذرة تراب، ولكني لم أفهم يوماً الغضب الذي كان يعتري والدي كلما سألته:

– ما الذي سيضرك لو فكرت ببيعه، وبثمنه بإمكاننا شراء قصر بالمدينة والبدء بمشروع خاص بنا؟

رد عليّ بأنه خاض حرباً ضد نفسه قبل أن يحارب العالم بأسره لبناء هذا البيت، وأنه وجد السعادة والأمان والاستقرار فيه، ولن يستبدله يوماً حتى لو جاء من يدفع وزن كل حجر فيه ذهباً! لا أنكر أن بيتنا من أجمل البيوت، ويحتل موقعا مميزا، وله مكانه خاصة في نفس والدايّ، ولم أعرف يوماً الجهد الذي بذلاه معاً لبنائه، إلا من خلال ما رواه أبي، تعاطفت مع المكانة الخاصة للبيت وأتفهم أن الجيل القديم يتعلق بذكريات الماضي أكثر من أي طموح لمستقبل.

ولكن لم أتصور أن المستقبل سيكشف لي أن البيت يعني لأمي أكثر بكثير من الجهد والمعاناة، لقد جاءت إلي بقصة أكثر غرابة من زيارة كريمة لملكة الساحرات، لقد كانت جادة وتؤمن بعمق بأنها عاشت في هذا البيت سابقاً، لا شك في أن أوهام أمي وهوسها بتجسد الأرواح منبعه الكتب التي ازدحمت بها مكتبتها.

لم أعد صغيراً، وتجاوزتها في الوعي، ولا أنكر أنها كانت السبب في تحفيزي على القراءة ليل نهار لأصل لما وصلت إليه في سن صغيرة، هي تستحق أن أجاريها قليلاً في أحلامها وأفكارها حتى لو تناقضت مع العلم الذي كان خياري في الحياة،

من حقها أن تؤمن بأي فلسفة مثل بقية البشر تجد من خلالها الجواب عن السؤال الأزلي "إلى أين نحن ذاهبون بعد الموت؟" كان أبي حريصاً على أن يبعدها عن نار جهنم بإلحاحه الدائم على تكرار نطق الشهادتين، ولم تعارض طلبه يوماً، كان يصفها بأنها أكثر امرأة صالحة ولا ينقصها إلا الالتزام بأركان الدين، وكلما حاول معها كانت ترد عليه:

– سأحب الله على طريقتي.

والدي لم يسمح يوماً بأن أجادله في أي أمر له علاقة بالدين، لم يكن ذكياً بإصراره على مرافقته للمسجد كل يوم جمعة فقط للتباهي بأن ابنه تقيّ، وما كنت أكتشفه من نفاق بعض أصحاب اللحى نفرني منهم كثيراً، وكنت ألجأ لوالدتي لأنفس لها عن غضبي بأن هناك شيئاً خاطئاً، فكانت تلتزم الحياد وتغلق الطريق أمامي بإجابتها:

– دينكم جميل وأعتذر منك فأنا لا أعرف الكثير عنه لأرد عليك، ولكن بإمكاني أن أخبرك من تجربتي أن المشكلة ليست في الأديان وإنما في البشر، السوء ينمو فيهم أسرع من الخير وليس عليك أن تتبعهم لتجد طريقك إلى الله.

إن تعلق الأمر بالأديان فأمي تغلق كل الأبواب ولا تسمح لنفسها بالانجراف لأي جدل، لا أعلم إن كانت تفعل هذا إرضاء لأبي أم أنها فعلاً حائرة، وربما وجدت ديانتها الخاصة ولا ترغب أن تدعو أحداً إليها، لم تبتسم يوماً ومع هذا كنت أجد أحياناً متعة في مجاراتها والحديث معها عن حياتها السابقة، التي تعتقد أنها

عاشتها، وخاصة حينما تحكي لي أن الكثير من أفراد عائلتها قد اتبعوا ديانات كثيرة، لقد كانت تروي تفاصيل دقيقة لدرجة أني في بعض الأحيان كنت أصدقها، ولكن العلم الذي أنار عقلي في سن مبكرة، حال دون انجرافي خلف أحلام نسعى جميعاً لتصديقها، نجحت في الثانوية بامتياز، ولم يتفاجأ أحد فالنتيجة كانت متوقعة سلفاً، حصلت على معدل يسمح لي بدراسة أي تخصص، ولكن حلمي كان أن أكون رائد فضاء، ولن يحدث هذا يوماً إن لم أترك هذه البلاد، والدي قرر أن يحتفل بهذه المناسبة في بيت عائلته، لم تشارك أمي فهي تعلم أن لا أحد يحبها ليستقبلها، وأعلم أنها أيضا لا تريد أن تفتح الأبواب ليزورها أحد، لكنها أعدت لي احتفالاً على طريقتها هي:

– لقد حان الوقت لأعرفك على بيت عائلتنا ولن أنتظر أكثر.

هذا ما قالته أمي قبل أن تطلب مني مرافقتها، نزلنا إلى قبو المنزل وكان مكتظا بخزين البيت، أخذت تحذرني من أن ما سأراه لا يجوز الحديث عنه أمام غرباء، لم أكن بحاجة إلى أسألها عن من تصنفهم بالغرباء، فقد اعتدت من صغري على وصفها لكل من هو خارج عائلتنا بالغريب، وسرعان ما استحوذت على انتباهي وأبهرتني حينما فتحت بوابة في الجدار الحجري، لم ألتفت إليها يوماً مع أني نزلت القبو مئات المرات لإحضار بعض الحاجيات إليها، سرداب أوصلنا إلى آخر وممرات أخذتنا إلى الكثير من الغرف، بعضها كان مفتوحاً والبعض الآخر مغلقاً، ذُهلت مما رأيت ولم أعتقد يوماً أن أسفل بيتنا بيوتاً سرية كثيرة، انتقلت بي من مكان إلى آخر حتى وصلنا إلى سرداب مغلق ببوابة فولاذية مشابهة لبقية

البوابات، وكان بإمكاني أن أرى دون أن أعبره عدة بوابات أخرى شبيهة مغلقة، وممرات توصل إلى جهات مجهولة، وقالت:

- يوماً ما ستلتقي جدك وسيرافقك عبر هذه البوابة.

لم تكن المرة الأولى التي أسمع فيها عن هذا الجد، وأشك في أنه سيزورنا يوماً، ولا أشك في أن هذا المكان قد بني منذ مئات السنين، شد انتباهي وتفحصته بفضول، كانت أجزاء منه يمر إليها القليل من النور عبر فتحات من الأعلى أخبرتني أنه تم إخفاؤها بين الصخور، والجزء الآخر كان مظلماً، استعنت بكشاف يدوي، لا شيء عجيباً في المكان سوى أنه يستحيل لأي كان أن يستدل على وجوده من الأعلى، زيارتي للمكان حملت الكثير من الإجابات عن الأسباب التي دفعت أمي للإيمان بحياة سابقة، من الواضح أنها حينما رممت هذا البيت اكتشفت هذه السراديب صدفة، وأطلقت العنان لخيالها ليوهمها أنها عاشت في هذا المنزل في زمن ما.

لقد قرأت عشرات القصص عن بيوت وقلاع تخفي أسفلها مخابئ سرية، ولا شيء يميز هذا المكان إلا أنه معد ليحوي عدداً كبيراً من الأشخاص، كانت محقة في أن تبقيه سراً، وألا تدلنا على وجوده ونحن صغار، حتى لا نثرثر ويصل الخبر إلى دائرة الآثار، خشية ما يمكن أن يترتب على ذلك لاحقا. حاولت أن أشرح لأمي المثقفة أن تعلقها بالبيت وما اكتشفته أسفله، كان السبب الرئيس وراء إيمانها الغريب بتجسد الأرواح، ولكنها كانت أشد عناداً من أن تتخلى عن روايتها السابقة، لقد عاشت في هذا البيت وعائلتها وعليّ أن أصدق الأمر وانتهى. أما

والدي وفور أن سألته عن تاريخ البيت وكيف اكتشفا ذلك المكان، استشاط غضباً ووبخ والدتي لاصطحابها إياي تحت البيت، أما ردها عليه فقد أثار فضولي: "كان عليهما أن يعرفا بوجود هذا المكان في سن الرابعة عشرة، وإرضاء لك وافقت أن أنتظر حتى يكبرا أكثر، هذا بيت عائلتنا جميعاً، كيف يمكن أن يعتنيا به مستقبلاً إن لم يعرفا أسراره؟"

امتعض والدي من ردها، وأخذ يحذرني من أنه يمنع عليّ أن أتحدث مع أي كان حول هذا المكان، تفهمت أنه قد يخشى سلطة الآثار ولم أتوقع أنه يخشى أمراً آخر، حتى بدأ يشرح لي مطولا أن هذا المكان يسكنه الجن وأراد أن أقسم له على كتاب الله ألا أدخل إليه مجدداً، فأجبته:

- هي مجموعة من الغرف والسراديب القديمة لا شيء فيها لنخشاه.
- علينا أن نخشاها، لقد بناها الجن ليسكنها.
- هي من صنع البشر يا والدي ولا إعجاز فيها.
- أنت صغير ولن تعرف يوماً من يفتح الأبواب العجيبة ويغلقها.
- أنا كبير يا والدي، وقد تفحصت الأمر جيداً، وانبهرت كثيراً بهذا الإبداع البشري والدقة في تمويه الأبواب حتى لا يراها أحد، فتحها وإغلاقها يتم عبر آلية ميكانيكية تعتمد على عجلات من الفولاذ، وعشرات البكرات والسلاسل، لتنقل الحمل من مكان إلى آخر فينفتح الباب ويغلق. تعال معي لأشرح لك وأريك بأم عينيك كيف يتم ذلك! نحن نضغط على مجموعة من الحجارة وهي بدورها تدفع قطعة من الفولاذ تحرك إحدى

البكرات لتنقل ثقلاً آخر من بكرة إلى أخرى، فيتحرك دولاب كبير وتكتمل الدائرة، وينفتح الباب ويعود مجدداً ليغلق بفعل انعكاس الدورة، والأصوات التي سمعتها لم تصدر عن جن وإنما عن احتكاك السلاسل بالدواليب المخفية بين الجدران، وبالإمكان الاستدلال على ذلك من عرض الجدران بالقرب من الأبواب، ومن حلقات الفولاذ الظاهرة للعيان، بإمكاننا أن نزيل بعض الحجارة حتى أثبت لك ذلك، ولو توافرت لي الأدوات المناسبة لتمكنت بكل سهولة من صنع شبيه لها فاين الإعجاز في هذا يا أبي؟

لم يصغِ أبي لصوت العقل، بل أصر أن علينا على تجنب إزعاج سكان المكان، وجاءت المفاجأة من أمي حين أكدت على ما قلت، وأخذت تصف أنه بالقرب من كل باب هناك جدران، والدواليب الفولاذية اتصلت ببعضها البعض، لهذا لا يفتح باب إلا بعد إغلاق الآخر، أسهبتْ بالشرح وانبهرتُ بأنها قد اكتشفت هذه الخدعة وكانت أكثر إدراكاً للأمر، اعتقدت أنها تحررت من أوهامها قبل أن تعلن أن والدها شرح لهم ذلك وهم صغار حتى لا يرتعبوا من الأصوات التي ترافق انفتاح الأبواب الحجرية، فعلق والدي:

– لقد عشنا في هذا البيت سنوات بأمان لأننا تجنبا التدخل فيما لا يعنينا.

دار جدل حامي الوطيس بينهما:

– بيت عائلتي يحمينا ولا يؤذينا يا حسان.

– يا عمرة، أرجوك، اتركي ذلك المكان مغلقاً.

- لا، لن أخفي الأسرار عن أبنائي أبداً، وعليه أن يعرف كما عرفت أخته أن هذا بيت عائلته.
- يا عمرة، لا نعرف عن هذا المكان شيئاً، ولا حاجة لنعرف!
- لقد أخبرتك أن هذا بيت عائلتي وسيأتي اليوم الذي يجتمعون فيه ويتعرف عليهم.

استمر الجدل بين الأم المؤمنة بأن أرواح عائلتها ستجتمع يوماً، وبين الأب الذي ترعرع على خرافات الخربة، وهو على قناعة ان فيها "جن صلاح"، وأن هذا بيتهم ولا يجوز لنا الاقتراب منهم، واكتشفت أن أبي لم يجرؤ يوماً على التجول في هذا المكان، وما كنت لأتبنى يوماً إحدى الروايتين، وفقد كان عليّ إيجاد الرواية الأكثر عقلانية، لعلي أنجح يوماً في طرد الأوهام من عقليهما.

أخذت أذهب إلى ذلك المكان السري وأقضي فيه الكثير من الساعات، والأوهام وجدت طريقها إلي أيضاً، فقد شاهدت جزءاً من المكان يوماً ما، والجواب جاء إلي من أمي بأنها اضطرت إلى أن تصحبني إليه عدة مرات، الأولى كانت لتجد حلاً لحرارتي التي لم تتوقف عن الارتفاع، والثانية لتعيد لي القدرة على الابتسام، وعدة مرات أخرى لم ترغب بالحديث حولها، هناك لمحات قصيرة تظهر وتختفي لزيارتي هذا المكان، ولا أذكر أني كنت عاجزاً عن الابتسام، أصابني الهوس بدراسة تاريخ هذا البيت، بحثت لأيام طويلة لعليّ أجد علامة واحدة تشير إلى الحقبة التي بني فيها البيت، فالكثير من الممالك استوطنت بلادنا عبر التاريخ، لم أجد حرفاً ولا رمزا

ولا علامة، لا فخارة ولا زجاجة، لا شيء يمكن حمله وفحص تاريخه، حاولت أن أخلع البوابة الفولاذية فربما وجدت خلفها ما يساعدني على فهم تاريخ المكان فاستحال علي ذلك، وسألت أمي إن كانت هناك طريقة لفتح بوابة الفولاذ، فردت بأنه يسمح لي بالتجول حيث الأبواب المفتوحة، أما خلف البوابة المغلقة فهذا ممنوع دون إذن جدي ومرافقته، نعم عليّ أن أنتظر جدها، وسألتها:

– هل هو والد والدك؟ أم والدتك؟

وكانت غايتي إقناعها بأن المنطق يقول إن عمر جدها سيكون قد تجاوز التسعين عاماً، وربما يكون قد مات، فكان ردها:

– لا أعرف مكانه في شجرة العائلة، ربما يكون جد جدتي أو أبعد من ذلك، ولكننا اعتدنا أن نخاطبه بالجد.

– لقد فهمت إذن، جدك هذا شبح يا أمي وعليّ انتظار ظهوره، أليس كذلك؟

الكثير من الثقافات تؤمن بالأشباح ولا أجد عيباً أن تفعل أمي هذا. ولكن جوابها كان صادماً لي وشككني بقدراتها العقلية.

– جدي من القلائل الذين حافظوا على جسدهم وهيئتهم القديمة، ويستخدمه عند الحاجة فقط، ويتركه في مكان آمن تحت حراسة مشددة، وما زال يحتفظ بالجسد نفسه مع أنه ندر أن يسكنه.

– لقد فهمت، شكرا يا أمي على التوضيح!

وماذا عليّ أن أجيبها غير ذلك، إن وصلت أمي إلى هذا الحد من الأوهام فعليّ مجاراتها، وتركها تستمتع بأحلامها، انه من الأنانية أن تسرق حلماً جميلاً من أي كان، فكيف إن كان هذا الشخص قلبي الذي ينبض في صدري؟

جولاتي المتكررة أسفل بيتنا ساعات طويلة أثبتت وجهة نظري، لا شيء هناك سيثبت عمر البيت وتاريخه، والظاهر من خلف بوابة قضبان الفولاذ المغلقة، لا يدل أني سأكتشف جديداً، أشفقت على أمي وجاريتها، وتساءلت هل سيطاوعني قلبي يوماً وأتركها خلفي كما فعلت كريمة، وحدس الأم معجزة بحد ذاته لا يحتاج إلى علم ليفسره، وكانت ترى السؤال في عيني وتجيب عنه:

– عليك أن تحقق ذاتك وتكتب قصتك، لا تقلق أنا ووالدك سنعتني ببعضنا.

– سأحقق حلمي، لست في عجلة من أمري.

سَافَرَ والدي إلى الحجاز ليحقق حلمه بأداء فريضة الحج، ترك حيزاً من الفراغ، وقد اعتدنا تناول العشاء أو الغداء برفقته، وبعد عشرة أيام تفاجأتُ قبل أمي بزيارة أعمامي وعماتي وأبنائهم وزوجاتهم دفعة واحدة، لم يحدث هذا من قبل، فلا أحد منهم يحب الأجنبية عمرة، لهذا تجنبوا زيارتنا، جاؤوا مهنئين والدموع بأعينهم.

كان من الحكمة والذكاء أن ينظموا صفوفهم ويرسلوا من يمهد لنا، قبل أن يندفعوا باتجاه بيتنا بأعداد كبيرة، المرأة المجبولة من صخر فور أن رأتهم من بعيد لم تحملها ساقاها، فتربعت على الأرض جحظت عيناها وغرقت في الصمت.

لم أرَ أمي تنهار بهذه الطريقة سابقا، ارتعبت وارتجفت حتى قبل أن يصل أذناي ما قاله أحد أعمامي:

- حسان في طريقه إلى الجنة، والله أنعم عليه أن يغادر الدنيا طاهراً نقياً كالثلج، وتم دفنه في أطهر بقعة في الكون!

بهذه الكلمات الناعمة زف عمي لنا خبر وفاة والدي، لم أجرؤ يوماً على التطاول عليهم، والمصيبة كانت أكبر مني ومنهم، فقلت ساخراً:

- وماذا بعد؟ هل علينا أن نوزع الحلويات ونرقص فرحاً!! لماذا تبكون وقد قررتم أنه ذاهب إلى النعيم؟ أليس علينا أن نتأكد من أنه لم يقع خطأ قبل أن نبدأ الاحتفال؟

راعى أعمامي غضبي وحزني، وأن الصدمة هي من حركت لساني، لم يمتعضوا من أسلوبي الوقح، وشرحوا لي أن أحد أقاربنا قد أشرف بنفسه على دفنه، وأن عليّ أن أستعين بالله وأدعو له بالرحمة.

أحتاج والدي أن يعود إلى البيت لا أن يذهب إلى الجنة، أحتاجه لأتشاجر معه، أحتاجه ليجرني خلفه غصباً عني لحضور مناسبات عائلته التي لا نهاية لها، أحتاجه ليعيد على مسامعي أنه لم يُغضب والده يوماً، ولم ينقطع عن صلاة، وأن الله رزقه زوجة صالحة. أحتاجه ليكون بالقرب من هذه الصالحة التي لم تجد طريقة لتعبر بها عن وجعها لفقدانه إلا بالصمت.

هذا ما كان ينقصني في مثل هذه الظروف، أم لا تبتسم، لا تبكي ولا تتكلم، وكلما حاولت معها أشارت بيدها، وفهمت أن عليّ الابتعاد وتركها وشأنها، لم أتخيل يوماً أن عمرة تحب أبي لهذه الدرجة، ولم أدرك كم كان مهماً في حياتي إلا بعد خسارته، ليت بالإمكان أن ألتقيه لدقيقة واحدة فقط لأخبره كم أحببته، وأن معاندتي له في بعض الأحيان كانت بسبب غيرة دفينة في أعماقي لأنه أحب كريمة أكثر مني! أختي الرائعة التي لم تجد وقتاً لتعود لأيام وتشاركنا حزننا، وعليها أن تشكر السيد جراهام بيل لأنه اخترع وسيلة لإراحة ضميرها دون أن تهدر من وقتها الثمين سوى دقائق! ورن الهاتف الذي طارد أبي أشهراً ليتم تركيبه فقط ليسمع صوتها بين الحين والآخر:

- كيف أنت يا أخي؟
- أنا بخير، شكرا على اتصالك، أمي مشغولة بحديقتها، وما زالت صائمة عن الطعام والكلام، إن أردت أن تتحدثي معها فاتصلي في وقت آخر.

- أنا اتصلت لأطمئن عليك يا أخي، أعلم أنك غاضب لأني لم أكن معك في هذا الوقت العصيب، أردت ذلك ولكن أمي أصرت على ألا أحضر في الوقت الحالي.
- ما زلت موهوبة باختراع القصص، هل حققت حلمك وأصبحت كاتبة عظيمة؟ وللعلم فقط، أمي لم تقترب من الهاتف ولم ينطق لسانها منذ وفاة والدي!
- لا بأس يا أخي إن لم تصدق، أرجوك ابقَ بالقرب منها فوجعها على فقدان والدنا لا يحتمله بشر.

أجهشت كريمة بالبكاء، لا حاجة لأسباب لتفعل ذلك، فهي في بداية ونهاية كل مكالمة تبكي، وقد ذرفت الدموع نيابة عن عائلتنا لألف عام قادم، لم يكن الظرف مناسباً لأفرغ غضبي عليها، جاريتها لأول مرة ربما تكريماً لذكرى والدي الذي أحبها أكثر من أي شيء آخر بالعالم، وعدتها أن أعتني بأمي وأبذل كل جهد لأقنعها بتناول الطعام.

حاولت فعلاً ولم أنجح، أثارت جنوني لأنها لم تتوقف عن إعداد طعام الفطور والغداء والعشاء، ورجوتها ألا تفعل إن لم تشاركني فيه، لم تصغِ فأعلنت إضرابي عن الطعام تضامناً معها، لعليّ بذلك أدفعها لتناول الطعام، لم تتراجع واستمرت بإعداد الطعام في مواعيده، وكأنها تخبرني أنها لن تتوقف عن فعل هذا، ولم يبقَ أمامي ما أفعله سوى المراقبة والانتظار، أربعون يوماً من الحداد والصوم عن الطعام والكلام أنهتها أمي حين قالت:

- لقد ادخرنا من النقود ما يكفي لمساعدتك في تعليمك، ورحيل والدك عن جسده ليس عليه أن يكون عائقاً أمام تحقيق ذاتك وكتابة قصتك.
- لن أتركك يا أمي أبداً.
- لا تقلق عليّ فأنا سأعتني بنفسي من أجلكم، فاخلع عنك الحزن، وشرِّف اسم والدك ليكون فخوراً بك.
- اطمئني سأجد طريقي، أنا بحاجة لبعض الوقت لأتخذ قراراتي.

عادت أمي إلى طبيعتها السابقة، هذا ما رأيته ولن أعرف يوماً ما يدور في رأسها، أما بالنسبة لي فمرور الأشهر لم يخفف من وجعي على فراقه، والوحدة تزيد الأمور سوءاً على سوء.

كانت مصادفة حينما رافقت أحد أصدقائي المقربين واحتسيت الكحول للمرة الأولى، كان طعمه مراً وأثار في نفسي القرف، ومع ذلك راق لي لأنه أفقدني التركيز وسرق مني الوقت، فصادقته، وهجرت من عرفني عليه، لم يقدم لي السعادة ولم يخلع عني أحزاني، ومع هذا توطدت علاقتي به، ولم أعد أطيق فراقه، عائلة والدي محافظة، ومع هذا بعض أبناء عمومتي يحتسون الكحول سراً وعلناً، هذا الأمر عرضهم لبعض الانتقاد وما عاد أحد يكترث.

أما أنا فالتزمت جانب الحذر، فلا أريد أن يكتشف أمري، ليس خشية منهم، وإنما لا أريد أن أقدم لأقاربي سبباً لانتقاد أمي، فأنا ابن عمرة الأجنبية وهي ستكون الملامة، أمي لم تملك الوقت ولا الأصدقاء يوماً لتسمع ما يدور حولها من أحاديث، ولكنا كنا نسمع ونتأذى، تفوقي الدراسي جعلني ابن أبي، وتركي للصلاة

كان ذنب أمي، كريمة كانت بارعة في التعامل معهم وكانت دوماً المهذبة ابنة أبيها، وحينما ضربت ابنة عمي تحولت بقدرة قادر إلى الشيطانة ابنه أمها، مسكينة أمي، كانت دوماً كبش الفداء، ولو عرفت كم مرة يتكرر اسمها لتركت البلاد ورحلت.

جاء اليوم الذي تخليت فيه عن حذري، ثملت وعدت إلى البيت برفقة زجاجة من الفودكا، فاستقبلتني والدتي:

- لا يحق لك أن تفعل هذا يا صريخ!
- أنا راشد إن لم تلاحظي ويحق لي أن أفعل ما أشاء، ولا تخاطبيني بهذا الاسم القبيح مرة أخرى.
- مهما كبرت وبلغت من العمر فواجبي أن أهذبك ما دمت عاجزاً عن تهذيب نفسك، وحين تتوقف عن الصراخ سأكف عن مناداتك باسم صريخ.
- لا تخافي، القليل من الخمر لن يقودني إلى جهنم، فما رأيك أن أسكب لك القليل لعله يرسم ابتسامة على شفتيك.
- ما كنت لأفعل أمراً يسيء لمشاعر والدك أبداً.
- لقد مات يا أمي، لقد مات!!
- سيجد طريقه يوماً للبيت، وعندها لن يسره ما تفعل.
- أخبريني يا أمي، ألم تحتسي الخمر في حياتك السابقة؟

- ليس عليّ أن أجادلك وأنت ثمل، والآن أرجوك، أخرج هذه الزجاجة من بيتنا، أنت راشد ويحق لك أن تفعل بحياتك ما تشاء، ولكن لن أسمح أن تسيء لمشاعر أحد أفراد عائلتنا بتصرفاتك.
- لقد مات يا أمي، ولن يعود يوماً.

أفقت في الصباح وهذا ما تذكرته مما دار بيننا، شعرت بندم شديد على وقاحاتي في التعامل مع أمي، اعتذرت لها ووعدتها ألا أكرر فعلتي فردت عليّ:

- أقبل اعتذارك، ولكن علي ألا أتحدث معك لثلاثة أيام

قبلتها وابتعدت، لا شيء سيثنيها عن قرارها، لقد فعلت هذا سابقاً، ابتكرت هذا النوع من العقاب بعد بلوغي السادسة عشرة من عمري، ومهما فعلت فلن تتراجع عن قرارها، وقد أثمر العقاب فعلاً، وهذبت نفسي إرضاء لها، لم أهجر الخمور نهائياً، ولكني تجنبتها، وإن حدث واقتربت منها لم أكن أعود إلى البيت إلا بعد إخفاء كل أثر يدل على ذلك، ما حدث أصبح من الماضي ولم يعد يشغلها إلا أن أتخذ قراري بإكمال تعليمي، لكني فقدت الرغبة بفعل أي شيء في حياتي، وإرضاء لها فقط سجلت بجامعة قريبة، عدة محاضرات وشعرت بالملل وهجرت العلم، وأوهمتها أني مواظب على التعليم، لم يكن خداعها بالأمر الصعب فأنا أقضي معظم وقتي في قراءة أي شيء يقع تحت يدي، وما كنت لأخدع عمرة لوقت طويل، فقد قالت:

- إن كنت لا أقرأ العربية فهذا لا يعني أني لا أعرف أن الجامعة ما عاد لها مكان عندك، لقد أخبرت شقيقتك سابقا أن بإمكانها خداعي ومع ذلك لن أسمح لها أن تخدع نفسها!
- أعلم أنك تمتلكين حاسة قوية، وحان الوقت للإقرار بالواقع، أنا لست بذكاء ابنتك ولا أملك طموحها.
- لا، أنت لست مثلها، هي لم تمتلك قدراتك ولم تبلغ ذكاءك، ظروفنا كانت قاسية وحرمت من الرفاهية التي عشتها أنت، ومع هذا امتلكت الإرادة والجرأة لتغير حياتها، وتكتب قصتها بنفسها، وليس عليك أن تخاصمها لأنها قررت أن تتبع حلمها، لقد مرت سنوات طويلة على سفرها وأنت لم تفكر لمرة واحدة أن تسألها عن حالها، ليس بالضرورة أن تلتصق بك لتشعرها بحبك، حرر روحك لتعانقها مجدداً، حرارة العناق مصدرها الروح لا الجسد.
- أنا أطمئن عليها دوماً، وكلما رن الهاتف أرد عليها.
- ترد عليها بجفاء ولم أسمعك يوماً تسألها أو تفتح لها مجالاً لتحدثك عما أنجزته في حياتها.
- وأنت أيضا لم تفعلي يا أمي!
- لست بحاجة لهاتف لأتحدث مع أبنائي وأطمئن عليهم.

– آسف، لقد نسيت أنكم عائلة خارقة للطبيعة وبإمكانكم التحدث عبر التخاطر، اعذريني فأنا لم أرث منكم مواهبكم الخارقة، ولا هوسكم بالأرواح!

اعتذرت منها على الفور، فلا أريد منها أن تخاصمني لثلاثة أيام، فردت علي:

– كان صوتك منخفضاً وليس عليك أن تعتذر.

أخبرني أبي يوماً أنه لا يوجد حب يضاهي حب الوالدين لأبنائهم، ولو كان حياً لأخبرته أن حبي لأمي يضاهي أي حب في الوجود، وما كنت لأتردد أن أنزع قلبي وأقدمه لها، ومن أجلها فقط عدت إلى العلم وحاولت أن أكون جاداً أكثر، أشهر طويلة من الهدوء برفقة الحبيبة التي ظهر عليها كبر السن قبل أوانه، وأخذ المرض يزورها كثيراً، كانت امرأة من فولاذ ولم تسمح للمرض أن يتغلب عليها، وفي أحد الأيام الهادئة، أمسكت بكفي فجأة وأخذت تشد عليها، كانت هذه طريقتها حينما تريد أن تحدثني بأمر مهم، فقلت لها:

– أنا مصغٍ يا أمي تحدثي.

– أريد منك وعداً، إن حدث لجسدي أمر مفاجئ أن تحتفظ بالمفتاح لحين حضور جدك ولا تحاول أن تدخل تلك البوابة أبداً مهما كان السبب، وإن لم تستطع فعليك إخفاؤه داخل بيت العائلة وألا تخبر أحداً غير أختك بمكانه.

– عن أي مفتاح تتحدثين يا أمي؟

– ستعرف في حينه.

– سلامتك يا أمي من كل شر.

– عمر الجسد قصير وعلينا أن نستعد دوماً لفراقه، لأنه قد يخذلنا فجأة في المكان والوقت غير المناسبين.

كانت أمي بصحة جيدة ولم يكن هناك داع لمثل هذا الحديث الكئيب، لم أرغب في أن أخوض معها أي حديث حول مفتاح وجد وبيت وأوهام، فإن جاريتها تكتشف ذلك بسهولة، لهذا وعدتها وانتقلت إلى موضوع آخر.

مرت شهور على هذا الحديث، مرضت أنا واعتنت بي، ومرضت هي واعتنيت بها، ومرت الأمور بسلام حتى أصابتها أنفلونزا حادة وارتفعت حرارتها لدرجة تبعث على القلق، كنت ابناً صالحاً سهرت عليها طوال الليل، أضع الكمادات الباردة على قدميها وأقبلهما، لا شيء يشعرني بالفخر أكثر من هذا، تنخفض حرارتها وترتفع، لم أرفع عيني عنها للحظة ولم أشعر بالنعاس والتعب وأنا أعيد لجسدها توازنه، كانت تهذي بالعربية والإنجليزية ولغات أخرى.

اطمأن قلبي حينما انخفضت حرارتها، مسحت عرقها ولمحت خيطاً سميكاً حول رقبتها، رفعت رأسها قليلاً لأنزعه عنها وأوفر لها الراحة فتبين أن مفتاحاً قد علق به واختفى تحت ملابسها، وضعته بجانبها ولم ألتفت إليه، توقفتْ عن الهذيان وغرقتْ في نوم عميق، ما عاد شيء لأفعله سوى الجلوس بجوارها ومراقبتها، وبين الحين والآخر أترك كفي تلامس جبينها لأطمئن أكثر.

المفتاح لا شيء فيه ما يلفت، كان ثقيلاً وحجمه أكبر من المعتاد، ومن المرهق أنها علقته برقبتها وأخفته تحت ملابسها، لا أشك أنه يفتح البوابة المغلقة، وتساءلت أين وجدته، الفضول همس بأذني:

– لن تحتاج إلى أكثر من خمس دقائق لتلقي نظرة سريعة وتغلق هذا الموضوع للأبد، أمك بخير وهي غارقة في نوم عميق، هيا انطلق بسرعة!

أن أحنث بوعدي بعدم الاقتراب من بوابة الأوهام لم يكن بالأمر الذي سيحرك ضميري، ولكن أن أستغل مرضها فلن أسامح نفسي على ذلك أبداً، ومع ذلك كنت حقيراً وأسرعت لألقي نظرة خاطفة قبل أن تصحو وتكتشف أمري، المفتاح لاءم القفل وانفتحت بوابة الفولاذ، وانتقلت من سرداب إلى آخر على ضوء مصباح يدوي، حتى اعترضت طريقي بوابة ثانية تشبه الأولى في كل شيء إلا معدنها، فقد كان أقرب إلى الفضة، والمفتاح لم يعجز عن فتحها، لا شيء لأكتشفه سوى الفراغ، انتقلت من مكان إلى آخر، وتعثرت أكثر من مرة، ولم يكن هناك ما أتعثر به إلا ضوء الكشاف والفراغ، وأخذت أسمع صوت أفكاري وأجيب:

– ما رأيك أن أحكي لك قصة عن ملك ونملة بيضاء؟

لا أذكر أني قرأت أو سمعت يوماً قصة تحمل هذا الاسم، واستفزني التفكير باسم القصة التي لا أجد لها أثراً في ذاكرتي، فتذكرت أنه كان هناك ملك عظيم لم يعرف الغضب يوماً فجمع مستشاريه وطلب منهم أن يجدوا له طريقة تشعره بالغضب، لا أتذكر تتمة القصة ولكن بإمكاني أن أخمن أن المستشارين ومعهم سكان المملكة

والممالك الأخرى الأغبياء منهم والعباقرة فشلوا في إيجاد الطريقة التي تعيد للملك غضبه، مثل هذه الحكايات تحتاج إلى فشل، ويكون النجاح حينما يطل علينا رجل أحمق يمتطي حماراً، لنكتشف فيما بعد أنه حكيم، لا أفهم السر الذي يجمع الحمقى والحكماء بالحمير في الحكايات، أشعر باستفزاز كبير، وهل يهم إن كان الحكيم على ظهر حمار أو فيل؟ فالقصة تدور حول كيف يعود للملك غضبه، ليس من الصعب أن أخمن أن الحكيم الأبله التقى بالملك ووعده الأخير أن يعطيه وزنه ذهباً إن نجح، وثمن الفشل سيكون حياته، لا شيء يتغير في الحكايات فكلها متشابهة وعلى الحكيم وحماره أن ينجحا في المهمة ليبهرا الملك والشعب، القصة لا تستحق أن أرهق ذاكرتي في البحث عن علاقة النملة البيضاء بالقصة، اشتد بي الغضب وأخذت أصرخ:

– أين المنطق أين الإبداع؟ هل يعقل أن بناة هذا المكان لم يشعروا بالرغبة في أن يتركوا علامة واحدة تدل عليهم لتخلد اسمهم عبر الأزمان أم كان هدفهم ملؤه بالفراغ؟

شعرت بالحاجة لأنفس عن غضبي، أخذت ألكم وأركل الفراغ، أفقد توازني وأتعثر وأنهض، وأردد:

– كان هناك حكيم نصح ملكاً أن يحبس نفسه مع نملة بيضاء في غرفة واسعة لونها أبيض، لا أبواب لها وعليه أن يراقبها وألا يجعلها تغيب عن ناظره ثلاثة أيام.

لا أذكر تتمة القصة ولا كيف تسللت إلى ذاكرتي، ربما روتها لي كريمة أو أمي وربما سمعتها في مكان ما، وبإمكاني أن أخمن أن الملك فقد رشده، ولا أستبعد أن عقلي اخترع هذه القصة المستفزة لملء فراغ هذا المكان بنملة.

اعتذرت من أمي، وقررت مسح كل ما له علاقة بأسفل البيت من ذاكرتي، ما عاد يهمني تاريخه ولا من بناه، وإن كان يسكنه جن أبي أو جنون أمي، فلا أريد أن أفقد عقلي وأنا أبحث عن نملة سوداء أو بيضاء لن أجدها يوماً في فراغ.

الغضب والفراغ رافقاني شهوراً طويلة، انتقلت من جامعة إلى أخرى ومن تخصص إلى آخر، لا هدف، ولا حلم أسعى إليه، وحياتي ما عادت تحمل معنى.

لم أتوقف عن الضحك في وجه أمي صباح مساء في محاولة لأجنبها الإحساس بالضياع الذي أعيشه، وإن حاولت أن تجرني لحديث جاد، كنت أحسم الموضوع وأتمسك بحقي أن أمارس الصمت، وكانت تحترم ذلك فهي من علمتني أنه لا يحق لنا أن نجبر أحداً على الحديث إن لم يرغب بذلك، كنت أعلم أنها تتعذب بصمت وهي تراقب ابنها الفاشل، ولم أرغب في أن أزيد من همومها وكنت آمل أني سأجد حلاً وأستعيد نفسي لأكون الابن الذي تستحقه، وفاض صبر أمي وأضحكتني حينما قررت للمرة الأولى أن تخرق قوانينها فقالت،

- من اليوم تم إلغاء قانون الصمت، وما عاد بإمكانك التهرب من الحديث.
- لا يحق لك سن قانون وإلغاؤه أيتها الرئيسة.
- هذا القانون تم استغلاله بطريقة خاطئة لهذا ألغيته.
- وأنا أعترض بشدة، فهذا القانون لذيذ يا أمي.

- لا يحق لك الاعتراض، الأم تسن القوانين لتحمي أبناءها لا لتحكمهم، والآن عليك أن تقبل مساعدتي لأخرجك من الدوامة التي غرقت فيها.

ضحكت وكان عليّ مجاراتها لعليّ أخفف عنها، أديت التحية وقلت لها:

- أنا أمتثل لقوانينك أيتها الرئيسة، مشكلتي الوحيدة أني حائر فعلاً في التخصص الذي سأجد نفسي فيه، فما رأيك أن تختاري لي أنت ما عليّ دراسته وأنا سألتزم لأحقق حلمك.

كنت صادقاً في كل كلمة نطق بها لساني، وعليها أن تختار ماذا تريد مني أن أكون لأحقق لها ذلك، وهل هناك هدف أسمى من إرضاء من أسخر لها كل حياتي، حدقت بي مطولاً قبل أن تعذبني بكلماتها:

- لقد فشلت كأم مرتين، الأولى حينما غفلت عيني عنك وغرقت بالضياع، والثانية حين لم أجبرك على الخروج منه، هذا خطأي وعليّ الآن تصحيحه.

قاطعتها وحاولت إقناعها بأنها أروع أم في الوجود ولا ذنب لها بأني متقلب المزاج، فاجأتني بأنها تتحدث عن أمر آخر وقالت:

- الضياع الذي أنت فيه منذ فترة، هو ذنبي فقط، كان عليّ أن أكون حريصة أكثر حتى لا أمرض ويخذلني جسدي وأغفل عن حراسة المفتاح، وتحذيري لك من عبور البوابة لا يعفيني من المسؤولية، وعليك الآن أن تصغي جيداً لأساعدك بهدم الجدار الذي شيدته في أعماقك هرباً من مواجهة ما عجز عقلك عن تقبله.

قاطعتها فلا حاجة لأكون مهذباً وأتركها تتمادى في لوم نفسها وتعذيبها، أخطأت واعتذرت سابقاً وانتهى الموضوع، لم يحدث شيء يستحق الذكر، وليس عليّ أن أنساق خلف أوهامها التي تستفز عقلي وتهينه، شعرت بغضب وكان عليّ أن أغلق هذا الموضوع مرة واحدة وللأبد:

- أمي حبيبتي، لقد اعتذرت لك أكثر من مرة على أخذ المفتاح دون إذنك، ناقشنا هذا الموضوع كثيراً، فهل هناك طريقة لأقنعك بأني لم أر خلف تلك الأبواب إلا الفراغ، لا يوجد شيء يا أمي تشرحينه، فراغ فقط فراااااااااغ!
- أخفض صوتك يا صريخ، وليس من التهذيب أن تتحدث معي بنبرة صوت مرتفعة.
- أعتذر منك وأذكرك بوعدك بالكف عن مناداتي باسم صريخ.
- ألتزم بوعدي ما دمت تفعل المثل، لا تزعج أذني بصراخك، ولا أزعج أذنيك باسم صريخ، والآن تنفس بعمق واطرد الغضب، وأجبني عن سؤالي.
- لا، لن أجيبك عن أي سؤال، لن أجاريك بهذا الجنون، توقفي أرجوك، لماذا تصرين على استفزازي بأسئلة سخيفة؟
- أخفض صوتك يا صريخ.
- أعتذر يا أمي، أعتذر.
- إن كان هذا الموضوع سخيفاً فلماذا تشعر بكل هذا الغضب؟ وترصد أبواب عقلك بهذه القوة حتى لا تتسلل إليه كلمة؟ أليس الأجدر بك أن تصغي وتضحك؟

- أنا غاضب لأنك مصرة على زرع الأوهام في رأسي، لم أرَ شيئاً، فلماذا تسعين لإقناعي بالعودة إلى ذلك المكان.
- ألا تلاحظ أني لم أطلب ذلك، فما الذي يخيفك إلى هذا الحد ويدفعك لتقول هذا؟
- أنا لست خاااائفاً!! هل عليّ أن أصرخ أكثر لتصدقيني؟
- أخفض صوتك يا صريخ، وليس على العقل أن يصرخ ويتحجر أمام أي سؤال يناقض منطقه، لن أضغط عليك أكثر وسأنتظر أن تسأل نفسك لماذا تذكر كيف دخلت البوابة ولا تذكر كيف خرجت منها، حينها ستكتشف أن الأمور أبسط مما خيله لك عقلك العلمي.
- أنت امرأة غير عقلانية.
- أنا ماذا يا صريخ.
- أعتذر يا أمي، أنت حبيبتي.
- أقبل اعتذارك وعليّ ألا أحدثك ثلاثة أيام، فلا تزعجني.
- ألم تلغِ هذا القانون قبل ساعة؟
- أنا الأم وأقرر ما أراه مناسباً، انتهى النقاش.

هذه أمي، انتهى النقاش ولا نهاية لعنادها، لم أر شيئاً خلف البوابة، وهي مصرة على أني رأيت شيئاً لم يتقبله عقلي، وقمت بإخفائه في أعماقي لهذا لا أذكره، لا شيء سيقنعها بأن قصة المفتاح تثير غضبي لأني أشعر بالخزي وتأنيب الضمير لتركها على فراش المرض والمطاردة خلف فضول سخيف، لا أريد أن أتذكر أو

يذكرني أحد بتلك الليلة، ثلاثة أيام من الصمت مرت، والمرأة التي أخاف عليها من نسمة الصباح الباردة، حاولت أن تعيد فتح الموضوع أكثر من مرة، لم أصرخ وحسمت الموضوع بأني لن أتحدث عن تلك الليلة أبداً.

مر عام من السلام والهدوء بلا خصام ولا مقاطعة، لم يلامس الخمر شفتي، ولم أشعل سيجارة، لم أرفع صوتي ولم أعد صريخ، ساعدتها بزراعتها ولم أتذمر، حاولت العودة للجامعة ولم أجد نفسي ولم أكف عن المحاولة إرضاء لها.

لم أقلع عيني ولم أنزع قلبي لأقدمهما لها، وبذلت كل ما أمكنني لترضى عني، حاولت كثيراً أن أكون أكثر لطفاً وقرباً من أختي لأسعد أمي بالرغم أن الطفل الذي يسكن أعماقي اتخذ قراره وأرادها أن تبقى بعيدة عنه حتى لا تكسر قلبه مرة ثانية، كانت أمي تقترب من الخمسين من عمرها والمرض وجد طريقه إليها وأخذ يزورها كل عشرة أيام، استنفذ طاقتها وسرق حيويتها، وكلما ألححت عليها بزيارة طبيب كانت ترد:

– لا تقلق، أنا أعرف ما أصابني وسأكون بخير.

عادت لتكون بخير، وأسعدني أنها تنازلت عن مزرعة الدواجن والكثير من حيواناتها الأليفة، وقررت أن تزرع أشتال الزيتون بالمساحة المخصصة للخضار، هي تستحق الراحة ولا يعقل أن ترهق جسدها في الأعمال الشاقة التي تمارسها كل يوم. هنأتها على قرارها الصائب وكان ردها مؤلماً:

- لا أملك الخيار لأصيب أو أخطئ، فجسدي سيخذلني عاجلاً أم آجلاً، لهذا أعد الأرض بما سيسهل عليك رعايته حين تحين اللحظة وأغادر هذا الجسد.
- سلامتك من كل شر يا أمي، وأتوسل إليك، لا تعيدي ما قلته مرة أخرى، فمجرد التفكير بأني قد أفقدك يوماً يصيبني بالجنون.
- كنت ستسهل عليّ الشرح لو تقبلت حقيقة أن الحياة تتعدى الجسد، وحين تودع جسدي سيكون وجعك أقل إن تعلمت كيف تتواصل معي.
- إن كان هذا صحيحا فلماذا كان فراق أبي موجعاً لك، ألم تتمكني من التواصل معه مثلاً؟
- فراق الأحبة سيبقى موجعاً دوماً، وأنا أتأمل أن يجد والدك الطريق إلى البيت يوماً.
- وأنا يا أمي سأحترم دوماً فلسفتك الخاصة بالحياة، بصرف النظر إن آمنت أو لم أؤمن بها، ولكني لن أحتمل يوما مجرد التفكير بأن يصيبك مكروه.
- لا شيء يمنح القوة للأم أكثر من حبها وحب أبنائها لها، وليتك في هذه الأيام تحبني أقل.
- لا حياة لي من دونك يا أمي ولن أتوقف عن حبك أبداً!

التصقت بأمي لدرجة لم أعد أرغب في أن أفارقها للحظة، كانت أروع أيام حياتي تلك التي كنت أفيق فيها ليلاً وأجدها نائمة في فراشي تحتضن ذراعي، كنت أطول

منها وأعرض فانكمش وأتكور حتى يتسع لي حضنها، وألتصق بها كما اعتدت أن أفعل في طفولتي، مهما بلغنا من العمر فهناك طفل في أعماقنا يحتاج إلى حضن أم، وعلى الرغم من سعادتي فقد انتابني شعور خفي أثار قلقي، من تسللها إلى فراشي ليلاً أكثر من مرة، لم تفعلها في السابق إلا حين كنت مريضاً، عينا أمي صامتتان لم تنطقا يوماً، وكلما حاولت الغوص فيهما غرقت في فراغ، لم تمر أيام حتى تبين أن لقلقي ما يبرره، رأيت في عينيها حزناً عظيماً تسلل إلى روحي واعتصر قلبي وارتعشت من هوله كل ذرة في جسدي، زلزلت عالمي كله حينما قالت:

- سأرحل قريباً.

دوماً كانت تختار الكلمات الكبيرة وعلى من حولها أن يفهم، "سأرحل" كلمة صغيرة تحمل أكثر من معنى، وإن خرجت من بين شفتي أمي فلا تحمل إلا معنى واحد "سترحل" طلبت منها أن تضيف لـ "سأرحل" عدة كلمات لأفهم المقصود، إلى أين الرحيل، إلى المدينة، إلى خديجة، إلى كريمة؟

- لا، لن أذهب لأحد، سأرحل فقط.
- إلى أين يا أمي؟
- أعتذر منك، لن أستطيع أن أوضح أكثر.
- لا تعتذري ولا توضحي فقط أخبريني إن ذهبت متى ستعودين؟
- لقد اتخذت قراري سأرحل ولن أعود فلا تنتظرني.

أمي لا تكذب ولا تمزح، وإن قالت شيئاً فهي تعنيه ولا تتراجع عنه أبداً، حاولت أن أخفي توتر الطفل المرعوب من ابتعاد أمه عنه، فأخذت أمازحها:

- لقد اتفقنا يا عمرة أن أبحث عن الفتاة التي ستحمل لك الأحفاد، فهل سيطاوعك قلبك ألا تكوني أول من يستقبلهم؟
- أعتذر منك فلن أكون موجودة حينها، وأنا أعتمد عليك بأنك ستجد المرأة المناسبة لتكون جزءاً من عائلتنا، تعتني بك وتعتني بها، وقبل أن أرحل أريد منك أن تقطع لي وعداً أنك ستحافظ على البيت جيداً.
- لا لا أعدك! إن رحلت فعلاً سأهدم البيت ولن ألتفت خلفي أبداً!
- لن تفعلها يوماً، أنت ابني وأعرفك جيداً.
- أمي أرجوك أنت تخيفيني فعلاً، سأفاوضك على أي شيء، سأعود للجامعة، سأسمح لك بالمناداة عليّ باسم صريخ، سأتحدث مع كريمة لساعات، سأفعل أي شيء، سأؤمن بالشيطان حتى، فلا تقدمي على هجري!!
- لم أجبرك على فعل أي شيء لا تريده وأنت صغير، وما كنت لأفعلها وأنت رجل ناضج، عائلتنا لا تؤمن بالشيطان، ولن يسر والدك لو سمع هذا على لسانك يوماً.
- سأؤمن بأن والدي سيعود إلى البيت، سأؤمن بعائلتك، بأي شيء، فقط لا ترحلي!

– ليس عليك أن تؤمن بشيء، فقط آمن بنفسك، واعتن بالبيت، ويوماً ما سيأتي جدك لزيارتك، وسيجد طريقة لإخراجك من الفراغ الذي غرقت فيه.

لم تكذب، لم تمزح، لم تبتسم، وبعد عدة أيام حملت حقيبتها وخرجت من البيت دون عناق ولا وداع، وأخذت أتبعها وعقلي يأبى أن يصدق أنها سترحل، توقفت التفتت إلي وقالت:

– أنت لم تعد صغيراً لتتبعني، أرجوك دعني أرحل بهدوء ولا تعذبني أكثر!

– أخبريني إلى أين أنت ذاهبة ومتى ستعودين وسأتوقف عن ملاحقتك.

– أنا ذاهبة لأستمتع بما تبقى من عمري بعيداً عن كل شيء، وهذا حقي كإنسانة، انظر إليّ جيداً فهذه المرة الأخيرة التي ستراني فيها بهذه الحياة، كن ابناً صالحاً واحتفظ بذكرياتنا الجميلة معاً، ودعني بابتسامة وتمنى لي السعادة هيا افعلها أرجوك.

– عانقيني إذن وقولي لي إنك ذاهبة للبحث عن السعادة لأصدق.

– لن أعانقك والآن سأستدير ولن ألتفت إلى الخلف مرة أخرى وتذكر جيداً أني لن أعود.

نبرة صوتها مزقتني إلى أشلاء، جلست على الأرض وأخذت أعد كل خطوة أبعدتها عني حتى تلاشى ظلها، عدت إلى البيت وإنتظرت عودتها، أردت أن أصدق أنها ستعود وأعلم في أعماقي أنها لن تعود، لم يكن لها عنوان غير هذا البيت، وهي لم تغب عنه لأكثر من ساعات معدودة، والمكان الوحيد الذي قد أشك في أنها

ستذهب إليه جاءت صاحبته خديجة لتسأل عنها، فأخبرتها أن أمي حملت حقيبتها ورحلت، فأخذت تبكي وتنوح.

- يا إلهي، لم أصدق حين تحدثت مع كريمة وأخبرتني أن عمرة رحلت ولن تعود "قريباً"!

ما قالته خديجة أثار بداخلي الكثير من الأسئلة، كيف تعرف كريمة؟ وهل يعقل أنهما تآمرتا عليّ؟ ذهبت وبحثت عن رقم هاتف أختي اللعين فلم أجده، وتسمرت بجوار الهاتف لأيام لعلها تتصل وتريح قلبي حين تخبرني أن أمي سافرت إليها وستعيش معها، فلا منطق غير هذا، ورن الهاتف:

- كيف أنت حبيبي؟ طمني عن أخبارك.
- أين أمي يا كريمة ومتى ستعود؟
- لا أعرف أين ذهبت ولكنها ستعود يوماً ما.
- أمي لم تكذب يوماً وقد أخبرتني أنها لن تعود.
- ثق يا أخي بأنها ستعود، والآن مسؤولية البيت تقع على عاتقنا، أنا وأنت.
- كريمة، لا تستفزيني أكثر، هل أمي عندك؟
- أقسم لك بروح والدنا أني لا أعرف إلى أين ذهبت، وليس علينا أن نقلق عليها، من حقها أن تفعل ما تريد.

نبرة صوت هذه الكاذبة لا يوحي بأي قلق، لم أحتمل مواصلة الحديث معها فأغلقت الهاتف في وجهها، وندمت لأني لم آخذ رقمها، لكنها عادت واتصلت:

– حبيبي، سأنتظر مكالمة منك بعد أن تهدأ، وبإمكانك الاتصال بي بعد الساعة الثامنة كل يوم، رقمي أمامك فانظر جيداً.

كنت بحاجة إلى الانتباه فقط، فوالدي منذ أن دخل الهاتف بيتنا كان حريصاً على أن يكتب رقم كريمة على الجدار حتى لا ينساه، ولا بد أنه أخبر كريمة بذلك سابقاً لهذا عرفت، أسابيع وأشهر وعشرات المكالمات مع كريمة لم توصلني إلى نتيجة، أي ابنة هذه التي لا تشعر بقلق لغياب أمها الغامض، وأي أم هذه التي تترك ابنها وترحل بهذه الطريقة، وهل اتفقتما معاً على عقابي لأني لم أؤمن يوماً بالأوهام؟ وهل على حياتي أن تتوقف، لأن أختي وأمي قررتا هجري الواحدة تلو الأخرى؟!

اتخذت قراري، ليس عليّ أن أحب من لا يحبني، وحياتي لن تتوقف، وسأحتسي كل لحظة من عمري حتى الثمالة، وأصبحت الحياة رائعة، لم أعد أشعر بضياع ولا قلق، ومن الجيد ألا يكون هناك أحد تسعى لإرضائه، لم ينقصني إلا المال، بعد أن أنفقت كل مدخرات والدتي، فكرت ببيع البيت أكثر من مرة ولكن قلبي لم يطاوعني، فاقترح عليّ أحد الأصدقاء أن أقوم بقلب البيت إلى نزل صغير، موقعه وقدمه سيستهوي الكثير من السائحين، وسيدر عليّ الكثير من المال، كانت فكرة عبقرية، فهذا البيت لم يبقى لي فيه إلا الذكريات الحزينة وما المانع من الاستفادة منه؟! قمت بتأجير عدة غرف لسواح كتجربة، وإن نجح الأمر فسأعمل على تحويله إلى نزل صغير، ورن الهاتف وتصادف وجودي وكانت كريمة ودموعها:

– هل جننت يا أخي، لتفكر بأن تبيع البيت؟

- هل أخبرتك عمتي؟ فهي الوحيدة التي عرفت بهذا، لا تقلقي يا أختي العزيزة لم أبع البيت وإن فعلت هذا يوماً فسأرسل لك نصيبك بالكامل.
- أنا لست قلقة، هذا البيت يستحيل بيعه حتى لو أردت أنا وأنت ذلك، ولكن الفكرة بحد ذاتها استفزتني.
- ما دمت واثقة لهذا الحد، فتوقفي عن البكاء، أنت لم تعودي صغيرة!
- أنا أبكي لأني لم أتصور أن ابن أمي سيصل إلى هذا الحد يوماً!
- اعذريني يا أختي، عليّ أن أنهي المكالمة فأنا مشغول قليلاً.
- لن أعطلك عن أشغالك يا أخي، وسأمهلك عدة ساعات لتطرد الغرباء من بيتنا، وإياك أن تسمح لأي كان أن يقترب من بيت عمرة مرة ثانية!
- هل تهدديني يا كريمة؟
- أنت عائلتي وسأعتني بك دوماً، ولكن عليك أن تعلم اني لست عمرة المسالمة، ولن أرحم الغرباء إن اقتربوا من بيت عائلتنا، فأرجوك لا تختبر جنوني!
- كريمة، أنا لم أعد ذلك الطفل الصغير الذي تلاعبت به، افعلي ما يحلو لك، بإمكانك أن تتصلي بأعمامي وتحرضيهم عليّ، ولنرَ من سينتصر بالنهاية!
- أعمامك لم يحبوا أمي يوماً، وهم بالنسبة لي غرباء أيضاً، أما أنت فأخي وحبيبي وعائلتي، فأرجوك اطرد الغرباء ولا تدفعني لأفعل ذلك بنفسي!
- افعلي ذلك بنفسك إذن وتوقفي عن البكاء!

- لا تختبرني يا أخي، أرجوك أخرجهم من بيت عائلتنا.
- لم تعد هناك عائلة، لقد رحلتم جميعاً، وسأرحل أنا أيضاً وهذا البيت ما عاد يعني لي شيئاً.
- يا أخي أرجوك، إن لم تؤمن بمكانة هذا البيت فحافظ عليه من اجل أمك التي أحبتك أكثر من أي شيء آخر بالعالم.
- الأم التي تحب ابنها لا ترحل وتتركه بهذه الطريقة!
- لقد مر الكثير من الوقت، ولا داعي لنقاش هذا الموضوع مرة أخرى، تعال نرجو لها السعادة، ونتعاون معاً للاعتناء ببيت العائلة.
- معك حق أنت وهي من الماضي، وليس عليّ أن أزعج نفسي بالسؤال عن أم تهجر بيتها وابنها بهذه الطريقة الوقحة!
- انتقِ ألفاظك يا أخي ولا تتحدث عن أمنا بهذه الطريقة! ويوماً ما ستكتشف أن ما قامت به نابع من حب لا يشبهه حب.
- ما رأيك يا أختي أن تعاقبيني بصمتك ثلاثة عقود متتالية، وسأحطم هذا الهاتف كي لا تهدري وقتك الثمين بالاتصال؟

ما قلته استفز كريمة فقالت:

- تبا لك يا أخي، وقبل أن تحطم الهاتف اسأل نفسك، ما الذي يدفع أماً إلى ترك قلبها والرحيل عن كل شيء أحبته بهذه الطريقة الغامضة؟! أيعقل أنك لم تلاحظ ما مرت فيه بالأشهر الأخيرة قبل اتخاذها هذا القرار، ألم تسأل نفسك بأنها ربما فعلت ذلك عن حب، صدقني إن إجابة هذا

السؤال لن تسرك أبداً، أرجوك ثق بي، يوماً ما ستلتقي بها وعندها ستحصل على الكثير من الأجوبة.

- أنا بحاجة للنقود حالياً واحتفظوا بالإجابات لأنفسكم.
- سأعتني بك يا أخي، ولن أتركك بحاجة لمال الغرباء أبداً.

استمرت المكالمة لأكثر من ساعة ولم يحدث ذلك سابقاً، لغة التفاوض على المصالح جمعتنا، ولن أثق بها يوماً، عرضت أن توفر لي كل ما أحتاجه من نقود مقابل الاعتناء بالبيت، وألا أنام خارج البيت ليوم واحد، كان طلبها مستحيلاً وسيقيد حريتي، وتوصلنا إلى اتفاق على ثلاثة أيام في الأسبوع، حاولت أن تفاوضني على العودة للجامعة وحتى الزواج من أي فتاة أحبها، فأخبرتها أن اقتراب النساء من قلبي يشبه اقتراب الغرباء من بيت عمرة، قدمت لي الكثير من المغريات ولم يبق إلا أن أختبر إن كانت فعلاً تمتلك المال لتفي بجزئها من الاتفاق، فأنا لم أعرف عنها شيئاً منذ أن رحلت قبل سنين طويلة.

أوفت بوعدها سريعاً، وأنا التزمت بجانبي من الاتفاق، وأصبحت أسير تحويلاتها المالية كل شهر، كلما كنت مطيعاً كان المبلغ يزيد، لم أسأل ولم أفكر كيف بإمكانها أن توفر كل هذه النقود، ماكرة لدرجة تثير الإعجاب، كان بإمكانها أن تعرف كل شيء عني، لم أتمكن من خداعها أبداً. حاولت أن توهمني أن حبها لي يمنحها القدرة لتعرف وترى بعيني، ولم أشك أنها وظفت الكثير من الجواسيس لينقلوا لها كل شيء، كان الاتفاق مريحاً لي ولكني كنت أخشى أن تنفد نقودها فسألتها ممازحاً:

- إلى متى سيدوم الاتفاق بيننا؟
- لا تخف لن تنفد نقودي، أنت عائلتي وسأعتني بك دوماً، وآمل أن يجد جدي حلاً ليعيد لك رشدك مرة أخرى.
- ما دمت ترسلين النقود فلا أمانع أن أنتظر جنونكم!

الحياة صارت أجمل مع دعم كريمة المادي، لا ينقصني إلا امرأة تعتني بي وبالبيت، فبحثت عن زوجة لعليّ أحظى بخدمة الفندق التي وفرتها لي أمي بالماضي، تزوجت بشابة جميلة برعت بالطهي أكثر من أمي وأغرقتني بأصناف طعام لم أعرفها من قبل، واكتشفت أنه لم يخلق الله امرأة قادرة على مزج الطعام بالحب مثل الأم، على الزوجات أن يعلمن أمهات أزواجهن فنون الطبخ الحديثة، ويتعلمن منهن كيف يتم مزجه بالحب، أنا لا أطاق، هذا ما اتهمتني به قبل أن تطلب الطلاق، معها حق فأنا اعتدت على نساء أسكنهن لليلة وأرحل ولا رغبة لي في أن أكون زوجاً صالحاً، كانت خسارة لكريمة فهي من أهدرت مالها على زواج فاشل.

لم توقف دعمها وعلى العكس من ذلك عرضت أن تساعدني بأي مشروع يجبرني على العمل، والاعتماد على نفسي وحين رفضت، خيرتني بين أن أجد وظيفة وفي المقابل ستزيد دعمها لي، أو توقف دعمها بالكامل ولن تهتم بالنتائج، عنيدة مثل أمها وكان عليّ إرضاؤها حتى لا أحرم نفسي من الرفاهية التي اعتدتها، التعرف إلى وجوه جديدة كل يوم أمر ممتع، والعمل على سيارة أجرة استهواني ويحقق لي هذا الهدف، لم أكن لأخضع لرب عمل يوماً، وكان عليّ أن أملك واحدة لأملك بها

حريتي ووقتي، وكريمة خضعت للأمر الواقع ففي النهاية تريد مني أن أعمل ووفرت لي المال، ونقل السواح من المطار والتنقل بهم عبر البلاد كان ممتعاً وخاصة الحسناوات منهم، كان بإمكاني التغيب عن البيت أربعة أيام فقط، وإن تجاوزت اتفاقي كان جواسيس كريمة يخبرونها، وهي حاولت أن توهمني أكثر من مرة أن الحب الذي يجمعنا يمنحها القدرة لتعرف عني الكثير، لقد جاريت أمي وأبي من قبلها ولن يضرني لو جاريتها قليلاً.

مرت أشهر طويلة من السلام ليرن الهاتف ويخبرني أني فعلاً لا أعرف عن حياة أختي شيئاً.

- حبيبي بعد عشرة أيام أريد منك أن تتفرغ ولا تشغل نفسك بأي شيء لمدة أسبوع.
- أسبوع كامل يا كريمة؟
- نعم، وعليك أن تعدني أنك لن تحتسي الكحول خلال هذا الأسبوع.
- نبرة صوتك وحماسك يوحيان أن وراء طلبك هذا أمراً مفرحاً.
- عليك أن تفرح كثيراً، فستقضي أسبوعاً كاملاً برفقة ابنة أختك.
- عمَّ تتحدثين يا كريمة؟ هل لديك ابنة فعلاً؟
- لقد حاولنا أنا وأمي إخبارك بهذا الأمر منذ سنوات، ولكنك لم تكن تريد أن تسمع أي شيء له علاقة بي.
- يا للروعة! منذ سنوات لديك ابنة ولم تأت على ذكرها لا أنت ولا أمك!؟ ما اسمها؟ وكم عمرها اليوم؟ وهل بالإمكان أن أتحدث معها الآن؟

– لقد أسميتها على اسم أمنا أمرة، عمرها ست سنوات، ستكون لديك أسبوعاً كاملاً للتعرف عليها، سأبلغك لاحقاً بموعد وصولها، أرجوك حبيبي اعتنِ بها جيداً وحاول أن تتحدث معها بالعربية فقط حتى يعتاد لسانها على اللغة، عرفها ببيت عائلتنا وبلادنا، وإن انشغلت لأي سبب فلا تتركها إلا عند خالتي خديجة، هل بإمكاني أن أعتمد عليك يا حبيبي؟

– صدقيني سيغمى عليّ من الرعب، كيف بإمكاني الاعتناء بطفلة لأسبوع؟!

– يا إلهي، لو عرفت أن عينيك ستمتلئان بالدموع وستفرح لهذه الدرجة لأرسلتها إليك منذ سنوات، اطمئن لقد تعلمت الاعتماد على نفسها جيداً، ولن ترهقك إلا بثرثرتها.

أنهت المكالمة وتركتني مع الكثير من الأسئلة، أختي هذه بارعة بالتخمين، لقد امتلأت عيناي بالدموع فعلاً، ولكني أخبرتها مثل كل مرة بأنها أخطأت بالتخمين.

ست سنوات لم أعرف أن لي ابنة أخت، لا أشك في أن أمي تابعت حمل كريمة وولادتها وربما تحدثت مع حفيدتها كثيراً، والغريب أنها لم تلمح ولو لمرة لوجودها، ليس عليّ لومها فقد أغلقت الطريق أمام أي حديث له علاقة بأختي، وهأنذا أعد الساعات للقاء حرك بداخلي مشاعر اعتقدت أنها ماتت منذ أكثر من عامين، بعد أن تخلت عني أمي ورحلت.

اتصلت كريمة بعد عشرة أيام وأخبرتني بموعد وصول أمرة الصغيرة بالساعة والدقيقة، بعد حساب فارق التوقيت بين بلادنا، سألتها من سيرافقها فقالت إن لم تجد من يرافقها فستطلب خدمة مرافقة الأطفال وفي الحالتين عليّ أن أحمل وثائق

تثبت شخصيتي لأتمكن من استلامها، لم ترسل لي صورة لها بالبريد المستعجل كما وعدت.

وصلت المطار مبكراً والتصقت ببوابة القادمين، لا حاجة للجوء إلى مكتب الاستعلامات، فكم طفلة بالسادسة من عمرها ستكون على متن الطائرة القادمة من لندن، راقبت ورأيت شابة طويلة شعرها أحمر في منتصف العشرينات، ترتدي حذاء رياضياً وسروالاً رمادياً قصيراً وقميصاً أبيض، تحمل على ظهرها حقيبة بنية، وتعلق في عنقها كاميرا، وتجر أمامها عربة عليها خمس حقائب، وتمسك ذراع فتاة صغيرة شعرها منكوش، ترتدي "أفرهول جينز"، تشبه ما علق بذاكرتي من كريمة الماضي، دق قلبي بقوة مضاعفة وفاجأتني صاحبة الشعر المنكوش حينما تركت يد الصهباء وركضت باتجاهي ثم قفزت في الهواء فالتقطها وعانقتني بقوة، أخفيت وجهي بشعرها الكثيف ولم أتركها حتى أخفيت الدموع التي باغتتني وبالإنجليزية قالت للصهباء:

– هذا خالي يا كاتي هل تريدين معانقته؟

ابتسمت الصهباء وتصافحنا، شعرت بحرارة جسدها، وبرقة عرفت عن نفسها بأنها كاترين، وطلبت مني أن أعذرها لأن عليها أن ترى أي وثيقة تؤكد أني ساري حسان، شكرتها على حرصها وقدمت لها بطاقة هويتي، ألقت عليها نظرة سريعة وعادت لتعتذر مجدداً، حملت واحدة من الحقائب الخمس وقالت:

– تفضل، استلم أمرة وحقائبها الأربع.

قبّلت أمرة وهممت بالمغادرة، وأنقذت قلبي الصغيرة حين عرضت عليها ببراءة أن ترافقنا إلى البيت، ضحكت الصهباء واعتذرت لها، وكانت فرصة لأصر على إيصالها للفندق الذي ستنزل فيه، وبطريقنا مررنا بالحديث على الكثير من أعمال شكسبير، ساعة مرت بسرعة دقيقة، وابنة أختي المهذبة لم تقاطعنا، وحينما قررت أن تثرثر قالت لكاترين:

- هل تعرفين أن خالي اسمه الحقيقي صريخ.

وبابتسامة سألت الصهباء:

- وماذا يعني الاسم بالإنجليزية؟

ضحكت وقلت:

- صريح من الصراحة، أي ما أفكر فيه أقوله فوراً وعليّ أن أخبرك أنك أكثر امرأة جذابة رأيتها في حياتي.

ابتسمت الصهباء وابتهج قلبي، ومنكوشة الشعر ما كنت لتصمت، فعلقت:

- أخبرتني أمي بأن الولد الذي يصرخ كثيراً يطلق عليه اسم صريخ.

وللمرة الأولى في حياتي لا يستفزني لقب صريخ، كم كانت المنكوشة لذيذة حينما أخذت تشرح لكاترين عن جمال بيتنا، وتتحايل عليها أن ترافقنا حتى لو لساعة واحدة لتلتقط معها صورة، عينا الصهباء أخبرتني أنها تود ذلك بشدة، ومع هذا اعتذرت من أمرة ووعدتها أنها ستفعل هذا لاحقاً إن تلقت دعوة. فقلت لها:

- وهل القمر بحاجة لدعوة ليطل؟

ابتسمت، فعرضت عليها أن آتي إليها في الغد وأصحبها بجولة، سرها عرضي، أخذت رقم الهاتف ووعدتني أنها ستتصل بالغد، ودعتنا وأخذت قلبي معها على أمل أن تعيده بالغد، وانطلقنا أنا ومنكوشة الشعر التي منذ اللحظة الأولى قررت أن عليّ أن أحبها أكثر من أي شيء آخر في العالم، سألتها عن كاترين فأخبرتني بالصدفة السعيدة التي التقت بها أختي بالمطار، وعرفت أنها مسافرة على الطائرة نفسها، فطلبت منها أن ترافق الصغيرة فوافقت، قضيت وقتاً ممتعاً مع الماكرة الصغيرة التي تشبه أمها، وعدنا إلى البيت، سألتها عن الحقائب الأربع فقالت إن فيها أغراض لي ولها، وعلى الفور فتحت إحدى الحقائب وأخرجت منها زجاجة عطر فاخرة، وقالت هذه لك، والباقي لي أنا، لم أضحك في حياتي بهذه القوة، وبالقوة منعت نفسي عن التهامها حية، واكتفيت برفعها بالهواء وعض خدها الصغير، سألتني عن الهاتف فأخذتها إليه، طلبت لها رقم أمها فأمسكت السماعة وقالت:

- ابتعد يا خالي، أريد أن أتحدث مع أمي.
- تحدثي يا حبيبتي.
- لا! هذا حديث بنات لا يجوز للأولاد أن يسمعوه!

بسعادة بالغة تركها ونقل حقائبها، وذهب ليجهز لها الغرفة التي كانت مخصصة لكريمة قبل سفرها، وعلى الهاتف دار حديث بين الصغيرة وأمها، سألتها كريمة:

- كيف سارت الأمور يا أمرة؟

- ليست جيدة يا ماما، خالي يتحدث كثيراً، ولم أتمكن من إقناعها بمرافقتنا إلى البيت.
- هل اتفقا على موعد؟
- نعم، غداً صباحاً سنذهب لنحضرها لتزور البيت.
- وإن لم توافق ماذا ستفعلين؟
- سأتدلل عليها وأتعلق بها وأرجوها أن تأتي لتلتقط لي بعض الصور بكاميرتها لأريها لأصدقائي.
- اذهبي إلى النوم يا حبيبتي وغداً سنتحدث معاً.

نامت أمرة الصغيرة، وفي الصباح استيقظت على قبلة من خالها، تناولت الإفطار الذي أعده خصيصاً لها، تحدثا وضحكا كثيراً قبل أن يخبرها أنه ينوي أن يأخذها لقضاء بعض الوقت مع خديجة، تبرمت وسألته لماذا لا يصحبها معه لمقابلة كاترين، وما كان ساري ليصحب طفلة بموعده الأول مع المرأة التي أعادت الحياة إلى قلبه، فاختلق لها الكثير من الأعذار، ووعدها أنه لن يطيل الغياب، وإن سنحت له الفرصة سيحضر كاترين معه ويصحبها لتناول الغداء معاً، لم يرق للصغيرة أن خالها سيهملها من أجل فتاة أخرى، شعرت بالغيرة والحنق، واتخذت قرارها ألا تسمح بحدوث هذا، وحرصت أن تكون قريبة من الهاتف حتى لا يسبقها للرد، حين تتصل منافستها الصهباء، وحالفها الحظ حين رن الهاتف أثناء ارتدائه ملابسه، فردت:

- "هالو" من معي؟

- أنا كاترين، كيف أنت يا أمرة؟ وهل بالإمكان أن أتحدث مع خالك؟
- لقد ذهب ليحضر حبيبته، وسيحضر بعد قليل، وأريد أن أسألك لماذا الأولاد لا يحبون البنات ذوات الشعر الأحمر؟
- الأولاد حمقى لا تهتمي لما يقولونه، والآن سأتركك وأعاود الاتصال بك لاحقاً.
- هل تريدين أن أخبره بشيء حين يعود؟
- أخبريه أني اتصلت لأعتذر لأني لن أتمكن من لقائه في الوقت الحاضر، وسأتصل به لاحقاً إن سمحت الظروف.

عاد ساري وأخبرته أن كاترين اتصلت وأخبرتها أنها وجدت سائقاً آخر ليقلها، طريقة لفظ أمرة للكلمات دفعته ليشك في أنها ربما فهمت ما قالته بصورة خاطئة، وأصر عليها أن تعيد نقل ما سمعته بالحرف فأعادت عليه الجملة التي اخترعتها ولم تعلم أن كذبتها الصغيرة ستترك ألماً فظيعاً في قلبين؛ هو لا يحب صاحبات الشعر الأحمر وهي لم تر فيه سوى سائق أجرة استغنت عنه حين توفر غيره، وأسرعت الماكرة لأحضان خالها وسألته:

- ماذا سنفعل اليوم؟
- سأفعل كل ما تريدينه، لن أتركك للحظة وستكونين حبيبتي وصديقتي الوحيدة، هيا لننطلق.

لام نفسه على انجذابه المتهور الأحمق تجاه الصهباء، وبذل كل ما في وسعه لإسعاد حبيبته الصغيرة، وفي المساء حان موعد حديث أمرة مع أمها كريمة،

وحرصت أن يكون ذلك بعيدا عن مسامع خالها، وأمرة الصغيرة ما كانت لتشك للحظة بأن أمها قادرة على معرفة أي شيء وبدأت المكالمة بنبرة حزينة:

- هل أنت غاضبة مني يا ماما لأني كذبت؟
- لماذا فعلت هذا يا حبيبتي؟
- لا أعلم يا ماما، لقد أراد أن يتركني ويذهب إليها، أنا أعتذر سامحيني.
- لا تعتذري يا حبيبتي، فعلت أكثر من هذا بسنك، والفرق بيننا أن غيرتي أفسدت حياتي، أما غيرتك فقد أفسدت خطط أمك، لا تسير الأمور أبداً كما نخطط لها، وأنا التي عليّ أن أعتذر لأني أقحمتك في خططي، هيا ابتسمي.
- هل هناك خطة ما جديدة يا ماما؟
- نعم، الخطة أن تستمتعي بكل دقيقة ولا تتوقفي عن عناق خالك، فهو يحتاج إلى ذلك كثيراً.
- سأذهب إليه وأعانقه الآن "باي ماما".

جاءت إلي وعانقتني، غمرتني بحب ما كنت لأرتوي منه أبداً، مر الأسبوع بلمح البصر، وحانت اللحظة التي سأشحن فيها قلبي على متن إحدى الطائرات المحلقة إلى لندن، عدت إلى البيت وحيداً مع ذكريات أسبوع حب طاهر نقي، لم تنقطع علاقتي بصديقتي الوحيدة، وواظبت على الحديث معها على الهاتف وحرصت على أن أرسل إليها الهدايا بعيد ميلادها السابع والثامن والتاسع، وعلاقتي بكريمة أصبحت أفضل من السابق، وكانت بارعة بإفسادها بالحديث عن أوهام البيت.

ثلاث سنوات مرت على لقاء أمرة الصغيرة، وما زلت أشعر بالغضب كلما تذكرت أن كريمة زرعت بعض الأوهام في رأس الصغيرة، قبل سفرها بيوم طلبت أن تنام بغرفة جدتها، وحين سألتها عن السبب، ردت ببراءة بأنها تريد أن تعانق جدتها عمرة، وصعقت حينما علمت منها أن كريمة هي من أخبرتها بذلك، لم يكن أمامي ما أفعله سوى الصمت، وما كنت لأزج عقل هذه الصغيرة بجدل لن تفهم منه شيئاً، امتنعت عن أن أوضح لها أن جدتها رحلت منذ زمن ولن تحضنها يوما، تركتها تفعل ما تريد وتمنيت لها حلماً جميلاً تلتقي فيه بجدتها الغائبة، وفي الصباح أخبرتني أنها سعيدة جداً لأن جدتها عانقتها كثيراً، وعلى أثر ما قالت شبكت أصابعي وعضضت على السبابة، وتساءلت هل بلغت أختي هذا الحد من الجنون لتزرع في رأس ابنتها هذه الأوهام وتدفعها لتتخيل حدوثها؟! ما أصعب أن تكون فرداً من عائلة مهووسة بالأرواح والخرافات، وتصر على نقلها إلى الجيل الجديد!

الإيمان بالجن ورثه والدي عن أجداده ولم يثبت وجوده قط، ولا ألومه فهو جزء من ثقافة مجتمع كامل، والأشباح والحياة بعد الموت لم تثبتها أمي يوماً، وقد ورثتها عن المجتمع الإنجليزي الذي ترعرعت فيه، وأختي ورثت هذه الأوهام وها هي تحرص على أن تنقلها لابنتها الصغيرة، وأنا كنت صوت العقل الوحيد في هذه العائلة، وعجزت عن تفنيد الأوهام التي تجذرت في نفوس عائلتي، ربما عليّ أن أكتشف علماً يقوم على فن الوهم لطرد الوهم من عقول البشر، وربما كان على أمي أن تستأصل من دماغي ذلك الجزء الذي يفكر بمنطق وعقلانية، لأشارك الجميع أوهامهم بسعادة، وأتساءل:

- لو رويت قصة عائلتي على أي كان، فهل سيختار صوت العقل الذي يقول كانت هناك امرأة اسمها عمرة حققت المستحيل بإرادتها واحتاجت إلى حلم ليقوي عزيمتها، أم سيؤمن بخرافات لا أساس لها ولم يثبتها أحد يوماً؟

أمي لم تعد، وأشك في أنها ستعود يوماً، لم تتوقف صديقتها العجوز خديجة عن زيارة بيتها مرة في الأسبوع أو مرتين، وربما كانت تفعل ذلك كل يوم في غيابي وكلما رأتني تكرر السؤال نفسه:

- هل عادت والدتك؟
- لم تعد يا خالتي خديجة ولن تعود.
- بل ستعود، فهذا البيت كل حياتها.

خديجة ليست من الغرباء بالنسبة لأمي وأختي وبإمكانها أن تزور بيتنا في أي وقت، أنا لا أعترض على هذا لو فعلته بصمت، دون الحاجة لتعذبني بمواعظها وحكمها ونصائحها التي لا تنتهي، هذه المرأة العجوز مصابة بهوس اسمه عمرة، لا أكرهها ولكني لا أريد رؤية صورة أمي في عينيها.

لا أكرهه فهو ابن حبيبتي عمرة، ولكني أستفز كلما زرت هذا البيت والتقيت به، يليق به اسم صريخ أكثر من ساري فكل شيء فيه يصرخ بالفشل، كان وسيماً تجاوزني بالطول، عاش برفاهية بعكس أخته، ومع هذا خيب أملنا جميعاً. أعلم أنه يتذاكى ويتظاهر بالانشغال ليهرب مني، فأطلب منه قبل أن يغادر أن يقترب لأعانقه وأهمس في أذنه:

- لقد سألت أمك يوماً كيف سأعرف إن عانقت أحداً بأنه يحبني فأجابتني "المهم أن يعرف هو أنك تحبينه".

كان يبتسم ويقول أنا أحبك يا خالتي خديجة، فأسمح له بالذهاب. أكرر زيارتي لكل زاوية جلستُ فيها مع أمه في هذا البيت، وكلي أمل أن آتي إليه يوماً وأجدها في انتظاري. حالياً سأكتفي بأن أشم رائحتها العالقة في الشجر والحجر، لأتخلص من القلق والتوتر اللذين لم يفارقاني منذ غيابها، لقد كانت أصدق امرأة عرفتها يوماً ولم أشكك للحظة في أنها عاشت في هذا البيت حياة سابقة، ولن أفهم لماذا غادرته فجأة، لا يمر يوم دون أن أتحدث مع كريمة على الهاتف لساعة وأكثر، ومنذ اختفاء عمرة لم أعد قادرة على تبادل النكات معها، توسلت إليها أن تخبرني بأي شيء عن المكان الذي ذهبت إليه أمها، وتوسلت إلي أن أتجنب الحديث معها حول عمرة، لم أتمكن من أن أنتزع منها حرفاً، وكانت تردد على مسامعي بين الحين والآخر:

- ستلتقينها يا خالتي، ربما لن يكون هذا قريباً ولكنها ستجد طريقها لزيارتك.

تلميحات كريمة إلى أن عمرة ستزورني يوماً كانت أشبه بقطع أحجية متناثرة، وكلما حاولت جمعها لأرسم جواباً فيه بعض المنطق لاختفائها، كنت أشعر باختناق وأغرق في حزن عميق. قبل اختفائها بأشهر شعرت بالقلق حينما لاحظت عليها المرض وكعادتها كانت تكابر وتتظاهر بأنها بصحة جيدة، وحين ألححت عليها بمرافقتي لزيارة طبيب رفضت بشدة، وأي نتيجة سأصل إليها وكل الدلائل اجتمعت

لتؤكد على حقيقة سوداء واحدة، هذه المرأة الشجاعة اكتشفت أنها تعاني من علة ما، واتخذت قرارها أن تجنب ابنها العذاب، حتى لا يراقبها تذوي أمامه، اختارت أن يكرهها على أن تبقى وتعذبه، إنها عمرة وهذا ما ستفعله، لن تسمح أن تشارك آلامها مع من تحب، بأعماقي أشعر وأعلم أن هذا هو السر وراء اختفائها، وعلى الرغم من يقيني فإني أريد الإيمان بأني مخطئة، وأنها ستعود قريباً، لهذا أسأل في كل مرة "هل عادت عمرة إلى البيت" ويجيبني ابنها:

– لا لم تعد يا خالتي خديجة.

فأنظر إليه وأرى خيبة أمه في عينيه، أعود في ذاكرتي لسنوات طويلة مضت، لقد كان الطفل الوحيد في العالم الذي حملته أمه تسعة عشر شهراً، تسعة حملته في رحمها وعشرة شهور ألصقته بجسدها ليل نهار؛ لتراقب حرارته إن ارتفعت؛ مرت عليّ لحظات دعوت فيها الله أن يرفع روحه إلى السماوات ويريح أمه من عذابها، إلى أن كافأها الله وكتب له الحياة، كنت على يقين بأن عيوباً خلقية سترافق جسده وعقله إلى الأبد، لكنه على عكس ما توقعت، أصبح بهي الطلعة، يمتلك عقلاً أكبر من عمره، حينها آمنت بأن الله قد عوضها ومنحها الابن الذي يشبهها بعد أن عذبها بابنة ما كانت أي أم لتتردد بخنقها، وفي حياة هذه المرأة لم يسر شيئاً كما توقعت، الابنة انتصرت على فشلها، وكانت فخراً تحلم به أي أم، والولد هجر كل ما كان عليه، فأمسى خيبة أمل لأي أم، أين أخطأت عمرة وقد كانت أعظم أم لأبنائها وزوجها، ولي ولأبنائي أيضاً.

علمتنا جميعاً أن السعادة لن تزورنا يوماً إن لم ندعوها، تحيط بنا وعلينا أن نراها لترانا، عانقتني وحررتني من التوتر والقلق، وعلمتني أن الحب لا نراه وإنما نشعر به، لا تتوقفوا عن عناق الأحبة حتى يعرفوا كم نحبهم ويتعلموا كيف يحبوننا، لم نعلم هذه المرأة كيف تبتسم وعلمتنا كيف نعانق ونحب، رددت دوماً "يكره الناس الصادق لساعة والكاذب طوال العمر"، "بناء بيت يحتاج إلى أيام وبناء أسرة إلى أعوام"، "والسعادة تسكن نفوس البشر لا البنوك"، نشتري لحظة سعادة بامتلاك يخت وقصر، أما زراعة وردة فتمنحنا سعادة ألف لحظة.

المال لايشتري السعادة...

السعادة لاتُشترى بالمال...

لافارق بين الجملتين،

أقولها أنا خديجة بعد أن تذوقت طعم الكافيار والخبز اليابس،

ووجدت السعادة طريقها إلي

ولكل حكاية نهاية بإمكان القارئ أن يرسمها كما يشاء... وبعض الأجوبة علينا البحث عنها بين السطور، ومحق من يعتقد أن هذه الحكاية لم تبدأ بعد...

سيكون بانتظاركم (أبو سلمى) لتبحروا معه إلى عالم مليء بالغموض والأسرار



الأعمى والجمل

فرك جدي قاسم المصباح السحريّ فخرج منه والدي، كان حاد الذكاء، تعلّم لغات عدة، عشق التاريخ وأبحر فيه، برع في ترجمة الوثائق والرموز فصار مرجعية في كل ما هو قديم. هذا ما روته أمي في صغري، وحين كبرت، اكتشفت أنه لم يكن أكثر من إسكافي، وأن جدتي هي مصباح علاء الدين، فركها جدي فخرج منها والدي، لا أعي متى فقد أبي رشده ليترك كل شيء خلفه ويتحول إلى إسكافي يصلح أحذية الناس.

في السابعة من عمري تعرضت إلى حادث فقدت على أثره نعمة البصر، ومع ذلك لم يكبح ما أصابني جماح فضولي وحاجتي إلى المغامرات واللعب مثل بقية الأولاد، تلمست طريقي ولم أرَ، اعتقدت أن لا أحد يستطيع رؤيتي أيضاً، أحببت لعبة الاستخباء، وهل هناك شيء أكثر سخرية من براعة أعمى في هذه اللعبة!

غرقت في الظلام سنوات وكنت أرى عبر حاسة السمع، ووجدت تسليتي بالتسلل إلى دكانة والدي الصغيرة والاختباء خلف مجموعة من الصناديق القديمة لأسترق السمع إلى ثرثرة زبائن والدي الصامت الذي ندر أن نطق بجملة كاملة، وفي أحد الأيام خيل إلي أني أرى عجوزاً شعره أبيض يتجول في دكانة والدي بصمت، كان حلماً جميلاً لضرير، سمعت قرع جرس غريب، فاستعنت بما خزنته ذاكرتي حين كنت مبصراً فلم أجد شبيهاً له غير جرس معلق في رقبة كبش يقود قطيع أغنام، الأصوات كانت يقيني، فرحت حينما سمعت قهقهة العجوز الأبيض الذي خيل إليّ

أني أراه وما يحيطه بما لا يتجاوز المتر، لم أر أبي ولكن صوته أكد لي أن ما أراه حقيقة، حين سأل الأبيض:

- ماذا تريد أيها العجوز، لا أعتقد أنك جئت لإصلاح حذائك؟

قهقه الأبيض ساخراً ثم قال:

- سأسير حافياً ولن أرهقك بإصلاح عقلي، الأحذية مثل العقول إن عطبت فمكانها القمامة.

ضحك أبي وبالنسبة لي كانت هذه المعجزة الثانية، فلا أذكر أني سمعته يضحك يوماً، ثم سأل:

- وما علاقة الأحذية بالعقول يا عجوز؟

- العلاقة وثيقة، ففي الماضي كانت الأحذية تحمي الأقدام، أما اليوم فهي تفكر وتدل على مكانة من ينتعلها، لا تقلق يا شاكوش، فقد جئت لأطمئن عليك فقط وأتسلى قليلاً.

- ألا تمل من العبث بحياة الناس أيها العجوز الشرير؟

- ها ها ها... وأين ساجد قصصاً جميلة إن لم أصنعها بنفسي؟! بعد سنين سترحل عن هذا العالم وسأزور أولادك وأخبرهم أنك فضّلت أن تمتهن مهنة جدك في إصلاح الأحذية على الثراء الذي عرضته عليك.

ضحك أبي بأعلى صوته وقال:

- وهل ستروي لهم القصة كاملة أم ستشوهها كعادتك.

- أين ستكون الإثارة إن أخبرتهم الحقيقة؟ ما دمت أنا الراوي فسأحذف ما أشاء وأترك لعقولهم الصغيرة مهمة التشويه.
- بعد رحيلي افعل ما شئت، أما حالياً فلا أدين لك بشيء، لذا لا تطلب أن أرقص أو أغني لأضحكك.
- الأحذية أعيتك وما عدت قادراً على إضحاكي، ومن أجل ذكرى الأيام الماضية سأعود قريباً لأقدم لك خدمة مجانية.

اختفى العجوز وعاد الظلام، لم أملك الجرأة لأخبر أياً كان بأن بصري قد عاد لدقائق معدودة، احتفظت بالأمر سراً وأصبح شغلي الشاغل التسلل إلى دكانة أبي لعلي أحظى مرة أخرى ببعض النور.

بعد شهور عدة، عاد الأبيض، فأخذت أتابعه من مخبئي وأرى كل شيء اقترب منه بوضوح، كان والدي منشغلاً بإصلاح حذاء، لكن صورته لم تطابق تلك التي أحتفظ بها في ذاكرتي، فقد بدا أكبر سناً بكثير. قرع العجوز الجرس وقهقه:

- ما هي أخبارك يا شاكوش؟

رد عليه والدي، وأيقنت أنه لم يكن يراه إلا بعد أن قرع الجرس، الأبيض كان لي واقعاً، أما والدي فكان الشبح الذي أسمع صوته ولا أراه إلا لحظات معدودة حين يمد العجوز ذراعه فيكون أبي ضمن دائرته، لم يتوقف أحدهم من السخرية من الآخر، شعرت بدفء الصداقة التي تجمعهما. قال الأبيض بعد أن قهقه:

- إن وافقت يا شاكوش، فسأقدم لك خدمة مجانية، أعيد إليك عبرها ما سرقه ابنك الثعلب لعل ذلك يساعدك على إعالة صغيرك الأعمى.

- ابني لم يسرق شيئاً ولا أتمنى له إلا الخير، فلا تتدخل أيها العجوز، وأنا قادر على إعالة الصغير.
- ها ها ها يحيرني كيف أنجبت هذا الأعمى وأنت هرم، هل استعنت بأحد لهذه المهمة يا شاكوش؟!
- لماذا عدت لإزعاجي بعد هذا الغياب أيها الخبيث؟ ماذا تريد مني؟ أرجوك لا تقل إنك ستقدم لي خدمة مجانية، فأنا أعرفك، لا تفعل شيئاً بلا مقابل.
- معك حق، أنا أتألم إن قدمت شيئاً مجاناً، ولكن هذه المرة سأحتمل الألم من أجلك، ولهذا قررت أن أشتري ابنك الأعمى.

رد أبي على العجوز بنبرة حزينة حتى إنني كنت قادراً على أن أشم رائحة دموعه وقال:

- تباً لك أيها العجوز، هل ضاق بك الكون ولم يتبق أمامك إلا ابني العاجز لتعبث بحياته؟
- العميان مسلون أكثر من المبصرين، تخيل كم سيكون الأمر مضحكاً حين أختبئ وأطلب منه أن يجدني، وكلما تعثر سأسخر منه وأمرح... ها ها ها.
- وهل سخريتك من عجز ابني هي الخدمة المجانية التي ستقدمها لي؟
- نعم، أردت أن أطمئنك إلى أنه بعد رحيلك سأجد من أسخر منه ويسليني، وأنت يا صديقي، حصلت على الأجوبة ومن خلالها على الهدوء الذي أردته ولم يعد يقضّ مضجعك إلا مصير ابنك الأعمى،

وكرماً للسنوات الماضية أردت أن أريح نفسك وأخبرك أن ابنك بإمكانه أن يرى لكنه بحاجة إلى من يعلمه، لهذا سأتفاوض معه وأشتريه وأسخر منه كما أشاء.

- يا إلهي! سأفعل أي شيء من أجل أن يعود لابني بصره مرة أخرى، وسأدين لك إلى الأبد أيها العجوز البغيض.
- لن أعيد إليه بصره أيها الأحمق الهرم الممل، هيا استثمر ما تبقى لك من أيام، اشتر له جملاً وعلمه كيف يجني رزقه واترك لي مهمة تعليمه كيف يرى أكثر منكم أيها العميان.
- شراء جمل والاعتناء به يفوق قدرتي أيها العجوز.
- اذهب إلى ابنك الحقير واطلب أن يساعدك.
- أنت تعرف أني لن أفعل ذلك يوماً.
- إذن، خذ ابنك الأعمى وتسول عليه في الأسواق واجمع ثمن الجمل ولا تبخل علي بالقليل من المرح ها ها ها.

اختفى العجوز وأخذ معه النور الذي أضاء عالمي، ومع هذا كنت سعيداً لأن بصري سيعود يوماً، كنت متشوقاً إلى أن أسأل أبي عن شقيقي الأكبر الذي لم أعرف بوجوده سابقاً ولكني فضّلت أن ألتزم الصمت.

بعد أسبوع اصطحبني والدي إلى مزرعة أحد أصدقائه وأخبرني أنه اشترى لي جملاً وطلب أن ألا أخبر والدتي حتى لا يثور جنونها، مرت أسابيع لم نتوقف عن زيارة

الجمل، والصورة الوحيدة له بذاكرتي بحجم جبل، لهذا لم أجرؤ على الاقتراب منه، تمتمات والدي كانت مسموعة حتى إنه سأل الجمل جهراً:

– هل أنت آخر نكات العجوز أيها الجمل؟

وخشية أن يتسلل اليأس إلى قلب والدي استجمعت شجاعتي واعتليته فخيل إليّ أني أرى الجمل بوضوح، وسرعان ما رأيت ظهر والدي الهرم يمسك خطام الجمل ويسير به، فلم أتمالك نفسي، وصرخت: "أبي، أنا أراك". فالتفت إلي مندهشاً، رأيت وجهه الهرم وعينيه الذابلتين، رفع يده اليسرى وسألني "ماذا فعلت الآن؟" فأخبرته بما فعل، أخذ يختبرني ويسألني وكنت أجيبه وأصف له الجمل، وفجأة اختفى ولم أعد أسمع إلا صوته، فطلبت أن يعود ويقترب من الجمل لأتمكن من رؤيته فعاد ليظهر أمامي كشبح وبعد تجارب عدة توصلنا إلى نتيجة مفادها أن رؤيتي مرتبطة بدائرة صغيرة تحيط بالجمل فقط. ودّعت الجمل ومعه النور، وفي طريق عودتنا سمعت والدي يطلب من رجل أن يسمح لي باعتلاء جمله دقيقة، كانت تجربة مخيبة للآمال وأدركنا أن عودة بصري ليست مرتبطة بأي جمل.

طلب والدي أن أحتفظ بالأمر سراً وألا أخبر أحداً، وأخذ يشرح لي عن عالم الأرواح مبسّطاً الأمور ليستوعبها عقلي الصغير، بحت له بأني أعلم بأمر العجوز، وكنت موجوداً في ذلك اليوم.

أسابيع وتوطدت علاقتي بالجمل، ولم أعد أطيق فراقه، بدأت أجد طريقي إليه دون مرافقة والدي. تجاوزنا حدود المزرعة ومع كل يوم كنا نبتعد أكثر حتى قادنا القدر إلى موقع يتردد عليه السواح، كنت أسمع صوتهم أولاً وحين يقتربون من الجمل

كنت أراهم، مرت شهور وأعوام واحترفت مع جملي كسب النقود وإعالة أسرتي، وبعد أشهر عدة على رحيل والدي رحمه الله، كنت في الموقع الذي اعتدت المرابطة فيه، فسمعت قهقهة أدخلت البهجة إلى قلبي وعلى أثرها رأيت العجوز الأبيض، وتساءلت في سري هل يعلم أني رأيته قبل سنوات، لكنه وفر عليّ عناء السؤال حين قال:

– أنا لست أعمى أيها الأعمى، فمن يراني أراه، والآن أخبرني لماذا تتكبد كل هذا العناء لتأتي إلى هذا الموقع إن كان بإمكانك التسول بالقرب من بيتك؟

– أنا أعمل ولا أتسول لا آخذ شيئاً من أحد دون مقابل.

– ها ها ها، أنت أعمى عاجز، ما دمت لا تستطيع الرؤية أبعد من جملك الأجرب، وستبقى ملتصقاً بهذا المكان في انتظار أن يتعثر بك أحدهم ليشتري تذكرته إلى الجنة بالتصدق عليك ببضعة دولارات، والآن عليك أن تختار التسول لبقية حياتك أو مفاوضتي على شرائك لتفعل كل ما أطلبه منك، وليس عليك القلق، فأنا سخي وسأدفع لك الكثير من المال.

– وهل ستعلمني كيف أرى بعد شرائي؟

– ها ها ها سأعلمك التسول نهاراً والرقص لأصدقائي وإضحاكهم ليلاً، وسأدفع لك نصف دولار يومياً، أعلم أن هذا مبلغ كبير ولكني سخي. هيا، اغتنم الفرصة واطلب أن أقرع الجرس الفضي لتتم الصفقة.

– هل تمازحني؟ أنا أكسب في اليوم الواحد أكثر من عشرة دولارات.

- إذن، أخبرني كم تريد ثمناً لك لنتفاوض عليه؟
- أريد أن تفي بوعدك لأبي وتعلمني أن أرى وألا تسخر مني وسأفعل كل ما تطلبه.
- أنت أعمى، والأعمى لا يرى، ولا حاجة لي بك سوى أن أضحك وأسخر منك، إما أن تقبل عرضي وإما أن ترفضه.
- إذن، أنا أرفضه.
- لا تتهور أيها الأعمى، تعلم فن التفاوض ولا تفسد علي المتعة، هيا بإمكانك أن ترفع سقف مطالبك كما تشاء وربما سأعيد إليك يوماً ما سرقه شقيقك من والدك.
- أريد أن أرى فقط وأن تتوقف عن السخرية مني.
- يستحيل ألا أسخر منك، فلا شيء يسرني أكثر من مراقبة أعمى يتعثر ويسقط على وجهه ها ها ها.
- كوني ضريراً لا يعطيك الحق في أن تسخر مني.
- أنت أعمى، وصحبتك ستزيدني مللاً ولن ترى يوماً أبعد من جملك.

كم كان فظاً وبارعاً في قلب حبي له إلى بغض، كلماته أعادت إليّ الشعور بالعجز الذي غادرني منذ سنوات، لم أجد ما أرد به عليه؛ فانهمرت الدموع من عيني رغماً عني فيما واصل قهقهته اللعينة واستفزازي بكل الطرق، فقلت له:

- أتعلم، لا شيء تملكه أريده منك لأتفاوض عليه، ويسعدني أن أبقى ضريراً ما دمت لن أرى وجهك مرة ثانية.

- إذن، سأتركك تعود للتسول أيها الأعمى، وحينما يموت الجمل ستأتي إلي متسولاً نصف هذا المبلغ ولن أعطيك إلا ربعه.

سنوات وأنا أنتظر ظهوره، لكنه اختفى وكأنه لم يكن إلا صنيع خيالي، كنت أعتقد أنه الملاك الذي يحرسني فتحول في لحظات إلى شيطان بغيض، جاء ليخبرني أني لست أكثر من عاجز متسول، كرهت نفسي، وهذه البقعة التي اعتدت أن أرابط فيها طوال سنوات، قدت جملي وهمت على وجهي، لأهرب من كل شيء إلى التلاشي.

في الطريق سمعت أحدهم يتحدث معي بالإنجليزية وحين اقترب من الجمل رأيته، كانت بالقرب منه امرأة حسناء. طلب أن يلتقط صورة مع الجمل مقابل خمسة دولارات، فسألته:

- وهل ستدفع من باب الشفقة لأني ضرير؟

فغر فمه وسألني:

- إن كنت ضريراً كيف تراني؟!

لم أرد على سؤاله وتركته يعتقد أني أمازحه، ثم قلت له:

- أريد عشرة دولارات، إما أن تقبل أو ترفض، فأنا لا أتسول المال.

وافق على الفور، ومن ابتسامته عرفت أن شخصاً لا أراه التقط له صوراً عدة، أعطاني النقود وشكرني، فقلت له:

- بإمكان زوجتك أن تلتقط صوراً مع الجمل ولن آخذ منك إلا خمسة دولارات.

فضحك وأشار بيده في الاتجاه الآخر وقال:

– هذا صديقي، وليس زوجتي.

فأشرت بيدي وأخبرته أني أقصد تلك الشقراء التي تضع النظارات الطبية، فرد علي:

– أنت ظريف أيها الشاب، وأصبت التخمين، فعلاً زوجتي شقراء وارتدت النظارات الطبية في حياتها.

ابتعد هو واقتربت الشقراء وسألتني:

– هل تراني فعلاً؟

فصرخت بها، أنا لست ضريراً، وبإمكاني أن أرى، لست بحاجة إلى شفقة من أحد، فتركتني وابتعدت.

قدت الجمل، وتمنيت أن يعود العجوز لأخبره أني لا أنتظر أن يشفق عليّ أحد، كان هذا البغيض في عقلي. ظهر فجأة ولم يتوقف عن القهقهة، سألني إن كنت فكرت بعرضه، وكانت فرصة لأنفس عما اعتمر قلبي من غضب، فأخذت أشتم وأشتم حتى شعرت براحة امتزجت ببعض الندم، فلا يجوز أن أتعامل مع من هو في مثل سنه بهذه الطريقة، وعلى الفور اعتذرت له، فضحك وقال:

– لا تهادن ولا تعتذر أيها الصغير، حتى لا تتحول إلى فريسة سهلة لما ينتظرك، والآن أخبرني، لماذا أخبرت المرأة أنك لست أعمى؟

– لقد كذبت عليها حتى لا تشفق على حالي، فلا أريد أن آخذ نقوداً من أحد لكوني ضريراً فقط.

– إذن، ما رأيك أن أقرع الجرس الفضي ونبدأ التفاوض من حيث انتهينا؟

- لا أريد نقودك أيها العجوز، وأنا لست سلعة تشتريها.
- إذن، لنتفاوض، لن أتوقف عن السخرية منك أبداً، وفي المقابل سأسمح لك ألا تكون مهذباً وتشتم كما تشاء.

ما كنت لأشتم من هو بعمره، ومع ذلك أثار جنوني بلسانه البذيء. لن أنسى طوال عمري ذلك اليوم الذي تلاعب بي العجوز، أبكاني وأضحكني وبذل الكثير من الجهد ليعلمني كيف لا أكون مهذباً، كان بارعاً في الخلط بين المزاح والجد.

أوضح لي أن الجمل لا علاقة له بما أرى وإنما كانت روح برفقتي تهمس في أذني وتحفز روحي على الطواف القصير خارج الجسد وأن رؤيتي أشبه بحلم. فسألته:

- ما حاجتنا إلى الجمل إذن؟
- الأرواح لا قدرة لها على احتمال ضوء الشمس الساطع وتحتاج إلى ظل، والجمل يوفر ذلك في أي مكان.
- هل سأبقى مرتبطاً بالجمل إذن؟

فرد ساخراً:

- هل تريد أن أعلمك كيف تجد طريقك إلى زوجتك مستقبلاً أم أقوم عنك بهذه المهمة الشاقة؟ لا تقلق لن تكون عاجزاً مثل المبصرين لتكتفي برؤية انعكاس النور.

هذا القصة ليست جزءاً من الرواية القادمة، لكن الأعمى أحد أبطالها.